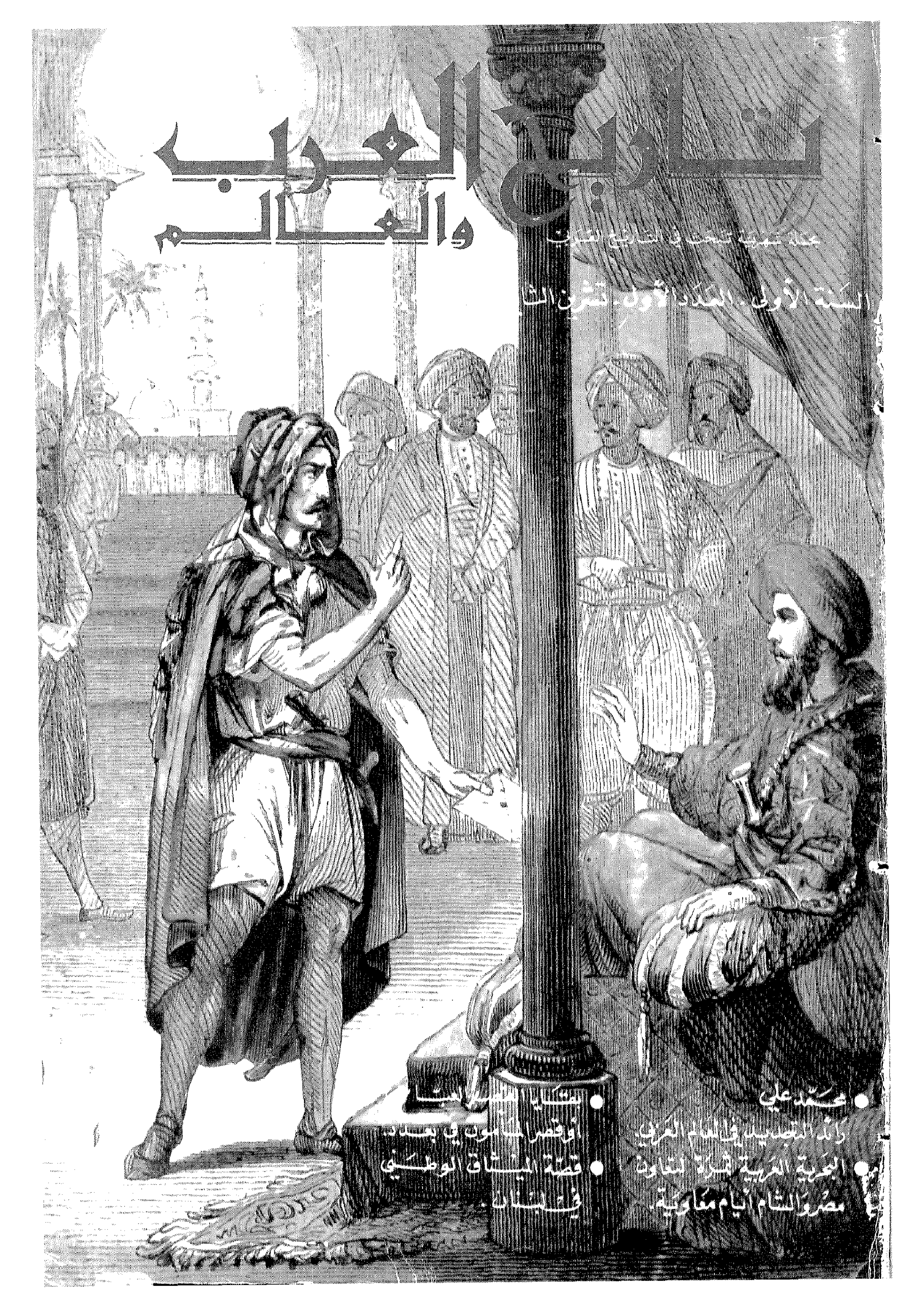
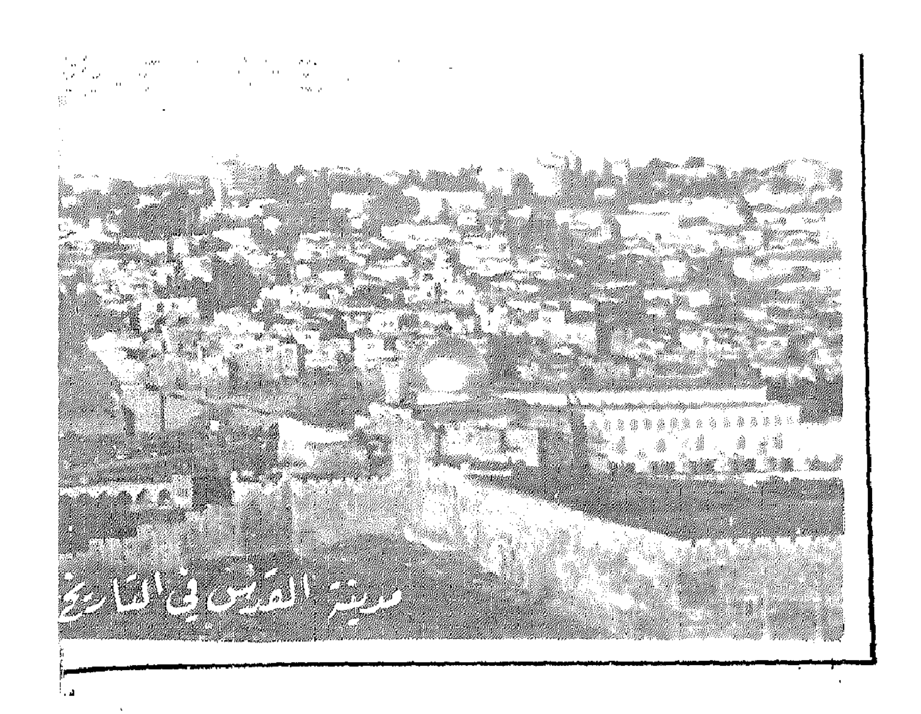

تاريخ العرب
والعالم
مجلة شهرية تبحث في التاريخ العربي
السنة الأولى . العدد الأول . تشرين الثاني
• محمد علي
رائد التجديد في العالم العربي.
• البحرية العربية ثمرة لتعاون
مصر والشام أيام معاوية.
• بقايا القصر العباسي
أو قصر المأمون في بغداد.
• قصة الميثاق الوطني
في لبنان.

الماضي الذي سيأتي في اعدادنا المقبلة



مدينة القدس في التاريخ



حضارة الصورة

السنة الاولى
العدد الاول
تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨
ذو الحجة ١٣٩٨ هـ

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية تبحث في التاريخ العربي

تصدر عن دار السياسة للصحافة والنشر

رئيس التحرير فاروق البربير — المدير المسؤول محمد مشموشي

ص.ب ٥٩٠٥ ـ بيروت ـ لبنان ـ بناية ابو هليل ـ [illegible] ١١ ـ شارع السادات ـ تلفون ٣٤٦٢٧٦

الاشراف الفني: شركة سيفما للتصميم والطباعة
الانتاج: المطابع التعاونية الصحفية

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات
الاعلانات: يتفق بشأنها مع الادارة

ثمن النسخة

لبنان: ٤ ل.ل ـ سوريا: ٦ ل.س ـ العراق: ٧٠٠ فلس ـ ليبيا: ٨٠٠ درهم ـ السعودية: ٧ ريال ـ الكويت: ٥٠٠ فلس ـ الاردن: ٥٠٠ فلس ـ ابو ظبي: ٨ درهم ـ دبي: ٨ درهم ـ قطر: ٧ ريال ـ البحرين: ٧٠٠ فلس ـ مسقط: ٨٠٠ بيزة.

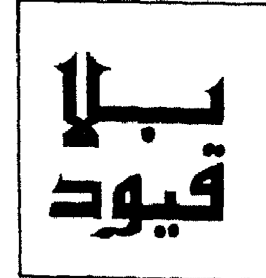
الاشتراكات

في لبنان: ٥٠ل.ل ـ المؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ل.ل ـ في الدول العربية: ٧٥ل.ل. في افريقيا واوروبا ١٠٠ل.ل ـ دول العالم الاخرى: ١٥٠ل.ل ـ المؤسسات والدوائر الحكومية في العالم العربي: ١٥٠ل.ل.

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
A MONTHLY ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM
SADATE ST, ABOU HLEIL
BLG, P.O.B. 5905
TEL: 346276,
BEIRUT, LEBANON

VOL 1.
No 1. Oct, 1978
PRICE: 4 L.L.
ANNUAL SUBSCRIPTION:
50 $ IN NON-ARABIC SPEAKING COUNTRIES



لماذا هذه المجلة ...؟

لماذا نطرح امام القارىء العربي مجلة متخصصة تعنى بالتاريخ ، عربياً أكان ام عالميا ؟..

طرحنا هذا قد يبدو متخلفا عن طروحات الزمن الجاري الذي يرى المتحركون في ساحاته ان المستقبل وحده يستدق الجهد وان علم المستقبلية هو الجدير بالاهتمام .

كم هي خاطئة هذه النظرة الى ما سلف من احداث الماضي .

اذا كان صحيحا ـ كما يعلّم بعضهم ـ ان الانسان كفرد يصنع التاريخ فأن العكس كما يؤكد آخرون ـ صحيح ايضاً . والاصح ان بين الانسان الفرد وبين البيئة التاريخية تفاعلا يجعل كلا منهما مرتبطا ارتباطا عضويا بمجرى التاريخ ، صانعاً ومصنوعاً ، منذ الازل والى الابد .

لذلك كان جهل التاريخ ضرباً من ضروب التجاهل للانسان وللجماعة ، واسقاطاً لجميع البواعث التي ولدت الحضارات في المكان والزمان ثم جعلت منها تياراً حضارياً شاملا الانسان في جميع مراحل تاريخه حيثما وجد على وجه البسيطة .

فهذه المجلة معنية اذاً باخص خواص الانسان وهي بذلك تسهم بتوفير الوسائل التي تساعد على فهم اعمق لاحداث الماضي العربي ونظرة اشمل واكثر وضوحاً الى احداث المستقبل .



التاريخ يكتب بطريقتين: احداهما كناية عن سرد الوقائع ووصف الاحداث سرداً مجرداً عن اي تعليق ، او تقويم ، او رأي . فيكون ذلك مادة اولية ، موضوعية ، يترك النظر في عللها ونتائجها للمفكرين الذين يحاولون ، بعد زمن يطول او يقصر ، ان يسبروا غور البيئة التي وقعت فيها الاحداث ، من مختلف النواحي ، ليخرجوا بحكم على تصرفات الافراد والشعوب ، ثم الافادة من السوابق لاستكناه التطورات المستقبلية . هذه الطريقة السردية هي التي ساد العمل بها في العصور الوسيطة خاصة .

اما الطريقة الاخرى التي كان المؤرخ العربي العظيم ، ابن خلدون ، رائدها الاول ، فهي ما يمارسه المؤرخون المعاصرون: انهم لا يرون في الوقائع الا المظاهر الخارجية للثوابت الفاعلة ، الجديرة وحدها بالعناية والتدقيق ، وعندهم ان الاحداث الجارية لا تستحق التسجيل الا لأنها تجسد العلل والاسباب وتقدم الامثلة الحسية على الخفي من البواعث الاجتماعية والاقتصادية التي تحرك تاريخ البشر .

★ ★ ★

وقد يكون تعامل المجتمعات القديمة مع الاحداث قريباً من الطريقة المعاصرة اذ ان الوقائع كانت مرتبطة يومئذ ، في ضمير الناس واذهانهم بقوى اسطورية تتحكم بتصرفات الانسان وتسيطر على مصيره ، ولم يكن ميسوراً الافلات من الاحداث الجارية الا باسترضاء القوى الخفية . وما هذا التعامل مع التاريخ الا طريقة لتفسير ما يجري في الكون يوازي ما يطبقه المؤرخون المعاصرون في الكتابة التاريخية ، من حيث ربط الحدث بعلة هي الاساس وهو الشكل: فاساطير الآلهة والخرافات في العالم القديم التي كثيراً ما كانت تتصل بما هو غير مرأي ومحسوس انقلبت في عالمنا الحاضر اسباباً حسية مادية يمكن في نظر الفكر المعاصر معالجتها وتطويرها دون القدرة على التحكم بها .



هناك نظرية يطرحها الاستعمار من خلال منطق الاستعلاء باللون او الجنس، تقول ان هناك حضارة عالمية واحدة، وان العرب حلقة من حلقات هذه الحضارة ظهرت على شواطيء البحر الابيض والتي قوامها اليونان والرومان ثم الغرب في العصر الحديث .

والواقع ان الحضارة العربية بالرغم من انها اخذت الخيوط الاولى لما كان معروفا في العالم القديم من علوم فأنها ابدعت حضارة جديدة، لها ذاتيتها الخاصة وطابعها المميز وان العرب قدموا للانسانية مفهوماً جديداً "للتحضر" يختلف عن مفهوم "المدنية" ذي الطابع المادي الصرف المرتبط بالعمارة والصناعة والرياضيات والفلك والجغرافيا .

هذا التميز الخاص بالحضارة العربية يصوره الاستاذ ليوبولد فابس فيقول: "ان الحضارات المختلفة قامت ونشأت رويداً رويداً من تراث الماضي بما حوى من ضروب الرأي وتيارات الفكر التي استغرقت في تبلورها آمادا طويلة من الزمن . وقد انفردت حضارة العرب وحدها بظهورها الى الحياة دون سابق عهد او انتظار وقد جمعت في فجر نشأتها كل المقومات الاساسية لحضارة مكتملة وشاملة . فقامت في مجتمع واضح المعالم له نظرته الخاصة الى الحياة وله نظامه التشريعي الكامل، وله فهمه المحدد لعلاقات الافراد بعضهم ببعض داخل هذا المجتمع، ولم يكن قيامها ثمرة تقاليد زخر بها الماضي ولا وليد تيارات فكرية متوارثة، ولكن هذه الحضارة العربية كانت وليدة احتياجات المواطن العربي تعكس واقعه واحتياجاته وتطلعه نحو مستقبل افضل ."

هذا هو "التميز" الواضح الذي يقطع بأن حضارة العرب لم تكن حلقة في حضارة سابقة او لاحقة بل جاءت بمفاهيم جديدة تنبثق من الواقع العربي .

اما الحضارة الغربية التي هي ايضاً حضارة متميزة بخصائصها فقد انحرفت عن طريق اصالتها حينما دخلت مرحلة الازمة مع نفسها ومع بقية الشعوب . ولعل ابرز عناصر هذه الازمة:

اولا: انها جعلت نفسها في خدمة الاستعمار ومن الشعوب مصدراً لثرواتها وسوقا لمنتجاتها وقد جرى ذلك بالعدوان والغزو والسيطرة السياسية والعسكرية .

ثانياً: أنها عزلت نفسها عن المفهوم الانساني الكامل الجامع بين الروح والمادة والارض .

ثالثاً: انها استعلت عنصرياً "صانع الحضارة الذي لا يقهر" وتجاهلت بذلك الدور الذي قامت به بقية الحضارات وفي طليعتها الحضارة العربية .

ويقول "الدوس هكسلي" في هذا المجال: "ان الحضارة الغربية قد دفعت الناس الى التمرد على حياة الروح والاندفاع وراء المادة وقصرت جهودهم على المتع والرغبات واعرضت بهم عن المثل العليا"

★ ★ ★

واخيراً ... اذا طالعتك كلمة "العرب" بخط كوفي عربي قديم على غلاف هذه المجلة: مجلة "تاريخ العرب والعالم" فلأن الصورة التي تنقلها هذه الكلمة الى مخيلتك لن تقتصر على تاريخ الجزيرة موطن العرب الاول، او على مرحلة من مراحل المسيرة العربية العظيمة، بل اكاد اوقن ان الصورة ستضع امامك الشعب العربي ايا كان موطنه من الخليج العربي شرقاً الى المحيط الاطلنطي غرباً، ومن طوروس شمالا الى الهندي وقلب افريقيا جنوباً .

ان هذه المنطقة الشاسعة تضم اكثر من مائة وثلاثين مليوناً .. ورغم بعض الخصائص التي تتمتع بها بعض البلدان العربية فأن العرب يشتركون جميعاً في امرين اساسيين:

اولا: باللسان العربي الواحد وان اختلفت لهجاته اختلافاً قل او كثر، فلا يرضون بديلا عنه مهما حدث .

ثانياً: بتراث عربي مجيد يؤلف بين قلوبهم ويحفظ ايمانهم وعروبتهم والذي به ينطلقون بثقة وامل وقوة الى المستقبل. ان في راس اهداف هذه المجلة محاولة الكشف بطريقة موضوعية وعلمية عن تاريخ وتراث العرب نتسلح به في نضالنا من اجل استعادة دورنا المجيد في تاريخ الحضارات العالمية ..

ان العالم العربي يتعرض في الوقت الحاضر لغزوة فكرية شرسة، لا تستهدف الجيوش والحدود فقط، وانما تستهدف التشكيك بتراثنا العربي، ليكون ذلك التشكيك والهدم، مقدمة لاضعاف مقاومة الشعوب امام الغزو الفكري الجديد ..

لذلك، فأن امتنا مدعوة اليوم لبناء نفسها بناء حديثا في شتى المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية، والطريق الى ذلك هو في تعميق الثقة بالنفس، وابراز الكيان الفكري الذي يعتمد على تراث عربي مجيد . ومجلة "تاريخ العرب والعالم" ما هي الا خطوة متواضعة على هذا الطريق الطويل ...

"اسرة التحرير"

في هذا العدد

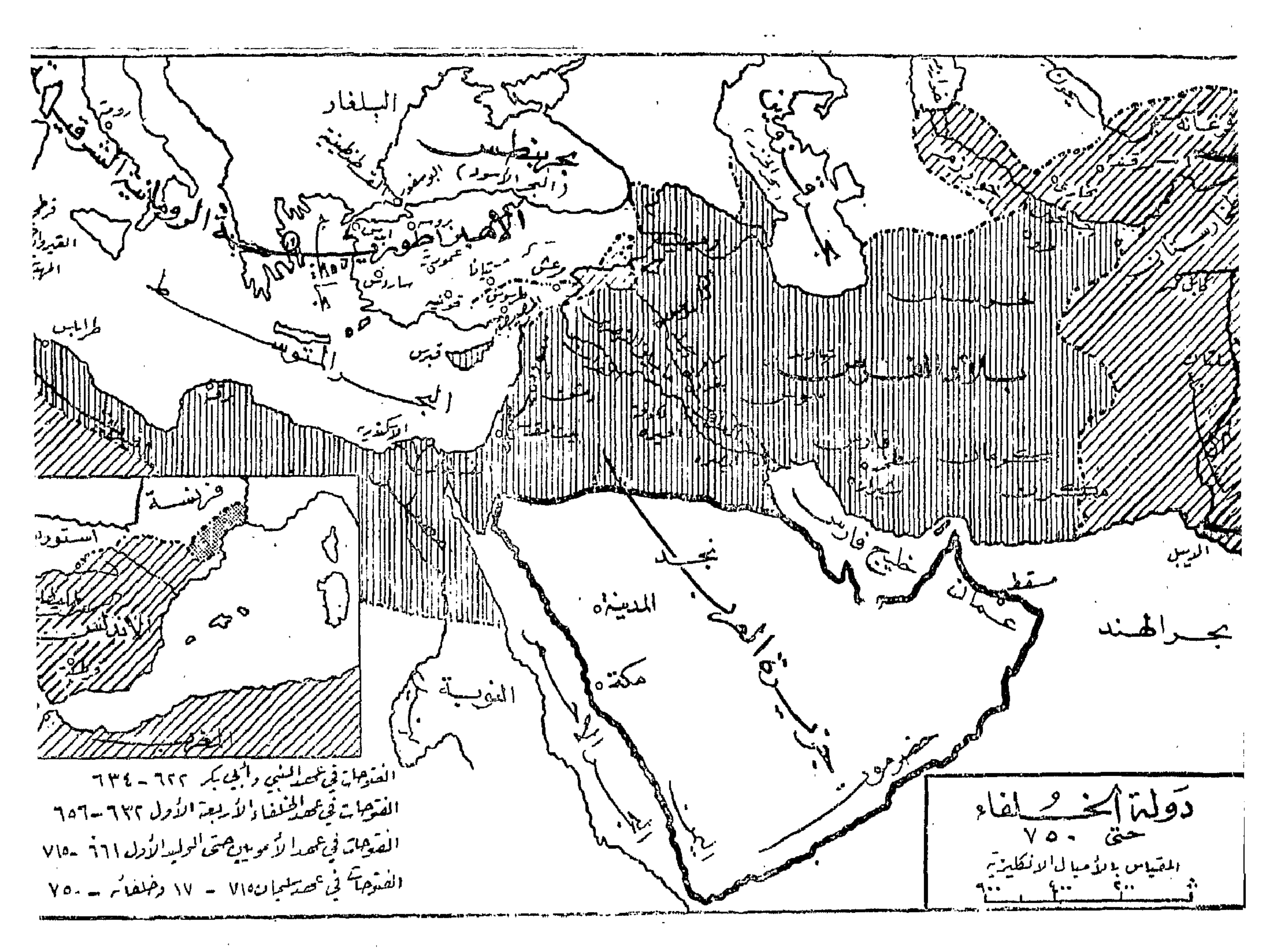
□ المقالات الواردة توزع حسب التبويب الفني للمجلة، ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب، مع حفظ المكانة الاجتماعية للكتاب وغيرهم، تراعى في الالقاب الصفات العلمية فقط.

الموضوع		الصفحة
لماذا هذه المجلة؟	اسرة التحرير	٢
■ نظرة في تاريخ العرب والعالم	د. قسطنطين زريق	٥
محمد علي: رائد التجديد في العالم العربي	د. محمود زايد	١١
■ رجال وافكار: عمر المختار	هـ.س.ب	٢٠
■ رومل "ثعلب الصحراء"... هكذا مات على يد هتلر	دافيد لويس	٢٢
■ بقايا القصر العباسي... او قصر المأمون في بغداد	اعداد: قسم الدراسات	٣٣
■ سيادة العرب على البحر المتوسط ثمرة لتعاون مصر والشام		
ايام معاوية	د. احمد ابراهيم العدوى	٤٠
الاستقلال اللبناني والميثاق الوطن	د. باسم الجسر	٤٨
■ العالم العربي في العصر الحجري	د. ديمتري براهكي	٥٦
■ تاريخ الشرق الاوسط:	د. ارنولد توينبي	٦٤
من العصر الجليدي الى الدولة السومرية		٧٣
■ التوأمان السياميان	دافيد غانستون	٨٢
■ تاريخ الشطرنج	محمد مراد سكر	٨٧
■ تاريخ الطوابع	ميشال اسطفان	٨٩
■ للطلاب فقط..	سحر بعاصيري	٩٢
■ تاريخ الرياضة	وفيق علم الدين	٩٤

□ المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة في بيروت

□ المواد الواردة الى المجلة لا ترد اذا لم تنشر.

□ المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبر بالضرورة عن اراء المجلة.



نظرة في تاريخ العرب والعالم

د. قسطنطين زريق

استاذ شرف في التاريخ، الجامعة الاميركية في بيروت؛ تدرج في الجامعة من استاذ مساعد الى استاذ مشارك الى استاذ ممتاز، تولى نيابة رئاسة الجامعة الاميركية في بيروت ١٩٤٧ - ١٩٤٩؛ ورئاستها بالوكالة ١٩٥٤ - ٥٧، تولى رئاسة الجامعة السورية ١٩٤٩ - ٥٢، تولى رئاسة رابطة الجامعات الدولية ١٩٦٥ - ٧٠ وهو الآن رئيس فخري لها، حقق مجلدات من "تاريخ ابن الفرات"؛ وكتاب "تهذيب الاخلاق" لمسكويه ونقله الى الانكليزية.

ومن مؤلفاته: "الوعي القومي"؛ و"معنى المكتبة"
و"اي غد؟" و"هذا العصر المتفجر"؛ و"معنى النكبة مجدداً" و"نحن والتاريخ".

"العالم" في التاريخ

عندما اعلمني رئيس تحرير هذه المجلة الجديدة بعزمه على اصدارها، وشرح لي هدفها ومنهاجها، ذكر في ما ذكر، ان اسمها سيكون: "تاريخ العرب والعالم". وللحال خطر لي ان هذا الاسم بالذات يصلح لان يكون موضوعاً لبضع ملاحظات تتعلق بماضينا وبالماضي الانساني عامة. فهل ثمة تاريخ واحد للعرب وللعالم، أم تاريخان (منفصلان او متصلان)، أم تواريخ متعددة مختلفة؟ ماذا كانت العلاقة بين العرب والعالم في الازمنة السابقة، واستطراداً: ما هي اليوم، وكيف ستتطور في المستقبل القادم؟

لنبدأ بالعالم. ما هو، وما هي حقيقة تاريخه؟ ان الذين يلقون اليوم نظرة شاملة على ميدان الماضي البشري ينقسمون، من حيث اعتبارهم لوحدته، فئتين: فئة ترى فيه تعدداً واختلافاً، وفئة تلقي عناصر وحدة وانسجام وتؤكد عليها. وهاتان النظرتان تبدوان ايضاً عند المؤرخين السابقين. فمن هؤلاء من تناولوا شعوباً او اقطاراً او حضارات معينة، ومنهم من حاولوا كتابة تواريخ بشرية عامة. على اننا نرى ان النظرة التعددية كانت غالبة، وحتى الذين وضعوا تواريخ اعتبروها عامة كانوا في الواقع ذوي نظرة تعددية، او كانت "احديتهم" قائمة على بتر بعض اجزاء التاريخ واخراجها عن نطاقه. وما هذا الا لان "العالم" في الماضي لم يكن في الواقع كياناً موحداً، وبالتالي فان اطلاق هذا اللفظ بصيغة المفرد هو اقرب الى المجاز منه الى الحقيقة.

في عهد الانسان القنصي – في ما يسمى "قبل التاريخ" – كانت ثمة مجتمعات صغيرة عديدة متشابهة، ولكنها مقفلة على ذاتها ومنفصلة جوهرياً بعضاً عن بعض حتى ما كان منها متقارباً متجاوراً. وعندما عمد الناس الى الزراعة وبدأت المجتمعات بالاستقرار، اخذت تظهر القرى ومن بعدها المدن. ومع ان للوعي التاريخي جذوراً تعود الى فجر الانسانية – اذ ان نزعة الانسان التذكرية هي احد مظاهر بروزه كانسان واختلافه عن سائر المخلوقات – فان هذا الوعي لم يتبلور تبلوره الاول الا في المدن. ذلك بأن المدينة، مصرية كانت او بابلية او اغريقية او صينية، كانت اول المجتمعات المنتظمة التي انبثقت فيها بوادر الحضارة. كان لكل مدينة نظام حكمها والهها او آلهتها وشخصيتها وولاء سكانها، وتفاعلها حرباً او سلماً مع المدن الاخرى. وكان العالم المتحضر حينذاك في الواقع عدة عوالم مدينية متقاربة او متباعدة. وهذا الواقع كان طاغياً على النظرة التاريخية في ذلك العهد. ثم قام، في شتى انحاء المعمور الوالجة سبل الحضارة، ملوك وحكام تجاوزوا المدن وبسطوا سلطتهم على اقطار معينة، كما فعل فراعنة مصر وملوك بابل واشور وحكام ميديا وفارس وفيليب المقدوني في اليونان. وصاحب هذا الاتساع في المجتمعات اتساع في النظرة التاريخية، فاذا المؤرخ يتكلم عن المصريين لا عن سكان طيبة فحسب، وعن الاشوريين والفرس واليونان وسواهم. ولكن الواقع ظل ذاته، وهو ان العالم بقي منقسماً وحدات مختلفة، وان تكن هذه الوحدات قد اتسعت واختلفت طبيعتها. واستمر هذا الواقع حتى عندما مضت المجتمعات القديمة في الاتساع، وتكونت الامبراطوريات الرومانية والبيزنطية والساسانية وسواها.

وفي القرون الوسطى سادت الاديان الموحدة في الشرق الاسلامي والغرب المسيحي. والعقيدة الوحدانية تؤدي بطبيعتها الى نظرة تاريخية موحدة. ولكن هذه النظرة كانت بالفعل مزدوجة، لان العالم الذي تشمله كان في الواقع عالمين: عالم المؤمنين المنضوين تحت لواء "الامة الاسلامية" او "الكنيسة المسيحية"، وعالم من كان خارجاً عن هذه او تلك. ولم يهتم المؤرخون بهؤلاء الخارجين الا لاظهار بطلان عقائدهم او تبيان كيفية انضمامهم تلقائياً او ضمهم قسراً الى "مدينة الله". ولم يخرج عن هذه القاعدة المؤرخ والواعظ الشهير جاك بوسييه الذي وضع في القرن السابع عشر كتابه: "خطبة في التاريخ العالمي"، فاننا نجده قد قصر نظرته "العالمية" على المسيحية، فلم يذكر شيئاً عن الشعوب الاسلامية او غيرها من شعوب الشرق، ولم يتناول اليونان وروما الا من حيث كونهما ممهدين لظهور الدعوة التي كان يعتبرها لحمة التاريخ وسداه.

وعندما تضعضعت وحدة الخلافة الاسلامية في الشرق بدأت تظهر تواريخ دول وملوك واقاليم ومدن، كذلك الامر في الغرب عندما برزت مجدداً على مسرحه في عهد التوسع التجاري والنهضة العقلية "المدن الدول" في ايطاليا كفلورنسا وبيزا وجنوى، والمدن التجارية المستقلة او شبه المستقلة في المانيا كهامبورغ وليبك وبرمن، لاتها في فرنسا وغيرها من البلدان الاوروبية. وتلى ذلك قيام الدول القومية ومن بعدها الامبراطوريات الاستعمارية، فامتلأت صفحات التاريخ الحديث باخبار نشوئها وتوسعها وتنافسها وتفاعلها، فاذا هي المحور الاساسي الذي تدور حوله تآليف المؤرخين، واذا الجوانب السياسية والحربية التي اصطخبت بها سير تلك الدول تبرز فيها وتكاد تخفي الجوانب الاخرى.

وقام في القرن الماضي، وفي هذا القرن، من اخذ ينبه الانظار الى ان الدول والامبراطوريات ليست الوحدات التاريخية الحقيقية، وان الاحداث السياسية والحربية التي رافقت ظهورها وامتدادها وتصادمها لاتكون جوهر سيرها. وتحول هؤلاء عن الدول والامبراطوريات الى "الحضارات" معتبرين انها اشمل من الدول واعمق اصالة وان الدول ليست سوى مظاهر لها ونتائج لفعلها. كما اكدوا ان

الجوانب الحضارية من الحياة الماضية هي اشد اهمية وادعى للنظر والتدبر من الجوانب السياسية والحربية. ومع ان جل هؤلاء المؤرخين وغيرهم من رجال الفكر كانوا غربيين، فانهم انتقدوا النظرة الغربية السائدة التي تتركز على الغرب وتتجاهل سواهمن الاقاليم والبلدان، وتجعل من تواريخ الشعوب الغربية في مواطنها ومهاجرها تاريخ العالم بأسره، بينما هناك شعوب وحضارات في الشرق الادنى وفي الهند والصين وفي اميركا قبل الفتوح الغربية جديرة بان تنال العناية التي تستحق وبان تدخل نطاق التاريخ فلا تبقى مفصولة عنه او ملقاة على هوامشه.

أخرج من هذا العرض الموجز الى نتيجتين حريتين بالنظر والانتباه: الاولى هي ان النظرة التاريخية التي تبدو في كل عصر من العصور الماضية كانت تعكس الاوضاع والعقائد السائدة فيه وتتطور بتطورها، اما الثانية، وهي المتصلة بموضوعنا مباشرة، فهي ان هذه النظرة كانت في اساسها تعددية، تختلف الوحدات التي ترتكز عليها من عصر الى عصر: من المدن الى الدول القديمة الى الانظمة الدينية الى الدول القومية الحديثة الى الحضارات، او ما سوى ذلك، ولكن مهما تكن الوحدة السائدة في عصر من العصور والغالبة على اهتمام المؤرخين فيه، فانها تبقى ظاهراً او باطناً متعددة. وما ذاك الا لان "العالم" كما قلنا، لم يكن يكون وحدة الا بابسط المعاني (اي بانه يتألف من بشر). اما في الواقع فقد كان مجموعة "عوالم" بدأت منفصلة بعضاً عن بعض ثم اخذت تتواصل، وشرع هذا التواصل يزداد على مر العصور الى ان بلغ في هذا العصر درجة قصية من الاتساع والتشابك، بل من الاندماج. وعلى الرغم من امتداد العوالم البشرية المعاصرة وتناقصها – بفعل القوى الباعثة على التشابك والاندماج – فلا تزال لكل منها شخصيته ووحدته، ولم تؤلف بعد عالماً واحداً موحداً حقاً، وبالتالي لم تتكون بعد نظرة تاريخية احدية جديرة بهذا الوصف.

نظريات المؤرخين

على ان بعض الباحثين يرون ان العالم الانساني في الماضي والحاضر يتضمن، على تعدد وحداته واختلافها، عناصر متماثلة يصح ان تتخذ اساساً لنظرة تاريخية احدية. ومن هذه العناصر التي يستندون اليها الامور التالية:

(١) ان الجماعات والشعوب، وان اختلفت اجناسها واصقاعها ولغاتها وسِيَرها، تشترك في ما بينها بوحدة ارومتها الانسانية، وبالصفات والنزعات الاصيلة التي تحركها في مجابهة بيئاتها الطبيعية وفي تنظيم شؤونها وفي تعاملها بعض وبعض. وهكذا نرى مؤرخاً كارنولد توينبي يجد في دراسته للحضارات البشرية تماثلات جوهرية في اسباب نشوئها ونموها وتضعضعها وانحلالها، وفي اشكال الادوار التي تجوزها، ويستخرج "قوانين" لهذه التطورات ولتقلبات التاريخ، كما فعل ابن خلدون من قبل. فكأن هذه "القوانين" هي التي ترسم هيكلية التاريخ، وكأن هذه الهيكلية هي الرابطة التي توحده.

(٢) ومن المؤرخين – وجلهم تفاؤليون يأخذون بمذهب التطور التقدمي – من يرون في صلب التاريخ خطاً اساسياً يوحد اجزاءه ويسير به من مرحلة الى اخرى. وهم يختلفون في طبيعة هذا الخط، فمنهم من يجده، كاوغست كونت، في تطور العقلية الانسانية في نظرتها للاشياء وفي تصورها للوجود. ومنهم، كهيغل، من يؤكد تقدم الانسان في وعيه لذاته وادراكه لكُنْه حريته، وفي كون كل حضارة من الحضارات تمثل مرحلة من مراحل تطور هذا الوعي واتساعه وارتقائه. ومنهم، كماركس، من يقف اولا عند فعل العوامل الاقتصادية وما تؤدي اليه من تصارع الطبقات الذي سينتهي حتماً بازالة الانقسام الطبقي وبانهاء تحكم الانسان بالانسان. كل خط من هذه الخطوط او غيرها يصلح في نظر اصحابه لان يكون الرابطة التي توحد التاريخ ولان تبرز بالتالي وحدة العالم البشري على اختلاف مظاهره وتعدد خبراته. ومهما تكن طبيعة هذا الخط، فانه يبدو، لدى النظر الممعن، انه يتكون ويتقدم بفعل الابداع الانساني. ولقد يختلف المحللون والمعللون في نوع الابداع الذي يركزون عليه: كالابداع العقلي في التصور والادراك، او الابداع في مجابهة الطبيعة واستثمار مواردها والسيطرة على عوائقها ونوازلها، او الابداع في سلوك سبل التحرر والانتظام وفي تحقيق العدالة والمساواة، او غير هذا وذاك وذلك. ولكن الخط الذي يرسمونه يظل، بحكم تقدميته، موسوماً بهذه السمة الاساسية على اختلاف اشكالها والوانها.

(٣) ومهما يكن من امر، فثمة ظاهرة لا جدال فيها، وقد اشرنا اليها في ما سبق، وهي ازدياد التواصل والتفاعل بين وحدات التاريخ: دولا كانت او شعوباً او حضارات. فلقد بدأت هذه الوحدات، كما قلنا، بأن كانت مقفلة على ذاتها منفصلة بعضها عن بعض، ثم ما لبثت ان اخذت تتواصل وتتفاعل تواصلا وتفاعلا متسعين متواثقين، عبر الفجوات والانتكاسات التي سببتها الحروب او غيرها من الاسباب المفرقة او المباعدة. ولهذه الظاهرة اهميتها من وجهتين: اولاهما انها تمثل خطا مستمراً في مسار التاريخ يضيء على الاقل وجهاً هاماً من وجوهه، والثانية انها تدل على القوى والعوامل الفاعلة في وصل العوالم البشرية بعض ببعض وتوجيهها في سبل التقارب والتشابك، وايقاظ وعيها لضرورة الاندماج والانصهار لتكون اخيراً عالماً موحداً حقاً.

من هذه الاعتبارات التي ذكرنا يمكننا ان نستخرج معيارين لتقييم كل عالم من العوالم التي ظهرت في ساحة التاريخ ولتبيان مكانته واثره. المعيار الاول هو ما ولد من ابداع في الحقول

المختلفة: سواء في تطوير الفعل العقلاني او في استكشاف اسرار الطبيعة لتوطيد امن الانسان وانعاش ازدهاره، او في تنظيم الحياة البشرية، او في بعث قوى التحرر في الافراد والمجتمعات، او في نشر الاخوة والعدالة والمساواة، او في اي وجهآخر من وجوه ترقية الانسان واسعاده. اما المعيار الثاني فهو ما عزز به حركة التواصل والتفاعل بين الشعوب والحضارات. فاذا كان الرقي الانساني لا يتم فعلا الا بقدر ما يحقق الانسان انسانيته، ويعي الرابطة الاصيلة التي تربطه بأخيه الانسان، ويقدم هذه الاخوة على اي اعتبار آخر، فان اي جهد يبذله مجتمع من المجتمعات، او اي اثر يكون له، فيتقارب الشعوب وتعارفها وتفاعلها الايجابي انما هو اسهام في بناء الحضارة وفي اثراء الحياة.

"موقع" تاريخ العرب

لنلتفت الان الى العرب. أين يقع تاريخهم من تاريخ العالم؟ انه يشكل احدى الوحدات التي يتألف منها هذا التاريخ. وقد كان لهذه الوحدة فعلها وعطاؤها في بعض الادوار، وركودها وغيابها في ادوار اخرى. واذا اتخذنا المعيارين اللذين ذكرناهما دليلا لنا، تجلت لنا الخطوط التالية للصورة التي نتوخاها:

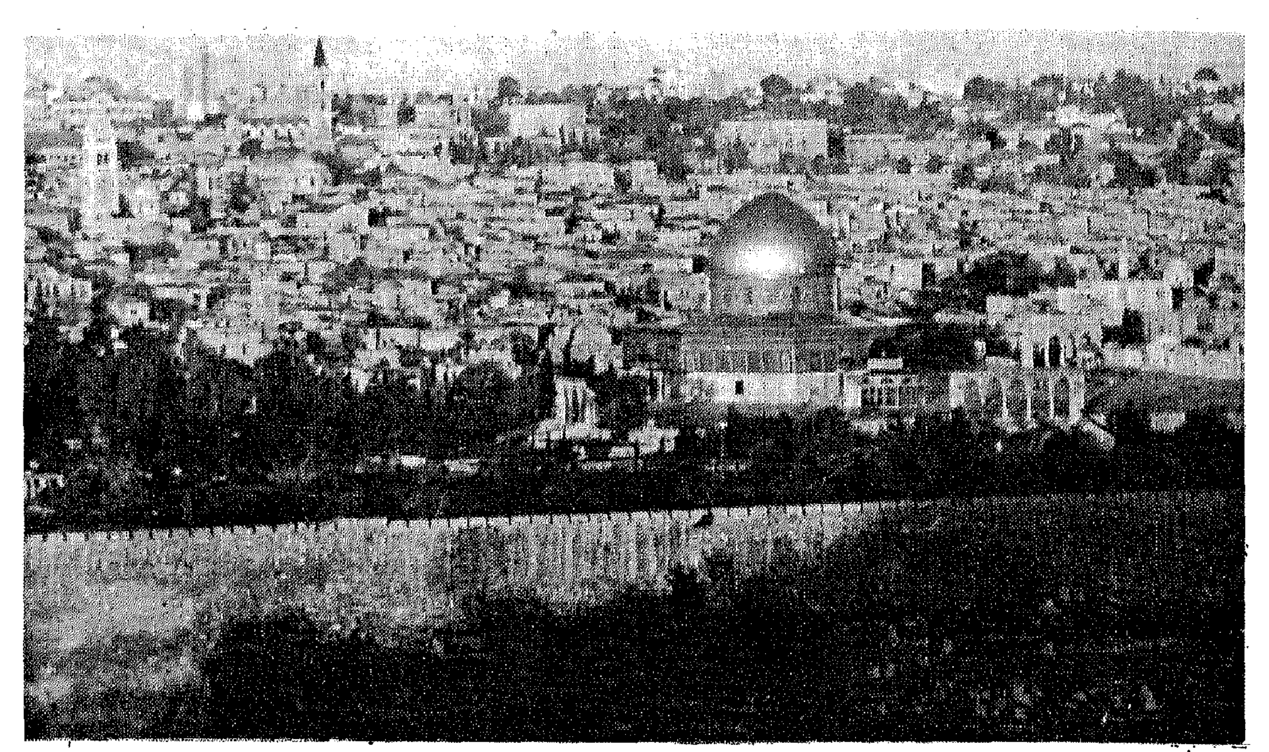
(١) في اقدم الازمنة، لا بد انه كان للعرب وللشعوب السامية الشقيقة قبل خروجها من الجزيرة العربية يد في انتقال الحياة في الجزيرة من البدائية الصرف الى بوادر الحضارة الاولى. ولولا هذا التطور الاولي الذي يتضمن في طياته بعض القدرات الابداعية لما استطاع العرب في ما بعد ان يقيموا حضارة سبأ وحمير وسواهما من مراكز العمران في الجزيرة، ولما تهيأ للشعوب السامية، بعد خروجها من الجزيرة الى وادي النيل والى الهلال الخصيب، ان تسهم في انشاء الحضارات المصرية والبابلية والفينيقية والآرامية والعبرية التي جعلت من الشرق الادنى المركز الحضاري المتميز في العصور الاولى. ومن هذا المركز انطلقت، كما نعلم، طلائع العمران والثقافة وانتشرت غرباً وشرقاً، وكان لها ما كان من اثر فعال في قيام الحضارات التي تلتها في الغرب بخاصة. على ان البوادر الحضارية الاولى في الجزيرة العربية، التي سبقت الانجازات السامية الرائدة وامدتها، لا تزال مغمورة في غياهب التاريخ القصي، وان يكن يمكن خمنها وتصورها والاستدلال عليها من نتائجها.

(٢) واذا خرجنا من هذه الغياهب الى فجر التاريخ العربي، الذي اخذت تضيئه الدراسات الحديثة، الاثرية وسواها، فانا نرى في الجزيرة العربية - فيجنوبها اولا ثم في شمالها وغربها - مراكز حضاريةنشأتوازدهرت بسببوقوعها على طرق التجارة الرئيسية في ذلك العهد، وهي الطرق البرية والبحرية الواصلة بين الصينوالهند وفارس من جهةوبلاد البحر الابيض المتوسط من جهة اخرى. وشارك العرب القدماء مشاركة بارزة في هذهالحركة التجارية الواسعة النطاق عبر بلادهم وبإزاء سواحلها. ومن المعروف ان حركة التجارةلا تنقل البضائع والسلع المادية فحسب، بل تحمل معها ايضاً آثاراً حضارية غير مادية تتبادلها الشعوب. ومن هنا، فان الدور المهم الذي قام به عرب الجزيرة قبل ظهور الاسلام، كان في مجال تعزيز الاتصالبين الشعوب والحضارات في منطقة من اهم مناطق المعمور - ان لم نقل المنطقة المحورية - في ذلك العهد. ومن هنا ايضاً يبدو ان النظرة التقليديةالتي تجعل الجزيرة العربية في الجاهلية معزولة عن العوالمالاخرى وغارقةفي دياجيرالظلام هي نظرة تنافي الحقيقة، اذ ان العرب القدماء اتصلوا ووصلوا واخذوا واعطوا، فكان لهم نصيب وافر من الانجاز الانساني المتنامي في الربط بين الحضارات - ذلك الانجاز الذي تعاقبتعلى تكوينه وانمائه شعوب مختلفة على مر" العصور، والذي امتد دور العرب فيه على ما يقارب الالفين من السنين من قيام اولى دولهم "معين" الى مجيء الاسلام.

(٣) وجاء الاسلام فكان، من وجوه عدة، مظهراً لابداعية العرب، سواء في التمخض الروحي الذيمهد له،و في القيم الفردية والاجتماعية التي حملها، اوفي الايمان الذي بعثهفي النفوس والذي اطلق العرب من بلادهم لينتشروا في الارض شرقاً وغرباً وشمالا وجنوباً، وليأتوا بحضارة تميزت بعطائها خلال العصور الوسيطة، وليبثوا - هم وغيرهم من الشعوب الاسلامية - دينهم الوحداني الى ابعد مماوصلت اليه فتوحاتهم بحيث غدا يدين به حوالي ١/٧ سكان المعمور.

(٤) وتلى مجيء الاسلام تكوّن الحضارة العربية الاسلاميةوازدهارها. وتميزت هذه الحضارة تميزاً باهراً بالمقياسين اللذين اشرنا اليهما: بانجازاتها الابداعية في حقول الادب والعلم والعمران والفن، وبما احدثت وعززت من تواصل بين الشعوب والتراثات الحضارية التي ضمتها. فقلما عرف التاريخ حضارة تمازجت فيها اجناس وشعوب وتراثات قدر ما حصل في الحضارة العربية الاسلامية. لقد التقت وتفاعلت في نطاقها العناصر البشرية والحضارية السامية والفارسية واليونانية والهندية والصينية وسواها. وكان لانفتاح هذه الحضارة في دور زهوها - هذا الانفتاح الذي كان لمؤسسي الدولة من العرب فضل كبير في اطلاقه - فعله في بث التواصل وانماء التفاعل، كما كان له اثره ايضاً في ما ولدته هذه الحضارة من ابداع.

(٥) وحدث للحضارة العربية الاسلامية ما حدث لغيرها من الحضارات، فركدت بعد نشاط، وذبلت بعد زهاء. وقل عطاؤها، بل اندثر، فغابت عن العالم. ذلك بأن الوجود الفعلي للشعوب والحضارات انما يكون بالابداع والعطاء. وانتقل



قبة الصخرة في بيت المقدس، من اروع الابداعات العربية

هذا الوجود الى عربي اوروبا التي غدت، من مطلع العصور الحديثة والى اوائل هذا القرن، المنطقة المحورية في العالم. واما الشعوب العربية، فقد انقلب وجودهاوجوداً انفعالياً، اي انها اصبحت هدفاً لاطماع الدول الجديدة المتطورة بفعل حركية الحضارة الحديثة وتوسعيتها، ودخلت مع غيرها من الشعوب غير الغربية في نطاق العالم المستعمَر. وتحول "العالم" فيالقرن التاسع عشر الى عالمين: عالم الدول الغربية المصنعة المتسابقة الىالمناطق المتخلفة المتنافسة على تركيز نفوذها فيها والاستيلاء على مواردها واسواقها والتحكم بها بشكل او بآخر من اشكال الاستعمار، والعالم الاوسع مدى والاقل فاعلية الذي يضم هذه المناطق.

(٢) وبدأ العرب يدخلون العصر الحديث منذ منتصف القرن الماضي. ولم يقتصر هذا التطور عليهم، بل تناول غيرهم من الشعوب المتخلفة المستعمَرة، التي اخذت تكوّن اليوم ما يعرف بـ"العالم الثالث"، تمييزاً عن العالم الغربي (ومعه اليابان) والعالم السوفييتي الشيوعي. ولكن ما لبث ان ظهر للعيان ان هذين العالمين – على اختلاف نظمهما السياسية والاجتماعية – يتماثلان في قدرتهما العلمية والصناعية والعسكرية وفي نموهما الاقتصادي، وان الفارق الاساسي هو بين عالمهما المشترك: عالم "الشمال" المتصنع القادر المتقدم في مجالات النمو، وعالم "الجنوب" الذي ما زال متخلفاً عاجزاً.

أي دور سيلعبه العرب؟

ماذا نستنتج من هذه اللمحة الخاطفة لماضي العرب والعالم، وحاضرهما؟ وماذا تلقي هذه اللمحة من اضواء، او بالاحرى ماذا تثير من تساؤلات، حول المستقبل؟ هناك، على الاقل، تساؤلان اساسيان:

(الاول يتعلق بالعرب. لقد رأينا انه كان لهم اثرهم الفعلي، في قديم العصور ووسيطها، في حركة التواصل بين الشعوب وفي الانجاز الحضاري. وقد تميز هذا الفعل بخاصة في الفترة الواقعة بين القرن السابع والقرن الثالث عشر او الرابع عشر للميلادوالتي زهت فيها حضارتهم واغتنى عطاؤهم واغنى، ثم غابوا عن العالم الفاعل. فالتحدي المستقبلي الذي يجابههم الآن هو: هل يظلون غائبين، ام يستعيدون حضورهم؟ قد يقول الكثيرون ان العرب حاضرون، تملأ اخبارهم صحف العالم وتتردد اصداؤها في مختلفالاصقاع. ولكن للحضور اشكالا والواناً، تتراوحبين السلبية الانفعالية والايجابية الفعلية. فقد يكون العرب حاضرين ومالئين اسماع الدنيا بمشكلاتهم وخلافاتهم ومنازعاتهم، وقد يكونون حاضرين بوفرة اعدادهم وامتدادهم على منطقة من اهم المناطق الاستراتيجية فيالعالم وقد يكونون حاضرين بامتلاكهم الموارد النفطية الوافرة وهي اليوم عصب الصناعة الحديثة بل الحياة الحديثة بمجموعها. ولكن اشكال الحضور هذه وما يماثلها، لا تكوّن حضوراً حقيقياً ينطوي على فعل ايجابي، فهي لا تنقل العرب من "العالم الثالث" او عالم "الجنوب" المتخلف الى عالم القدرة والتطور، بل تبقيهم منفعلين ومسودين، تبقيهم كـ"مشكلة"

للقوى العالمية القادرة: تبقيهم كمجتذب اطماع ومحط تنافس، تبقيهم اتباعاً لتلك القوى تحركهم الى هنا وهناك وتتلاعب بمصائرهم.

ان الحضور الفعلي الايجابي هو الآن – كما كان دوماً على مدى التاريخ – حضور القدرة: القدرة الذاتية التي تؤهل الشعوب لصد الاخطار واستثمار الموارد الطبيعية وتنظيم الحياة والتحكم بالمصير. والمصدر الاساسي لهذه القدرة هو العقل: العقل المتفتح المتطور، المقدم على كشف اسرار الطبيعة والحياة، والعامل في معالجة المشكلات الانسانية باساليب العلم الصحيح. ولعل من اشد الاوهام خطراً في هذه الايام، الوهم الذي يوحد بين العلم والتكنولوجيا، والذي يقصر التكنولوجيا على مظاهرها، فيدفع بالشعوب المتخلفة – بضغوط سافرة وخفية من الدول المتقدمة صناعياً ومن مؤسساتها المتفشية – الى الاقبال على شراء الادوات واستعارة الاساليب الفنية والصناعية البالغة التطور واستقدام الخبراء بدون حذر او تنظيم، توهماً منها ان هذا هو الطريق للعبور من التخلف الى التقدم. والواقع ان هذا الاقبال المنفلت على المظاهر التكنولوجية يؤدي الى عكس المرتجى، اي الى امعان الشعوب في تخلفها، باهدار مواردها، وتحويل انظارها عن الحاجات الجوهرية الصعبة المنال الى الاعراض الخارجية السهلة والمغرية.

وفي مقدمة الحاجات الجوهرية التجهيز بالعلم. والعلم اسلوب في التفكير ونهج في التصرف، يتمثل في الحياة الفردية والجماعية بمختلف وجوههما. وما التكنولوجيا الا وجه من وجوهه ونتيجة من نتائجه. وهي لا تحصل الا بقدر ما يحصل هو اولا. هذا هو للعرب، ولغيرهم من الشعوب المتخلفة: سبيل تكوين القدرة التي بها يكون الحضور الفعلي في الساحة العالمية. فهل سيستخدم العرب مواردهم الطبيعية الهائلة التي يتفردون بها عن غالب الشعوب المتخلفة ليكونوا لانفسهم هذه القدرة، ويحققوا هذا النوع من الحضور، ام ستكون هذه الموارد – على العكس – مبعث اخطار جديدة لهم، خارجية وداخلية، وعائقاً من عوائق تقدمهم، يحولهم عن الاختيارات الصحيحة والمطالب الاصيلة التي تجعل لهم كياناً "عالمياً" بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة؟ هذا هو السؤال الاساسي والتحدي الكبير الذي يجابه العرب في حاضرهم ومستقبلهم القريب.

(٢) أما السؤال الاساسي الثاني فيتعلق بالعالم، وبخاصة بالقوى القادرة المتسلطة فيه. لقد رأينا ان العالم كان في مجمل تاريخه وحتى زمننا هذا مجموعة عوالم. غير ان التطور العلمي الذي اخذ يتسارع في الآونة الاخيرة تسارعاً مدهشاً، قد ربط الشعوب بعضها ببعض بروابط محكمة واوثق الصلات بينها على مختلف الجبهات. فلم يعد ممكناً لأي شعب او أي مجتمع ان يعيش معزولا عن سواه او منفصلا عنه. وغدت كل قضية من القضايا الهامة قضية عالمية. على مدى التاريخ حتى هذا القرن، كانت الحروب تنشب في منطقة او مناطق من العالم، فلا تؤثر في المناطق الاخرى او اذا اثرت فبقدر محدود. اما في هذا القرن فقد اندلعت حرب ايقن الناس انها تختلف عن سابقاتها بانها اول حرب "عالمية"، وتلتها الحرب العالمية الثانية فكانت اعم نطاقاً واكثر هولا. واذا نشبت، لا سمح الله، الثالثة، فانها ستفوقهما سعة ونفاذاً، وقتلا وتدميراً. حتى لو لم تندلع الحرب، فان تسلح الدول المتصاعد سنة عن سنة يحدث آثاراً اقتصادية واجتماعية ونفسية لا يقف عند حدود الدول المفردة، بل يلف نطاق العالم اجمع. ومثل قضايا الحرب والتسلح، قضايا الغذاء والمرض والجهل والتخلف وتناقص الموارد الطبيعية وافساد البيئة، وقضايا الاستعمار والتحرر، والصراع بين الطبقات والتناحر على المذاهب والمعتقدات، كل قضية من هذه القضايا غدت قضية "عالمية" لا تقتصر على شعب ولا تقف عند حدود بلد، بل تشمل جميع الشعوب والبلدان، لما عقدته الحضارة الحديثة من اسباب التواصل والتشابك والمصير المشترك بين اطراف العالم قاطبة.

للمرة الاولى في التاريخ البشري المديد تتوفر امكانات توحد العالم، بدلا من توزعه الى عوالم. لكن الحقيقة المؤلمة هي انه بقدر ما تتوفر هذه الامكانات، تحتدم ايضاً عوامل الانقسام والتناحر بين البشر. وفي هذه الحقيقة المؤلمة تكمن الازمة الاساسية للحضارة الانسانية. ان العالم قد توحد تكنولوجيا وظاهريا. فاينما تكن تستطع ان تتصل بمن تشاء في ادنى الارض واقصاها، واحداث اي بلد تتجاوب اصداؤها في البلدان الاخرى. والشعوب سائرة في سبل التماثل في مآكلها ومشاربها ومساكنها ووسائل انتقالها، وغير ذلك من اساليب عيشها، ولكنها لاتزال متباعدة متنافرة في اهدافها وتوازعها وايديولوجياتها ومطامعها. ومن هنا كانت خطورة تصاعد الامكانات: امكانات التقارب والتوحد، وامكانات التباعد والتنافر والتناحر. فأيتهما ستتغلب على الاخرى؟ على نوع الاجابة على هذا السؤال – التحدي، يتوقف مستقبل الحضارة الانسانية، بل الوجود البشري ذاته. ذلك بأن القدرة التي كوّنها الانسان المعاصر لذاته قد بلغت من الحجم والخطورة حداً يختلف جذرياً عما كان عليه الامر في الماضي. وهي قدرة قد تستخدم للبناء والتجديد، او للهدم والتبديد.

ان اهمية الماضي لا تنحصر فيه فحسب، وانما تتعداه لتلقي اضواء على الحاضر والمستقبل. فأي دور سيلعبه العرب في العالم المقبل، واي شكل سيتخذه هذا العالم؟ ان هذين السؤالين مترابطان ترابطاً عضوياً، وجميع الجهود المنصبة على تاريخ العرب والعالم يجب ان نبقيهما قبلة النظر كي يسهم ادراك هذا التاريخ في تأهيل العرب والانسانية عامة لتجاوز ما كان وما هو كائن الى ما يجب ان يكون.



محمد علي رائد التجديد في العالم العربي

د. محمود زايد

المؤرخون ومحمد علي

ربما كان محمد علي باشا (١٨٦٩ ـ ١٨٤٩) هو الحاكم الوحيد من حكام المشرق العربي الذي نال اعترافاً واسعاً بعظمته في الشرق والغرب فقد ذهب معاصره الفرنسي مانجان الى القول انه "الرجل الذي رفعته العناية الالهية فوق اقدار الرجال". وذهب جان لاكوتير الى القول ايضاً ان وصول سفن محمد علي باشا الى ميناء نافارينو وظهور ابنه ابراهيم في طوروس بآسيا الصغرى كان لهما معنى عميق. "فقد اظهرا ان مصر لم تكد تطل برأسها من وكرها حتى أخذت فجأة تلعب دوراً خطيراً في مداولات الدول العظمى... وقبل أن تنقضي اربعون سنة على بونابرت، اي على وصول الحملة الفرنسية الى مصر حتى صارت مصر تقف على قدم المساواة مع انجلترا وروسيا والباب العالي. ويقول المؤرخ المصري عبد الرحمن الرافعي:

"لا جدال في أن محمد علي قد سما بأعماله إلى مصاف عظماء الرجال. وتتمثل لك عظمته من كونه نشأ نشأة متواضعة وتدرج من جندي بسيط إلى أن ارتقى عرش مصر، فأسس ملكاً عريضاً، وغالب دولا كباراً، وأنشأ دولة عظيمة وحكومة ثابتة وطبيعية، وبعث حضارة زاهرة، وانبت ثقافة كان لها الفضل الكبير في نشر لواء العلم والعرفان. فالرجل الذي ينشىء كل ذلك، وكان لم يتلق تعليماً عالياً ولا اولياً، لا بد أن يعد بحق من عظماء الرجال".

ولكن مما يذكر أن محمد علي لم يلق بعد شيئاً من التقدير والتكريم اللذين يلقاهما من هم أقل منه شأناً بكثير وما تفسير هذا بعسير. فمحمد علي تركي ومنشىء سلالة حاكمة اقترن اسمها بعده بالاستبداد والفساد وسلخ المصريون اكثر من ثلاثة ارباع القرن وهم يحاولون التخلص منها. وكان من الطبيعي أن لا يذكر أحد على أثر قيام الثورة المصرية بأسقاطها سوى معايبها. هذا من ناحية ومن الناحية الأخرى فإن محمد علي ـ كباقي العظماء ـ ليس فوق مستوى النقد في جميع تصرفاته!

■ د. محمود زايد: استاذ التاريخ الاسلامي بالجامعة الاميركية ببيروت؛ دكتواره من جامعة ييل؛ كما علم في جامعة ييل وتكساس.

رجل أحداث
أم صانع تاريخ

من أي نوع من العظماء كان محمد علي؟ يقسم سيدني هوك عظماء التاريخ وأبطاله الى فئتين: فئة رجال الأحداث وفئة صانعي التاريخ. ويرى أن كليهما يوجه الأحداث وجهة ما كانت لتأخذها لولا تدخله. لكن في حين أن رجل الأحداث قد يكون انساناً عادياً في مواهبه وملكاته وأنه يتدخل في أحداث ليست من صنعه، وان تدخله قد لا يعدو أن يكون صدفة وعلى شكل قرار او مرسوم فإن صانع التاريخ يتميز بملكات وطاقات غير عادية ويخلق الظروف التي تمكنه من الوصول إلى غايته.

في ضوء هذا، نجد محمد علي صانعاً للتاريخ مثل معاصره نابليون! لقد ظهر كل منهما عند منعطف من تاريخ بلاده فاستغل مواهبه في سبيل السيطرة على مجرى الأحداث وتوجيهها الوجهة التي أرادها.

ولد محمد علي باشا في قوله بمقدونيا عام ١٧٦٩ وهو العام الذي ولد فيه نابليون ودوق ولنجتون، بطل ووترلو، وكان واحداً من سبعة عشر ولداً لأبيه لم يعش منهم غيره. وتوفي ابوه وهو صغير فكفله عمه، فلما توفي هذا كفله حاكم قولة، وانتظم في سلك الجندية ثم عمل بالتجارة قبل أن ينضم إلى كتيبة من ثلاثمئة جندي توجهت عام ١٨٠١ إلى مصر للاشتراك في الحملة العثمانية لاخراج الفرنسيين منها. وبفضل مواهبه وشجاعته استطاع قبل مضي بضعة أشهر أن يظفر برتبة لواء.

وقد نجح الاتراك بمساعدة الانجليز في حمل الفرنسيين على الجلاء عن مصر. وكانت مصر حتى استيلاء الفرنسيين عليها في عام ١٧٩٨ ولاية تركية يحكمها وال يعينه السلطان العثماني. لكن السلطة الفعلية فيها كانت قبل ذلك بزمن طويل قد صارت بيد المماليك. أما وقد جلا الفرنسيون عنها فقد تطلع الاتراك إلى بسط سلطانهم عليها مرة ثانية وإلى حكمها هذه المرة حكماً مباشراً. أما الانجليز الذين نبهتهم الحملة الفرنسية إلى أهمية مصر الاستراتيجية فقد ألقوا بثقلهم الى جانب الاتراك وأخرجوا الفرنسيين منها، ومن ثم، حرصوا على أن لا تقوم فيها قوة من شأنها أن تهدد المصالح البريطانية وبخاصة طريق بريطانيا إلى الهند.

دور يبحث عن بطل

لقد ترك جلاء الفرنسيين عن مصر فراغاً لم يكن في مقدور أي من الطامحين الى الحكم أن يملأه. فكل من فريقي الصراع الرئيسيين وهما الاتراك والمماليك انقسم على نفسه وكان المصريون



▲ محمد علي باشا مع السفراء الاجانب (للفنان روبرتس)



محمد علي باشا ٠٠ والصناعة الحربية (صورة فرنسية)

يكرهون الفريقين لأن أياً من المتنازعين لم يكن يكترث لمصالحهم، وعليه فقد رأى محمد علي بثاقب نظره أن هناك دوراً ينتظر بطلا، وأنه من الممكن لصاحب المواهب أن يقوم بالدور إذا هو تحالف مع قوة لم يكن جرى الاعتراف بها حتى ذلك الوقت وهي الشعب، وصمم محمد علي أن يكون ذلك البطل، فضرب الفرقاء المتنازعين أحدهم بالآخر وتحالف مع القوة الجديدة وهي القوة الشعبية، فاختاره زعماؤها عام ١٨٠٥ والياً عليهم، ولم يسع السلطان العثماني إلا أن يستجيب لارادتهم!

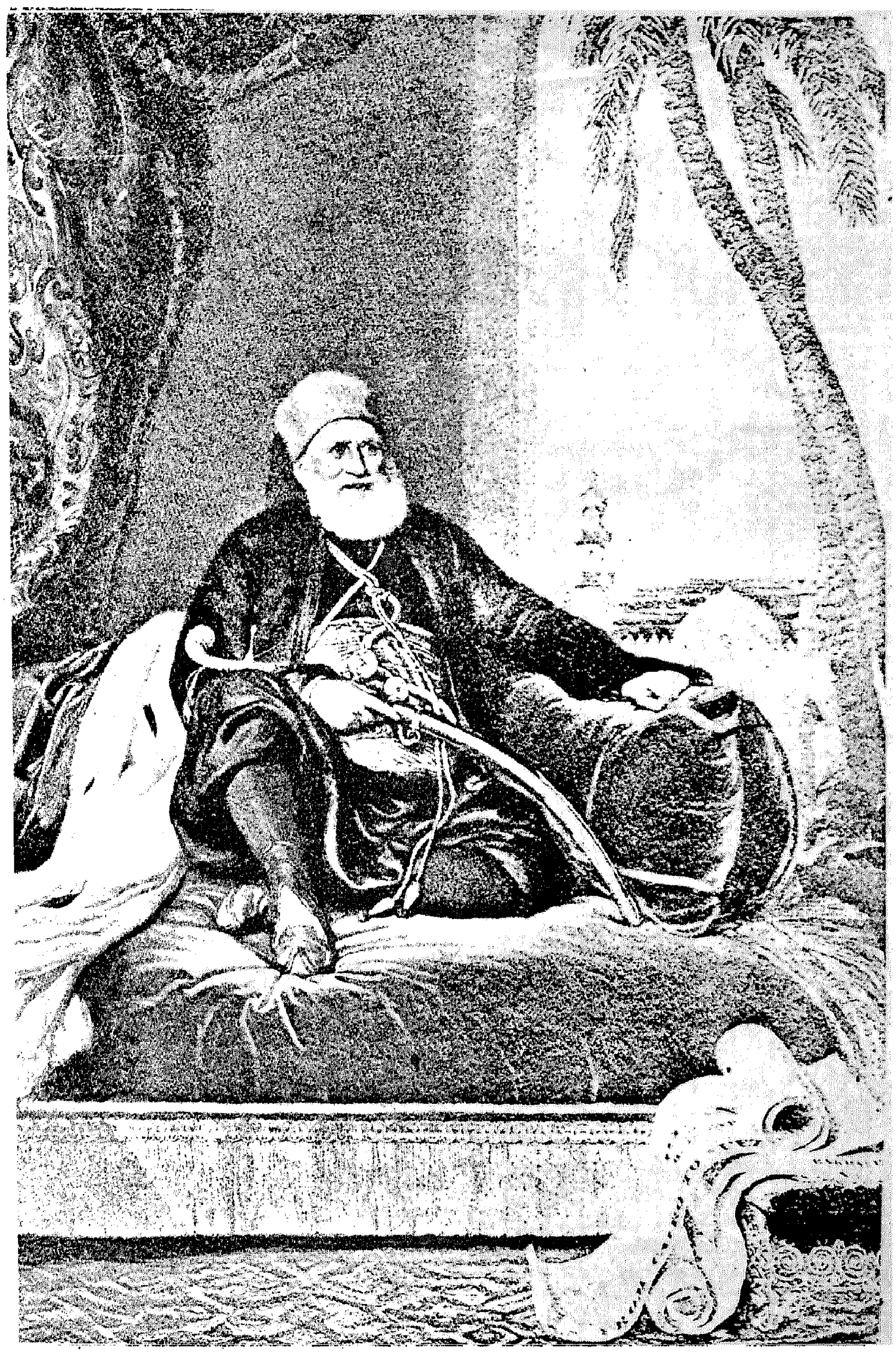
هكذا تمكن محمد علي أن يصبح والياً على مصر، ولكن طريقه الى التمكين لنفسه في منصبه لم يكن مفروشاً بالورود، فقد كانت تتهدده مؤامرات المماليك والأتراك في الداخل ودسائس انجلترا وتقلب تركيا في الخارج، لكنه استطاع بشجاعته ودهائه أن يتغلب عليها جميعاً، فقد استطاع أن يهزم حملة الجنرال فريزر التي جردتها انجلترا على مصر عام ١٨٠٧ لضرب تركيا فيها، لكنه في الوقت نفسه حفظ خط الرجعة مع بريطانيا بمعاملته الطيبة للاسرى البريطانيين وتسليمهم، وحاول إرضاء السلطان بتجريد الحملات على خصومه في بلاد العرب واليونان، وقضى على المماليك عام ١٨١١ بأن دبر لهم مذبحة القلعة! وبذلك تخلص من أعظم الأخطار الداخلية والخارجية.

لماذا السلطة؟

لو اكتفى محمد علي باشا بانجازاته حتى ذلك التاريخ (١٨١١) وتربع مطمئناً على عرش مصر وأخذ يقطف ثمار انتصاراته لما اختلف كثيراً عن غيره من الولاة الذين لم يكونوا يرون في السلطة الا سبيلا للمال والنفوذ، لكنه كان من أصحاب الأحلام العريضة والرؤى الصادقة، فلم ير في السلطة إلا سبيلا إلى خلق دولة حديثة مستقلة . وفي هذا يقول الأستاذ فؤاد شكري:

"كان الوالي العظيم من أولئك الذين اصطلح المؤرخون على وصفهم بالحكام المستنيرين الذين يأخذون على عواتقهم الاضطلاع بأعباء الحكم وتبعاته لا حباً في اشباع غريزة السيطرة... بل رغبة في الاشراف الجدي على كل ما له مساس بحياة الأفراد من قريب أو بعيد حتى يمكن توجيههم إلى ما فيه إعلاء شأن الدولة".

على أن الطريق إلى الدولة الحديثة لم يكن هو أيضاً مفروشاً بالورود، لقد استطاع أن ينشيء حكومة مركزية تخضع فيها المجالس العليا واهمها المجلس العالي والديوان الخديوي وإدارات (وزارات) الدولة لسلطته في



■ محمد علي باشا

وقت قصير. لكن مسألة خلق دولة حديثة من ولاية فقيرة كمصر لم يكن ليتم بمثل ذلك التيسر. لقد كانت مصر في القرن الثامن عشر وأوائل القرن الذي يليه، كما يقول الاستاذ شكري، "أسوأ الممتلكات العثمانيةحالا باستثناء العراق". فثلث الأراضي الزراعية في الوجه البحري كان قد طغت عليه الرمال فأصبح غير صالح للزراعة، وزادالحالة سوءاً ارهاق الفلاحين بمختلف أنواع الضرائب الأمر الذي كان يدفعهم دائما الى الفرار او الهجرة من قراهم. وبلغ الوضع في مقاطعة الفيوم التي اشتهرت بخصب أرضها من السوء بحيث أقفرت معه من سكانها.

ومن أعظم الصعوبات التي كانت تعترض طريق النهوض بمصر موقف سكانها التقليدي من الدولة، وهو موقف يشوبه العداء الشديد بسبب ما كان لحق بهم من ظلم في ظل الحكومات التي تعاقبت عليهم. فكان الفلاح:

> "يعرف كما يعرف أهل البلاد جميعاً أن الظلم أمر عادي، وأن العدالة رهن بما يقدم في سبيلها من رشوة. وقد نجم عن ذلك كله أن صار المصريون لا يعبأون بنوع الحكومة التي تتولى شؤونهم ولا يضيرهم أن يعزل أحد الولاة أو يصل أحد البكوات إلى مرتبة "المشيخة" ولا يسرهم أن يجيء وال جديد أو أن ينتزع المشيخة بيك آخر".

ولا عجب إذن أن خداع الدولة وتعطيل أوامرها والمماطلة في دفع الضرائب لها صار من دواعي الفخر عند عامة المصريين.

ومن العقبات الأخرى التي كانت تعترض طريق الاصلاح معارضة العناصر التركية التي كان افرادها قد اعتبروا استغلال الفلاح وغيره من المصريين امراً طبيعياً. ويذكر جسكيه الذي زار مصر في تلك الفترة أنهم كانوا يلجأون الى كل حيلة لتعطيل أوامر محمد علي وتعليماته والوقوف في طريق الاصلاحات التي يريد إدخالها.

عندما تزول العقبات

لقد أدرك محمد علي خطر تلك الصعوبات. وأيقن أن سبيله إلى الإصلاح يتوقف على أمرين: الأول الحصول على المال والثاني على الخبرة. ولقد حصل على المال بإلغاء الالتزام الذي كان الملتزمون يجمعون بموجبه الضرائب من الفلاحين وصادر الأراضي التي كانوا هم وغيرهم قد اغتصبوها، وأنشأ نظام الاحتكار الذي صارت الدولة بموجبه تشتري المحاصيل من الفلاحين وتصدرها.

وللحصول على الخبرة استعان بطائفة كبيرة من الأجانب وبخاصة من الفرنسيين! وأخذ يرسل البعوث العلمية إلى جامعات أوروبا لاكتساب العلم والخبرة



■ ابراهيم باشا

الفنية والاشتغال بهما وتعليمهما في مصر. وبهذا كان محمد علي الامي رائد التعليم الحديث في العالم العربي!

وكان من الطبيعي أن يبدأ محمد علي بناء الدولة الحديثة بانشاء جيش نظامي يدعم استقلال مصر تحت حكمه. فافتتح مدرسة حربية في أسوان لتدريب ضباط الجيش الجديد الذي عهد بتنظيمه إلى الكولونيل سيف (سليمان باشا الفرنساوي). وقد بدأ محمد علي بتجنيد السودانيين لكنه لم يلبث ان تبين عدم صلاحيتهم فعمد الى تجنيد المصريين، فكان اول من جنّدهم منذ الفتح العثماني. وعلق على ذلك كاتبان اوروبيان في كتاب لهما بقولهما:

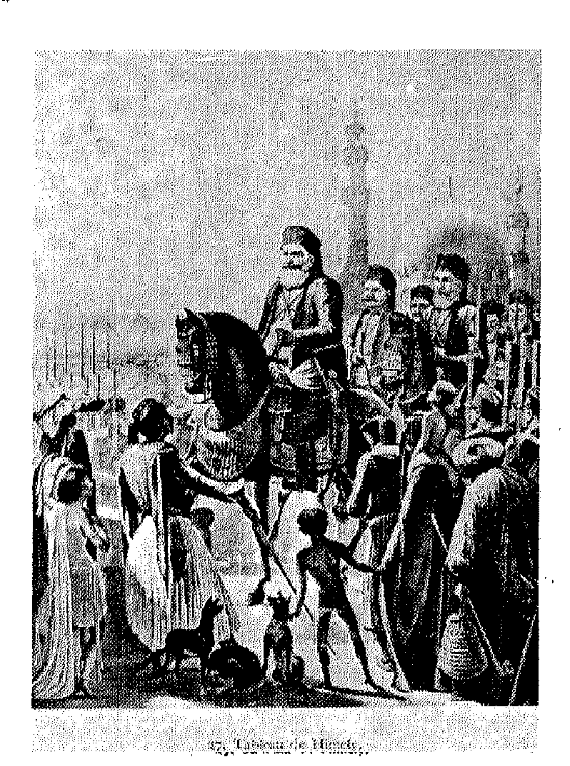
> "إن العرب من سكان وادي النيل لم يكن لهم، منذ الفتح العثماني حق الانتظام في الجيش، ولكن محمد علي أعاد اليهم هذا الحق، وهو بتجنيدهم - ولو أن ذلك على كره منهم - قد رفع من شأنهم وانتشلهم من الوحدة التي نزلوا اليها. وقد استردوا سمعتهم بما اظهروه من الشجاعة في ميادين الحروب التي خاضوها".

والواقع أن انجلترا كانت قد تآمرت مع حلفائها عام ١٨٢٧ على تدمير الاسطولين العثماني والمصري اللذين كانا يتعاونان خلال الحرب التركية اليونانية. وبالفعل جرى تدميرهما في ميناء نافارينو عام ١٨٢٧. لكن محمد علي لم يلبث أن أعاد بناء اسطوله!

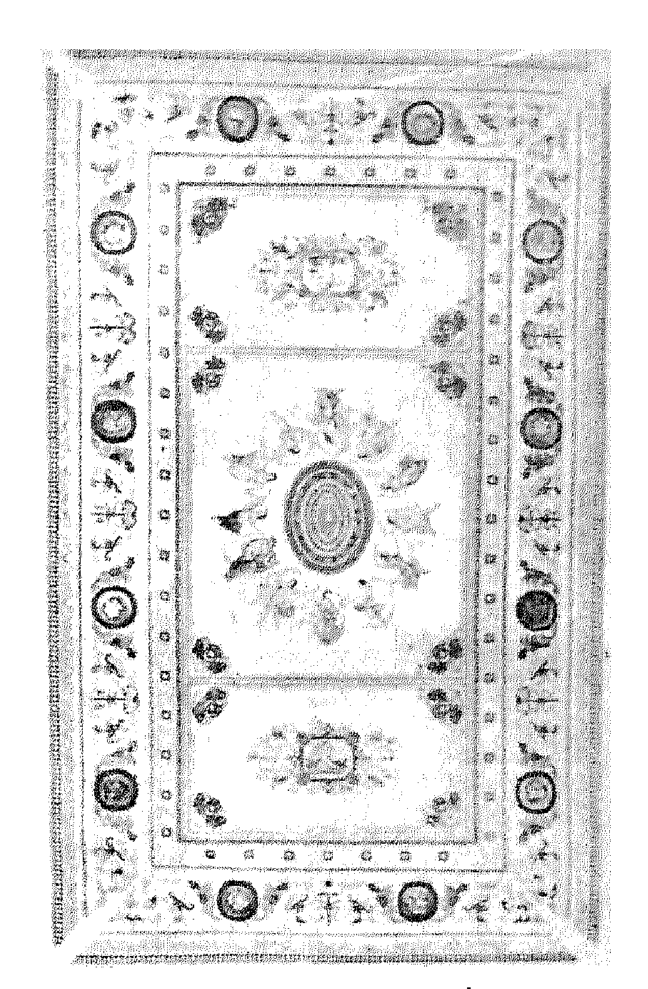
مصر الحديثة

لقد أدرك محمد علي أن أنشاء الجيش والاسطول يستلزمان النهوض بمختلف القطاعات الأخرى وخاصة التعليم والصناعة. وكانت المدارس المصرية الوحيدة فى البلاد حتى بداية عهده هي الكتاتيب والكليات الدينية والجامع الازهر. فأنشا محمد علي مدارس حديثة ابتدائية وتجهيزية وخصوصية. وكان الغرض من الابتدائية نشر التعليم الأولى في البلاد واعداد الطلبة لدخول التجهيزية. وكان الغرض من التجهيزية اعداد الطلبة لدخول المدارس الخصوصية التي استهدفت اعداد الموظفين للادارات المختلفة من مدنية وعسكرية. وقد ضمت الخصوصية مدارس للهندسة والمدفعية والفرسان والمشاة والطب البشري، والبيطري واللغات.

وقد اعتمد محمد علي في البداية على المدرسين الأجانب وبخاصة الايطاليين والفرنسيين. لكنه في الوقت ذاته أخذ يرسل البعوث إلى الخارج ليحل افرادها متى اتموا تعليمهم محل الأجانب. وقد حرص على أن تتخصص كل فئة من المبعوثين في



■ محمد علي باشا (للفنان هيملي)



■ احد سقوف قصر الجواهر

ومهما يكن من أمر فلم يحل عام ١٨٣٣ حتى كان الجيش المصري البري يضم ١٢٨،٨٩٩ جندياً. ولم يحل عام ١٨٣٩ حتى بلغ عدده ٢٣٥،٨٨٠ جندياً وبذلك أصبح أعظم قوة ضاربة في المشرق العربي.

وفي الوقت ذاته شرع محمد علي في بناء اسطول حديث يؤازر الجيش ويحميه وينقله إلى ساحات القتال! ولم يترك سبيلا الا سلكه في سبيل بنائه فأنشأ الترسانات وأرسل البعوث البحرية الى اوروبا وأنشأ المدارس البحرية لتخريج الضباط، واستعان بالمواهب المصرية والاوروبية وكتب شاهد عيان عن ثمار هذه الجهود يقول:

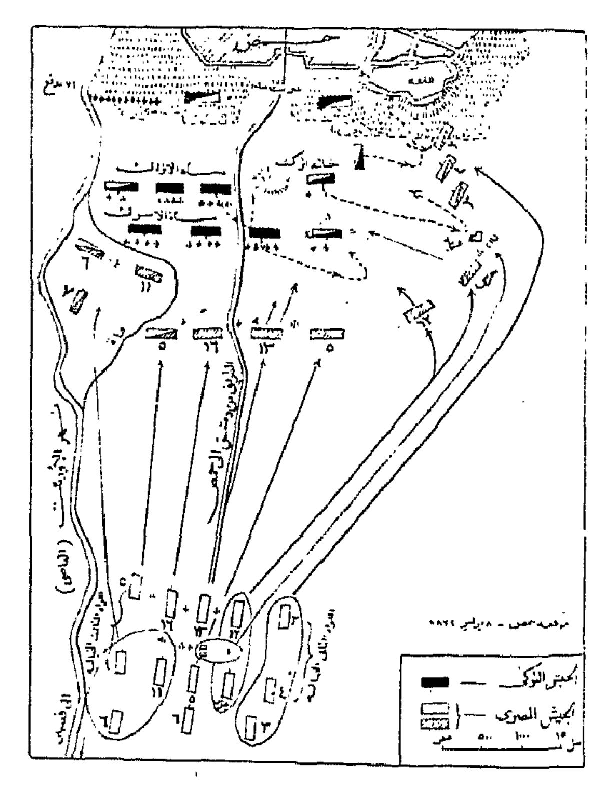
"زرت الترسانة والاسطول... ففي سنة ١٨٢٨ لم يكن بالاسكندرية الا ساحل مقفر. ولكن هذا الساحل أصبح في سنة معموراً بترسانة كاملة بنيت على مساحة واسعة، وأحواض للسفن، ومخازن ومعامل ومصانع لكل نوع.... وهذه الترسانة التي لم يمض على انشائها أكثر من ست سنوات قد صنع فيها عشر بوارج، سلاح كل منها مائة مدفع، وقد تم تسليح سبع منها تمخر العباب الآن، أما الثلاث الاخرى فلا تزال بالحوض على وشك نزولها إلى الماء، هذا عدا السفن التي من نوع الفرقاطة والكورفت والابريق، مما جعل عدد سفن الأسطول يزيد عن ثلاثين سفينة حربية...".

موضوع معين فيكون بينهم المعلمون والأطباء ورجال الادارة والضباط البريون والبحريون والعمال الفنيون والمهندسون وذلك للعمل في الطباعة والصباغة وصناعة الزجاج والاسمنت والتقطير وتكرير السكر وبناء السفن والتعدين.

وقد بدأ محمد علي في إرسال البعوث إلى الخارج في عام ١٨٠٩ عندما أوفد بعثة إلى ايطاليا وفي عام ١٨١٣ أرسل بعثة أخرى ومن أبرز البعثات التي أرسلها بعثة عام ١٨٢٦ إلى فرنسا وقد ضمت أربعة وأربعين شاباً كان بينهم أرتين بك الذي عين بعد ذلك وكيلا لشورى المدارس وشغل منصب ترجمان الباشا وحسن الاسكندراني الذي قاد الأسطول المصري في حرب القرم، والشيخ رفاعة رافع الطهطاوي الذي عين إماما للبعثة واشتهر بعد ذلك بمؤلفاته والمناصب المدنية العليا التي احتلها، ومظهر باشا مؤسس القناطر الخيرية. وفي عام ١٨٢٩ غادرت الاسكندرية بعثة صناعية تتألف من ثمانية وخمسين عضواً أرسل بعضهم إلى فرنسا وبعضهم إلى انجلترا والباقون الى النمسا. واستمر سيل البعثات بعد ذلك. وقد بلغ عدد أعضاء البعثات بحسب احد التقديرات ٣٥٠ طالباً، وبلغت تكاليفها حوالي ٢٧٣٣٦٠ جنيهاً. ومما يذكر أن بين أعضائها من قضى ثلاث عشرة سنة في الخارج وأن منهم من قضى تسع عشرة سنة. وقضى بعضهم احدى وعشرين سنة.

ومحمد علي صاحب المحاولة الكبرى الثانية في الاسلام لترجمة العلوم الاجنبية الى العربية. وقد حذا حذو السلف في الحصول على الكتب، فكلف عثمان نور الدين، وهو أحد أعضاء البعثة الاولى باحضار كتب فرنسية في العلوم بما فيها الاقتصاد السياسي. وتدفقت الكتب بعد ذلك من كل ناحية. ونظم الباشا امر ترجمتها وتزويد المدارس بها، لتكون مراجع للاساتذة ومواد قراءة للطلبة. وكان من كبار المترجمين الشيخ رفاعة الطهطاوي الذي قام أيضاً بمراجعة طائفة كبيرة من الكتب المترجمة وتعميمها. ومما يذكر أن الذين اشتغلوا في الترجمة عنوا عناية خاصة بترجمة المصطلحات والحاق قائمة بها بالكتب المترجمة.

وغني عن القول أنه كان لابد لمحمد علي من أن ينشيء مطبعة لطبع الكتب المترجمة. فأوفد نيقولا مسابكي الى ايطاليا للتخصص في فن الطباعة. فلما عاد الى مصر عهد اليه الباشا بانشاء المطبعة الاميرية في بولاق، فأنشئت عام ١٨٢٠، وبدأت عملها بعد ذلك بسنتين. وتلا انشاءها إنشاء مطابع أخرى بلغ عددها ثمانية ألحقت واحدة منها بمدرسة الطب في ابي زعبل وكان اول كتاب طبعته هو "كتاب القول الصريح في علم التشريح" وذلك في عام ١٨٣٢. ولا بد لنا من أن نشير الى أن محمد علي كان الرائد الاول لنشر كتب التراث العربي الاسلامي. فقد قامت مطبعة بولاق بنشر عدد كبير من المراجع. وفي عام ١٨٣٨ أحصى القنصل



■ موقعة حمص (٨ يوليو ١٨٣٢)

الروسي الكتب التي صدرت عنها فوجدها ثلاثة وسبعين.

ولم يفت محمد علي ما للصحافة من أهمية كبيرة في حياة الدول المتقدمة فقام في البدء بتشجيع الصحيفة الفرنسية الاسبوعية "المونيتير اجيبسيان" التي كانت تدافع عنه وترد على الاتهامات التي كانت توجهها له "المونيتير اوتومان" في الآستانة. ثم لم يلبث ان أمر باصدار اول صحيفة مصرية وهي "الجورنال الخديوي" وتلتها " الوقائع المصرية" التي قدر لها ان تستمر الى الآن! وقد صدر العدد الاول منها في ٣ ديسمبر (كانون اول) عام ١٨٤٨. واقتصرت في البدء على نشر الاخبار الداخلية حتى اذا اعيد تنظيمها عام ١٨٤١ وسعت قسم الاخبار بحيث شمل الاخبار الخارجية أيضاً. وقد عهد بالاشراف على الوقائع الى الشيخ رفاعة الطهطاوي الذي واصل العمل فيها الى عهد عباس الاول.

الصناعة

كان محمد علي رائد فكرة تصنيع مصر وصاحب اول مشروع من المشاريع الكبرى الثلاثة التي طبقت لتحقيقها والمشروعان الآخران هما مشروع اسماعيل باشا ومشروع الثورة المصرية (١٩٥٢). ومن أهم الاسباب التي دفعت محمد علي الى تصنيع مصر هي اولا إمداد الجيش والبحرية المصرية بما يحتاجانه من أعتدة وثانياً تعديل الميزان التجاري لصالح مصر وثالثاً فكرة الاكتفاء الذاتي التي ترتبط

ارتباطاً وثيقاً بالميزان التجاري. وقد شرح محمد علي هذه الفكرة بقوله للبارون دي بوالكمت.

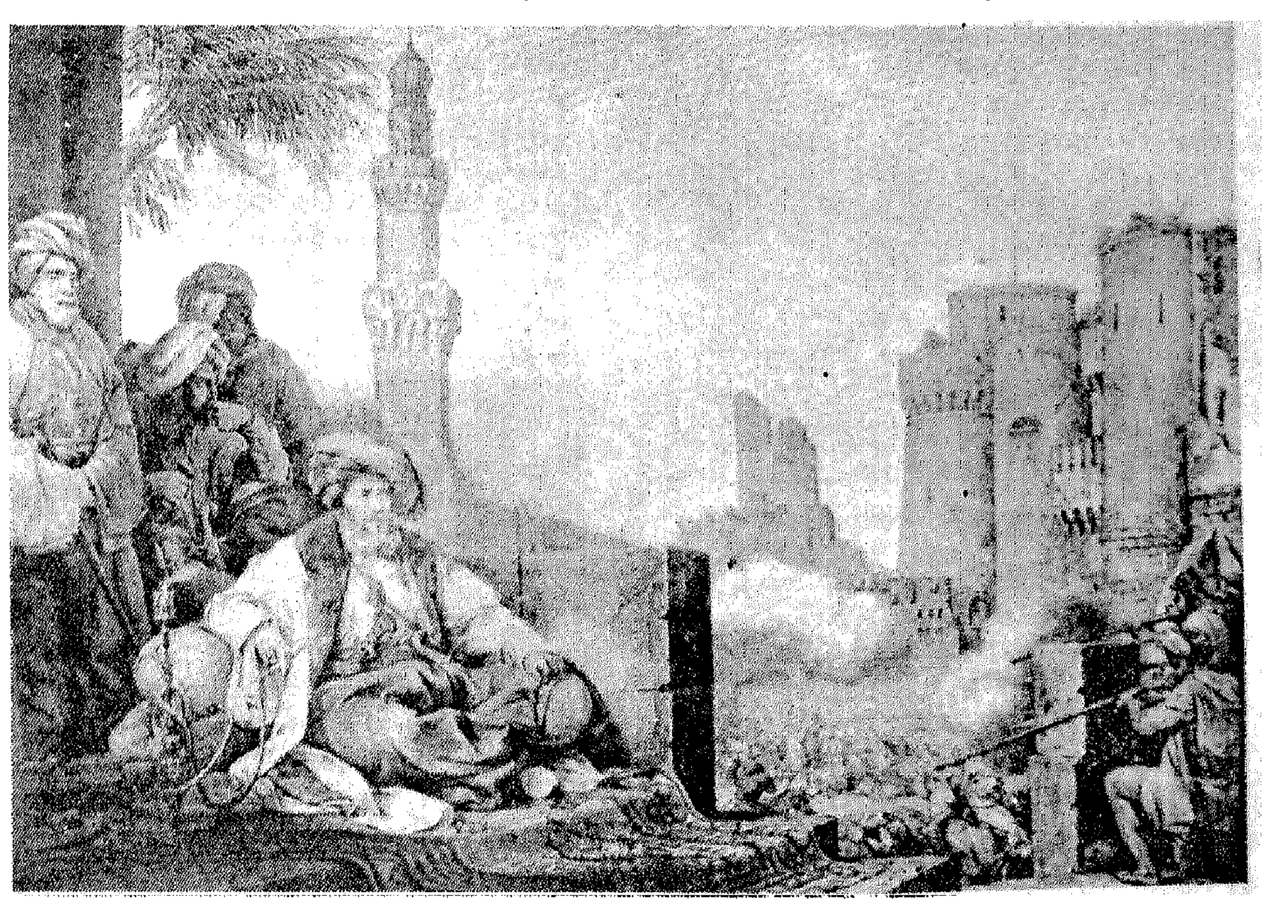
"لقد أدخلت تغييراً على علاقاتي التجارية لان المصانع التي أنشأتها استطاعت أن تخلصني اليوم من تلك الجزية التي كان على البلاد أن تدفعها للصناعة الاوروبية. وهكذا بقيت في مصر جميع الاموال التي كنت أدفعها ثمناً لأجواخكم وحرائركم".

واتبع محمد علي سياسة الاحتكار بالنسبة للصناعة فوضع يده على المصانع واستخدم الصناع فيها بالأجرة، وأخذ يبيع المنتجات لحساب الدولة. وقد وسع نطاق الصناعات القديمة وفي مقدمتها صناعة النسيج، فأنشأ مصانع كبرى جديدة زودها بأحدث الآلات الاوروبية، واستخدم فيها عمالا اوروبيين وبخاصة من ايطاليا ومالطة الى جانب المصريين. ومما ساعده على التوسع فيها وجود القطن ذي التيلة الطويلة الذي أدخل زراعته بناء على اقتراح من رجل فرنسي يدعى جوميل. وبلغ انتاج مصر منه بين ١٠٠،٠٠٠ و ١٥٠،٠٠٠ بالة سنوياً تزن كل منها ما يقرب من قنطارين. وقد استطاعت المصانع المصرية في عهد محمد علي أن تسد حاجة الاستهلاك المحلي وأن تحقق فائضاً للتصدير وبلغ ما انتجته مصانع نسج الكتان في عام ١٨٣٢ مليون قطعة.

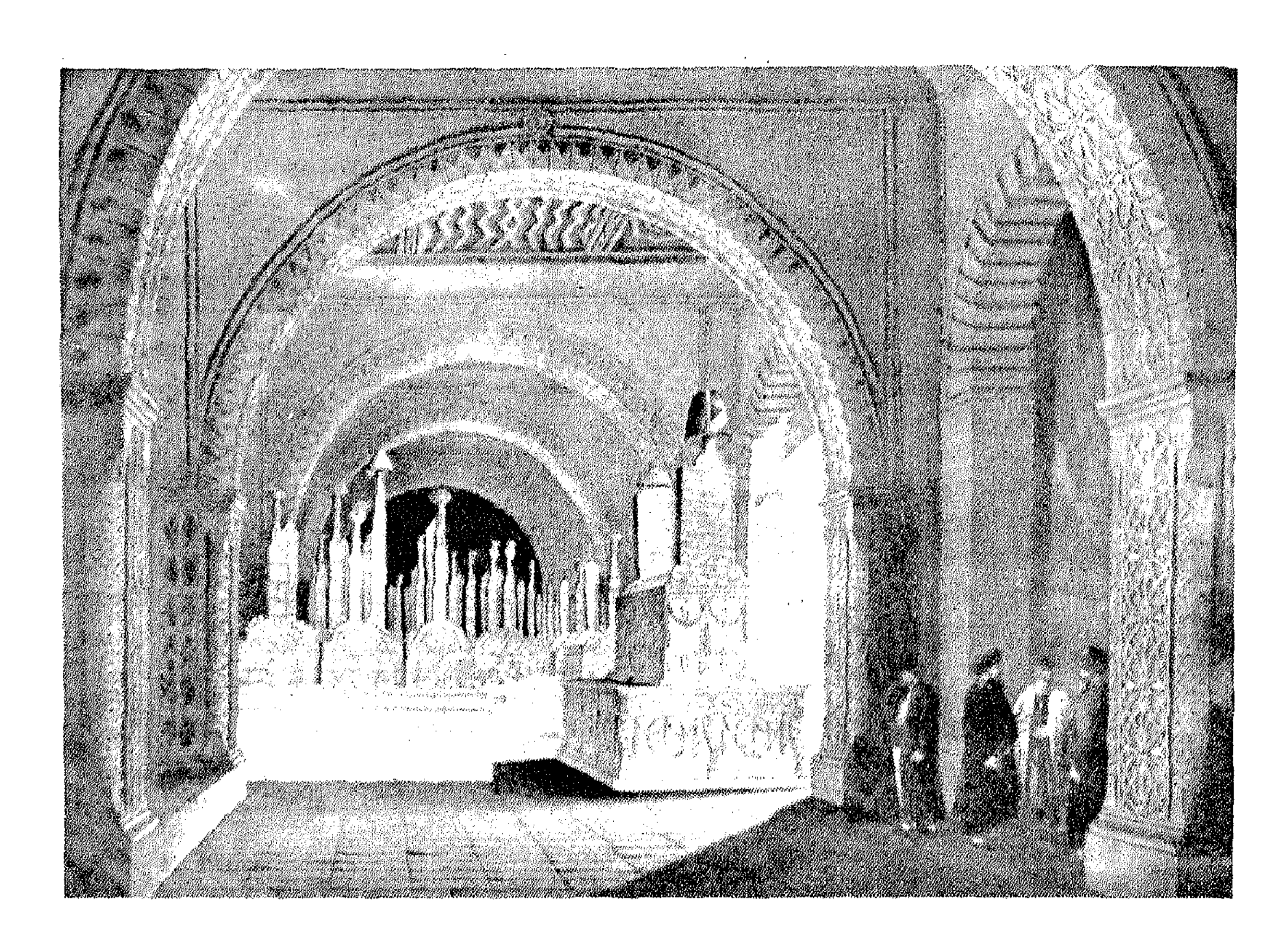


ومن الصناعات التي اولاها محمد علي المزيد من اهتمامه هي الصناعات الحربية. ففي عام ١٨٤٠ أنشأ ترسانة القلعة لصنع المدافع. وقد بلغ عدد عمالها عام ١٨٣٣ ألفاً وخمسمئة. وكانوا ينتجون بين ثلاثة واربعة مدافع في الشهر. وفي عام ١٨٢٩ أنشأ محمد علي الترسانة الكبرى في الاسكندرية لصنع السفن الحربية فأنزلت أول سفينة الى البحر عام ١٨٣١. وفي هذا العام ذاته كان يشتغل فيها ٣٢٦٤ عاملا. وقد ازداد عددهم فيما بعد فبلغ ٩٠٠٠ عامل ومن المصانع الأخرى التي انشأها مصانع لصنع الاسلحة الخفيفة وبخاصة البنادق.

وبالرغم من أن محمد سار شوطاً كبيراً في تصنيع مصر حتى بلغ ما انفقه على المصانع ما يقرب من اثني عشر مليوناً من الجنيهات فان تجربته لم تلاق النجاح الذي توقعه وذلك بسبب منافسة الصناعات الاوروبية وافتقار مصر الى مواد الصناعة وتكاليف الخبراء الباهظة. لكنها دون ريب بقيت حلماً في أذهان خلفائه الذين ساروا في طريقه.



■ مجزرة المماليك (للفنان هوراس فرنيه)



■ مقبرة عائلة محمد علي باشا (للفنان باسكال كوسته)

توحيد العرب تحت لواء مصر

كان محمد علي صاحب اول محاولة بعد وقوع البلاد العربية تحت حكم الاتراك لانتزاع المشرق العربي من الدولة العثمانية. وقد وضح له خلال الحروب التي خاضها بناء على اوامر السلطان ضعف الدولةمن ناحية وضرورة الاستيلاء على المشرق العربي

وما من دولة مصرية قوية أيضاً الا وبسطت نفوذهاعلى اليمن باب البحر الاحمر الجنوبي، او حاولت ذلك.

وكانت اولى الحروب التي خاضها في البلاد العربية حروبه ضد الوهابيين في الجزيرة. وقد تمكن عام ١٨١٨ وبعد حملات استمرت سبع سنوات من اخضاعهم باسم السلطان. وفي عام ١٨٢٠ استولى على السودان. وبعد بضع سنوات وعده السلطان بولاية سوريا، وذلك في مقابل اشتراكه مع الدولة العثمانية في حرب اليونان التي كلفته اسطوله. لكن السلطان لم يف بوعده فزحف محمد علي عليها في عام ١٨٣١. ولم يكد ينسلخ شهر تموز من العام التالي حتى كانت بلاد الشام كلها في يده. ووجد الطريق أمامه الى القسطنطينية مفتوحة فواصل زحفه. ولم يتوقف إلا بعد أن اعترف السلطان بولايته على بلاد الشام.

وقد استطاع محمد علي "أن يقيم نظاماً جديداً (في بلاد الشام) يعتمد على المساواة في الحقوق المدنية والدينية وعلى ضمان الأرواح والممتلكات، وهو أمر لم تعرفه بلاد الشام منذ أيام الحكم العربي في دمشق. وبذلك أشرق عهد جديد حقاً وكان ابراهيم باشا يحاول - حين يذكر ما انجز من أعمال - أن يقدم بذلك الدليل الملموس على أن العرب، بعد زوال الحكم التركي، يستطيعون أن ينظروا في ثقة واطمئنان إلى مستقبل زاهر في ظل حكم محمد علي وأسرته".

وكان في استطاعة محمد علي ان يطيح بالسلطان وأن يجدد شباب السلطنة لولا أن الدول الاوروبية على اختلاف سياساتها اتفقت على شيء واحد وهو الحفاظ على "الرجل المريض" أي تركيا. فالرجل المريض يسهل معه تحقيق المطامع وعدم تهديد المصالح الاجنبية. واضطر محمد علي إلى التخلي عن بلاد الشام وحكم مصر تحت سيادة السلطان وذلك طبقاً لمعاهدة لندن ١٨٤٠.

عمر المختار

مقاتلاً وشهيداً

هـ٠س٠ب



كانت الحراسة شديدة جداً، عندما نقلت سيارة من زنزانة في السجن شيخاً غليل اليدين بالحديد، تتقدمها مصفحة مليئة بحملة الرشاشات، وتحيط بها سيارتان فيهما حملة رشاشات، وتمشي وراءهما سيارتان تنقلان ايضاً حملة رشاشات٠

ولم يفتح باب السيارة الا بعد ان اصطف جميع الجند المسلحين في صفين امام مدخل العمارة، فأنزل السجين ومشى عالي الرأس كأنه ابن ثلاثين٠

وفي داخل المبنى مشى بين صفوف من الجند الى ان بلغ قفص المحكمة٠ هناك ارتبك جميع من في القاعة٠ لقد بدا السجين كبيراً كبيراً للناظرين٠

لم يكن الشيخ المثقل بالسنين ليبدو سجيناً، وساد صمت رهيب حتى ان القضاة الذين بدأت لغة الموت تدور على السنتهم وفي خواطرهم جلسوا صامتين٠

وبعد ان افتتحت الجلسة بدأ الكاتب يقرأ ما في ورقة الاتهام:

عصيان الدولة، اعلان حرب عليها، قتل ضباطها وجنودها، جباية الضرائب من الاهلين الخ٠٠٠

وترجمت ورقة الاتهام من اللغة الايطالية الى العربية وسأل الرئيس سجينه عن هويته٠

بصوت جلي، واضح، متماسك الاوتار قال:

ـ اسمي عمر المختار، وامي عائشة بنت محارب، من قبيلة المنفة، عمري ٧٣ سنة، ولدت في موقع دفنه، اقامتي في الجغبوب شيخاً لزاوية القصور٠

هل سمعت ما ينسب اليك من تهم خطيرة؟

ـ نعم، وسأجيب عنها كلها، واحدة واحدة مهما كبرت وكبر خطرها٠

وانطلق عمر المختار يفضي مأساة ليبيا منذ الاحتلال، والمفاوضات التي دعاه اليها رجال الاحتلال والوعود الكاذبة والنكوث بها٠

تكلم عن الظلم والطغيان، عن الاستبداد والاغتصاب وانتهاك الحرمات وتحقير المقدسات٠ وبقي يتكلم برباطة جأش مذهلة قال: وانا اتحمل جميع التهم التي الصقتها بي النيابة العامة العسكرية الا واحدة٠

الرئيس: هل أنت قائد العصيان ضد ايطاليا؟

ـ نعم انا هو٠

رئيس المحكمة وهو الكولونيل ماريتوني: هل حاربت الدولة الايطالية

ـ نعم حاربتها٠

الرئيس: اني اكرر السؤال عليك فانتبه لنتائجه: هل انت حاربت الدولة الايطالية فتناولت السلاح في وجه قواتها واشتركت في قتالها اشتراكاً فعلياً؟

ـ نعم٠٠نعم٠٠ نعم٠٠

الرئيس: كم هو عدد المعارك التي اشتركت فيها منذ سنة ١٩١١ حتى اليوم؟

ـ لا اذكر عددها لانها كثيرة لا تحصى!

الرئيس: هل قتلت ضابطين طيارين وقعا في يدك اسيرين؟

ـ وانتفض قائد المجاهدين: اما هذا فلا، ثم لا٠ فقد قبضت عليهما وابقيتهما في سلنطه، وفاوضت المركز الايطالي بشأنهما٠ الا ان جنودكم هاجمونا وجرت بيننا معركة ارغمتني على الانسحاب٠ ولما رجعت عرفت ان الضابطين قتلا٠ ولم اعرف كيف ومن٠ ولكني أؤكد انهما قتلا بغير امر مني وبغير مشيئتي ومعرفتي٠

الكولونيل: هل انت امرت بقتل الجنود الذي كانوا يحرسون العمال في شق الطرق؟

ـ نعم انا الذي امرت بقتلهم

منذ كم تتولى قيادة العصيان؟

ـ منذ عشر سنوات٠

وهكذا وعلى هذا المنوال سارت "المحاكمة" كلها٠ نعم٠٠نعم٠٠ نعم، ولم ينكر تهمة منها سوى واحدة كاذبة، وهي قتل الضابطين اللذين اسرهما٠

وكانت المحكمة قد كلفت ضابطاً ايطالياً بالدفاع عن شيخ المجاهدين، وماذا عساه ان يقول فيما نسب اليه من تهم، وما هو المتهم، عمر

المختار نفسه بلحمه ودمه، يعترف امام المحكمة والجمهور بأنها تهم صحيحة وبأنه هو الذي ارتكبها.

وثبت للمحكمة ان حكومة الاحتلال لم تجد في جميع سجلاتها الرسمية والسرية اي مال دفعته لعمر المختار طوال سنتي الاحتلال. وما كان لعمر ان يقبض مالا او غير مال، او يرضى بمنصب من اعدائه.

وبعد ان انتهت المحكمة، دخل رجال القضاء غرفة الاسرار ولم يطل الوقت حتى رجعوا ليعلنوا الحكم بالاعدام.

لم تستمر المحاكمة اكثر من ساعة وربع وقد ساعد المتهم الذي اسرع في اجوبته الواضحة: نعم.. نعم.. نعم.. انا هو، نعم انا الذي امرت.

وبعد ان سمع المتهم ترجمة الحكم الى العربية، لم تتحرك شعره في جفنيه، بل نظر الى هيئة المحكمة متعالي الرأس وقال: الحمد لله: الحمد لله!

ويوم الاربعاء ١٦ ايلول عام ١٩٣١ طوي آخر فصل من حياة المجاهد عمر المختار الذي سلم الى الجلاد دون اي مقاومة ...

فقط كلمة واحدة وجهها اليه عمر المختار بهدوء مدهش، ورباطة جأش مطمئناً كأنه في زاوية القصور قال:

"اشهد ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله"

ومع هذه الشهادة، وبهذا الجلال، انتقل الى بين يدي الله.

وانطوت معه صفحة من تاريخ العرب، في مشرقهم ومغربهم، اذ وحده كان عمر المختار في ايام جهاده الاخيرة حلم الثوريين العرب في جميع امصار العرب.

وقد بدأ الجهاد مع احتلال الاسطول الايطالي لمدينة طرابلس في الخامس من تشرين الاول عام ١٩١١، عندما بدأت جلجلة العذاب العربي في ليبيا.

فقد استولى المستعمر على البلاد، وحكمها حكماً عسكرياً فاشيستياً، فسفك الدماء، وقتل الابرياء، وانتهك الاعراض وسلب الاموال.

كما استولى على مرافق الحياة، فالمسلم لا يستطيع الاشتغال بالزراعة ولا بالتجارة، ولا بأية حرفة.

تلك العذابات والمحن والمظالم والآفات ذاقها عمر المختار ورفاقه ومواطنوه جميعاً، اما مجاهدوه فعطشوا وجاعوا وحرموا ما يضمدون به جراحاتهم وفقدوا حتى العتاد والسلاح، وسيلة الجهاد ولم يبق لهم سوى ايمانهم بالله.

وادرك عمر المختار مصيره فنذر نفسه شهيداً في سبيل دينه ووطنه، وفي آخر كتاب منه الى احد رؤساء السنوسية قال:

"لن ابرح الجبل الاخضر مدة حياتي، ولن يستريح الطليان فيه، حتى يواروا لحيتي في التراب..".

لقد زاره كثيرون مرة اثر مرة راجين ان يقبل عرضاً للتفاوض مع سلطات الاحتلال وقد جارى عمر رغبة رجال الاحتلال وذلك عام ١٩٢٩ وكان من بين المفاوضين واحد يمثل الغطرسة الفاشيستيه اسمه لوبيلو حاول ان يلقي على المختار تبعة الحرب وقال له:

ان الشريعة الاسلامية لا تسمح لكم بهذه الحرب التي لا طاقة لكم عليها وان نبيكم لا يسمح لكم بمقاومة الدولة التي لا تقدرون على مقاومتها والحكومة الايطالية مستعدة الآن لان تتعهد بمعاشات شهرية لكم ولاتباعكم ان انتم سلمتم سلاحكم ودخلتم تحت حكمها.

فانتفض عمر من لهجة لوبيلو وقال له:

- اني اعرف عنك اخباراً سيئة واعمالك كلها تدل على انك لا تريد الخير لبلادنا ولا لحكومتك وها انك تهددنا بجيوشكم في مجلس انتم دعوتمونا اليه للتفاهم اي انك تهدد ضيوفك...

واستطرد:

- انا حاربناكم ثماني عشرة سنة ولا نزال بعون الله نحاربكم ولن تنالوا منا بالتهديد.

وانفض الاجتماع بدون اتفاق.

وتكررت الاجتماعات والمفاوضات وكانت جميعها تبوء بالفشل.

وكان قبل عام ونيف من استشهاده ان اخذت الصحف الفاشيستيه ومن يدور في فلكها تضلل الرأي العام العالمي ودنيا العرب المسلمين بأن الحالة هدأت في طرابلس وبرقه ولم يبق فيها من معارض للحكم الايطالي وذلك اثر مفاوضات عرض خلالها عمر المختار شروطه لوقف الجهاد.

وقد قبل الوالي مطالب المختار ووعد بتنفيذها وكان من بينها الاتفاق على هدنة تدوم شهرين وقبل انتهاء مدة الشهرين طالب الايطاليون بتمديد الهدنة بدعوى ان الوالي سافر الى روما لعرض الامر على حكومته وطالت الهدنة وتبين ان غرض الحكومة هو كسب الوقت فقط.

وهكذا قرر عمر المختار مواصلة الحرب وعدم العودة الى اي محادثات او وساطات ولو كانت من العائلة السنوسية وقد جاء ذلك في نداء أذاعه على العالم وانهاه بالقول:

ليشهد العالم اجمع أن مقاصدنا ليست الا المطالبة بالحرية، وأن مقاصد ايطاليا واغراضها ترمي الى القضاء على كل حركة قومية تدعو الى نهوض الشعب الطرابلسي وتقدمه...

وتابع:

و"هيهات ان يصل هؤلاء الى غايتهم ما دامت في صدورنا قلوب تخفق وتعرف ان في سبيل الحرية يجب بذل كل مرتخص وقال: ونحن الان ندافع عن كياننا ونبذل دماءنا فداء الوطن وفي سبيل تحقيق امنيتنا المنشودة".

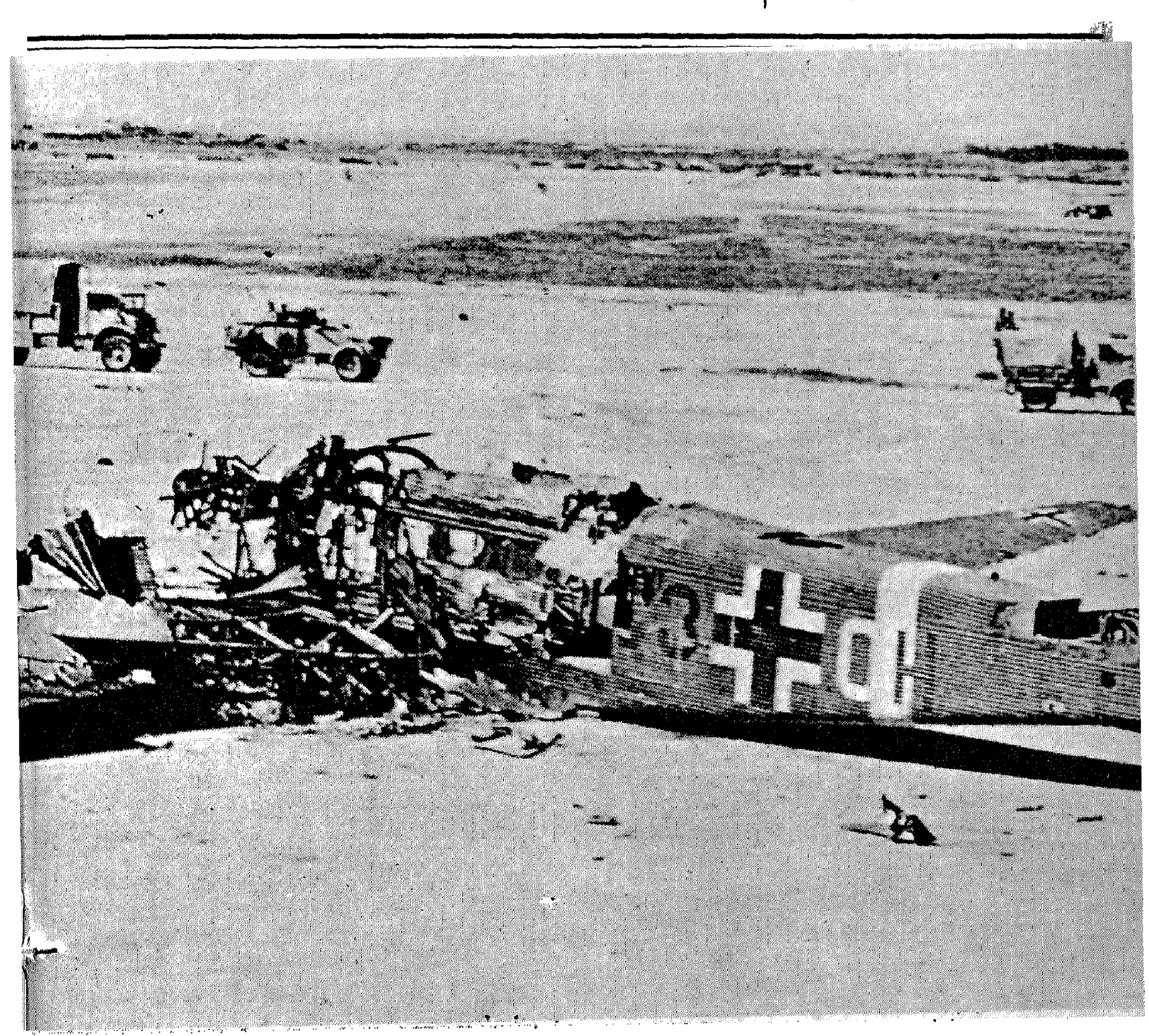
"لهذا نحن غير مسؤولين عن بقاء الحالة الحاضرة على ما هي، ولن نرجع حتى يتوب اولئك الافراد النزاعون الى القضاء علينا الى رشدهم ويسلكوا السبيل القويم، ويستعملوا معنا الصراحة بعد المداهنة والخداع.

والسلام على من اتبع الهدى!".

روميل ثعلب الصحراء

هكذا مات على يد هتلر

وفضّل أن يقضي بالسم بدل أن يقضي بمشنقة الفوهرر



■ حطام طائرة المانية "يونكرز - ٥٢" في الصحراء الليبية بعد معركة العلمين

في الرابع عشر من شهر تشرين الاول عام ١٩٤٤، وفي تمام الساعة الثانية عشرة اتجهت سيارة صغيرة، خضراء اللون الى الشارع الرئيسي من قرية "هرلينكن" الجميلة والواقعة على مقربة من مدينة "اولم" حيث المنازل البيضاء ذات السقوف المصنوعة من القرميد والمشادة حول كنيسة بيضاء.

وراء المقود، سائق يرتدي البزة السوداء للاستخبارات السرية، والى جانبه جلس الميجور "ايهر ينينكر" وفي المقعد الخلفي جلس ضابطان برتبة لواء "بورغوروف وميزل" كان السائق يقود سيارته بتأن في السفح حيث تتعرج مياه الساقية، الصغيرة ذات المياه الصافية، وحول ذلك كله شريط من التلال يشكل الافق.

توقفت السيارة أمام منزل يظهر من بين الاشجار في حديقة حافلة غنّاء ترجل الضابطان من السيارة ودفعا باب الحديقة بينما ملامح وجهيهما تبدو عليها القوة والهيبة معاً ثم تقدما نحو المنزل وعلى مدخله استقبلهما رجل عنيف، مخيف، قاسي الوجه في الثالثة والخمسين من العمر.

البارز في هذا الرجل هو العنفوان الذي يظهر من خلال شخصيته، وخاصة صلعته المتطاولة بينما يملأ الشعر الكث مؤخرة رأسه. هذه الصلعة شبهها "كورزيو مالاباراتي" يوماً باجاصة صفراء كبيرة. كان هذا الرجل هو الماريشال اروين رومل.

حول رومل كانت زوجته، ابنه "مانفريد" وضابطه المساعد الكابتن "الرينكر" وبناء لطلبهما، قاد رومل الضابطين الى غرفة في مدخل المنزل. وهنا بدأ بورغوروف وميزل بالكلام. تحدثا بصراحة ولم يخفيا شيئاً. وكان كلامهما بمثابة قرار اتهام. لقد وجها للماريشال رومل تهمة الاشتراك في محاولة اغتيال هتلر في العشرين من تموز ١٩٤٤ واتهماه بأن عليه ان يدفع الثمن اما بالظهور أمام محكمة الشعب او بتناول السم الذي احضراه معهما.

هذا هو الاختيار الذي عرض في الرابع عشر من تشرين الاول ١٩٤٤ على القائد العسكري الاكثر شعبية في الجيش الالماني، الرجل الذي عرف كيف يكتسب ليس فقط تقدير واعجاب الالمان بل أيضاً التقدير نفسه والاعجاب نفسه لدى اعدائه.

النصر في افريقيا

في شباط ١٩٤٤ وبينما كان الجنرال، الضابط المحترف والمقاتل القدير في حرب ١٩١٤ - ١٩١٨، واحد المنتصرين على راس الفرقة المدرعة السابقة في فرنسا عام ١٩٤٠ يقضي اجازة في منزله "هرليتكن" مع زوجته وابنه مانفريد، جاءه ضابط من القيادة العامة لهتلر طالباً منه الحضور فوراً بين يدي القائد العام للجيش "فون بروشيتش". وبعد ذلك كان عليه المثول أيضاً امام هتلر.



■ رومل مع زوجته وابنه مانفريد

في السادس من شباط ١٩٤٤ ابلغ "فون بروشيتش"، رومل بنبأ تعيينه قائداً للحملة الالمانية في ليبيا، وهذا يعني قيادته لفرقة مدرعة وفرقة خفيفة. اما هو فسيبقى بتصرف الماريشال الايطالي "غرازياني".

وعندما مثل رومل بعد ظهيرة ذلك اليوم امام هتلر اكد له هذا الاخير نبأ التعيين وافهمه انه يعتمد عليه كلياً.

ما هي ملابسات هذا التعيين؟

منذ ايلول ١٩٤٠ كان الايطاليون قد هاجموا القوات البريطانية التي كانت تدافع عن مصر بقيادة الجنرال "ويفل". كان عدد هذه القوات اقل بكثير، ولذلك هزمها الايطاليون واخذ الجيش الايطالي مدينة سيدي براني.

كان الايطاليون يستطيعون التقدم لكنهم فضلوا التريث لتقوية صفوفهم بهدف شن هجوم جديد. لكن الهجوم تم هذه المرة بقيادة "ويفل" القائد البريطاني الذي دفع بالايطاليين الى الانسحاب والتقهقر حتى البردية وطبرق على بعد خمسين كيلو متراً من الحدود المصرية. وانقلب الانسحاب الايطالي، وكان ذلك في كانون الاول، الى كارثة حقيقية.

عندئذ قرر هتلر التدخل واجتمع بموسوليني وحصل على موافقته.

عندما وصل رومل كان ويفل قد انتزع بنغازي. وكان يبدو انّ لا احد يمنعه وأمام المعنويات الايطالية المنهارة الى درجة الصفر تخلى "غرازياني" عن مسؤولياته وتولى رئيس اركانه "غاريبالدي" قيادة الجيش الايطالي.

وفوراً بدأ رومل بالهجوم (آذار - نيسان ١٩٤١). ... الجيش الالماني يقتحم، يدفع بالبريطانيين الى الوراء، يستعيد بنغازي، يقطع الصحراء ويتقدم باتّجاه طبرق كانت طبرق شديدة التحصين ورغم كل محاولاته لم يستطع رومل اقتحامها، لم

ينتصر كما في معركة الدبابات في السلوم. وحل فصل الصيف بينما بقي الطرفان كل في موقعه.

استبدل "بويغل" "أوشينلك" واستعد هذا لهجوم من نوع جديد. واضطر رومل على اثر ذلك للانسحاب من "السيرينايك". ولكن في كانون الثاني ١٩٤٢ عاود رومل الهجوم ودمر كل شيء في طريقه. انهارت المقاومة البريطانية واستعاد رومل بنغازي وهاجم "سيرينايك" من جديد ثم استعاد طبرق في حزيران ١٩٤٢ وتابع هجومه فاخترق الحدود المصرية وتقدم باتجاه الاسكندرية بالقرب من سيدي براني.

هتلر يلوم نفسه.

معركة بهذا الحجم حملت الانتصار لرومل وجعلته يصل الى امام العلمين. وهنا قرر احدهم — مونتغمري — ايقافه. ايقاف الذي قام هتلر بترقيته الى رتبة ماريشال لشكره على انتصاراته.

أمضى رومل كل هذه الاشهر وسط تعب مضن. لم يعد يعرف للراحة معنى.

كان جهده الجسدي والنفسي كبيراً. واذا به فجأة ينهار ويقع فريسة المرض، وقد نصحه الاطباء بالذهاب الى اوروبا للمعالجة.

وسافر رومل، قابل موسوليني ثم هتلر، توسل اليه ارسال المساعدة الى الفرقة الافريقية التي كانت تقاتل بجهودها الخاصة. وطلب زيادة وسائل التموين والوقود. ثم تولى متابعة علاج مرضه: الكبد والضغط. ولكن في الرابع والعشرين من تشرين الاول اتصل به هتلر هاتفياً وابلغه بأن المعركة تدور في العلمين، وعاد رومل.

ولم يستطع تحسين الاوضاع. وانتصر البريطانيون مع قوات الكومنولث في معركة العلمين مدعومين بالقوات الفرنسية الحرة. وبدأ رومل بالانسحاب، وقد حاول الاقتراب من طرابلس ولكن دون نتيجة . وشعر بأنه خسر الجولة، وانه من الافضل له الانسحاب من افريقيا وذهب لعرض الامر على هتلر. وطوال الاجتماع حافظ رومل على برودة اعصابه وبينما كان يهم بالخروج لحق به هتلر وقدم له اعتذاره قائلا: سيسير كل شيء على ما يرام.

وللمرة الاولى غير رومل نظرته الى هتلر. لم يعد في نظره ذلك العقل الجبار، ذلك الرجل القادر لكنه، اصبح قائداً غير انساني يتخذ قرارات مستحيلة التنفيذ. وعاد الى افريقيا ليتابع انسحابه حتى تونس ولينتصر في معركة اخيرة ضد



■ رومل يتقدم قواته في الصحراء

الاميركيين وكانت فعلا معركته الاخيرة. لقد اصبح رومل مهزوماً والى الابد.

وعاد الى المانيا يحطمه المرض، ويعيش بحنجرة تلفها الضمادات.

في ايار ١٩٤٣ استسلمت قوات الفرقة الافريقية في تونس. واستدعى رومل لمقابلة هتلر في (ملجأ الذئب). وتوجه رومل لمقابلة هتلر المحطم:

– كان علي الاستماع اليك من قبل. لان افريقيا ضاعت الآن.

وتجرأ رومل على السؤال؟

– هل تعتقد حقاً اننا سنرى الانتصار الكامل الذي كنا ننشده؟

– كلا

– هل تتصور نتائج الهزيمة؟

– نعم. اعتقد انه من الضروري اقامة السلام بطريقة او بأخرى ولكن لا احد يريد التفاوض معي.

وما شاهده رومل كان احدى لحظات الضعف، والتخلي النادرة عند هتلر. لقد لاحظ ان هتلر ضعيف ولكنه في الوقت نفسه يرفض التخلي عن مركزه لشخص آخر كما يقتضي المنطق.

اذ انه بين نفسه والشعب الالماني... اختار هتلر نفسه.

... اطلاعه على الجرائم

بعدما أمضى حوالي سبعة اسابيع في مستشفى "سيميرينك" عين رومل قائداً لفرق الجيش في شمال ايطاليا.

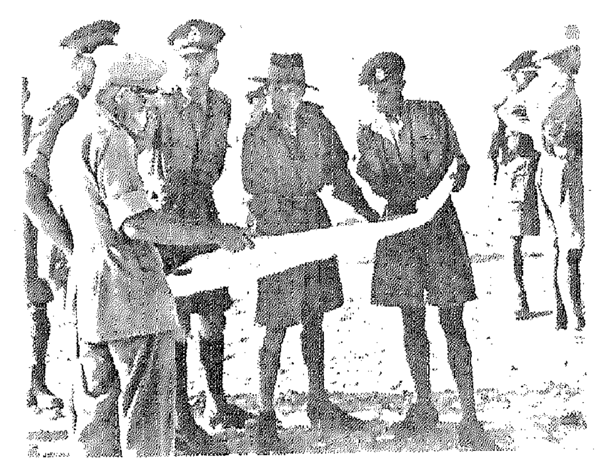
ولكن كيف سيعود "رومل" الى الحياة الالمانية؟ ما هو شعوره؟ ما هي افكاره؟

يعرف بان له عدوين: جودل وكيتل، ويعرف ايضاً بأن الرؤساء في الحزب لا يكنّون له المودة. وكان يعرف ذلك قبل عودته. وخاصة بعد العلمين ويعرف ايضاً ان الامور لا تسير سيراً حسناً في المانيا النازية وذلك بسبب حاشية هتلر لا بسبب هتلر نفسه. ولكنه غير نظرته وبدأ يحكم بأن تصرفات هتلر غير مسؤولة. وكان ذلك قراراً خطيراً في حياة رومل الذي بدأ يتصور بأن المانيا تسير نحو الهاوية.

بدأ هذا التحول عندما كان يتعالج في المانيا. وكان ذلك نتيجة للزيارات التي كان يقوم بها الضباط الالمان والذين كانوا يتكلمون بكل صراحة امامه. شرحوا له مجازر روسيا وبولونيا وعلم منهم للمرة الاولى بعملية ابادة اليهود وبوجود معسكرات الاعتقال وغرف الغاز. واصيب بالصدمة والذهول.

ولكن الرجل لا يغير افكاره بسهولة. وبقى لدى رومل امل. قد يكون هتلر لا يعلم بما يجري؟

فور ابلاله من مرضه اجتمع بهتلر وطالبه بالغاء "الغستابو" وتوزيع عناصر المخابرات السرية على فرق الجيش. وتوسل اليه ايقاف موجة تجنيد الشبان. "ان تحطيم شباب البلاد لجنون".



■ مونتغمري في الجهة المقابلة للقوات الالمانية في العلمين

واستمع اليه هتلر من دون ان يغضب ولكنه اعلن انه ليس على استعداد لتغيير طريقته.

وهكذا فهم رومل أن جرائم النازية هي جرائم هتلر.

في بداية ايلول ١٩٤٤ كلف رومل بمهمة جديدة: تفتيش قوى الدفاع البحرية في الدانمارك ولغاية اسبانيا. لم يتذمر وبدأ عمله في الحال. أمضى عشرة ايام في الدانمارك قبل وصوله الى فرنسا، التي تركها عام ١٩٤٠ ؛ وذهب للاطلاع على جدار الاتلنتيك الشهير.

اربعة ملايين لغم

ومثل كل الالمان كان رومل قد قرأ المقالات الكثيرة التي كتبت عن ذلك الجدار وشاهد افلام الدعاية التي تظهر عظمة هذا العمل الدفاعي الجبار، القادر على اية مقاومة. وكانت مفاجأته كبيرة وكذلك خيبة أمله. لم يعد لجدار الاتلنتيك وجود. وكانت المدفعية في اغلب الاحيان دون اي غطاء. لا حقول للالغام. ووسائل الدفاع ضد الدبابات وضد المدفعية كانت دون جدوى.

كيف والحال هذه يمكن التصدي لعملية انزال ستحصل يوماً ويبشر بها الجميع؟ هل نقف عاجزين؟ ليس هذا اسلوب رومل. لم يعد يؤمن بالنصر، ولكنه لا يدخر جهداً في سبيل الحصول عليه. كان يبقى أياماً في السيارة. يصحو مع الفجر ويبقى طيلة النهار يجوب بالسيارة ويقيم مؤتمراً فور عودته.

أمام مركز قيادته في "الروض غوبون". ومن هناكان يفتش، ينتقد، يغير ويتخيل. ولكن للاسف لم يكن طليق اليدين. لم يكن يستطيع توجيه الاوامر الى الفرق. كان دوره هو اسداد النصيحة الى القائد الاعلى للجبهة الغربية الماريشال "فون روند شتيد". وما تمناه رومل هو قيادة مستقلة. وحصل عليها في نهاية كانون الثاني ١٩٤٤. اصبح قائداً للقوات الالمانية في هولندا على نهر "اللوار".

وبدأ العمل بنشاطه المعروف. في كتاب عن رومل بقلم الكاتب البريطاني د. دسموند يونغ" كتب يقول: كان من حسن حظ الحلفاء انه لم يملك ستة اشهر اكثر. ولو حصل عليها لكانت عملية الانزال قد اصطدمت بعقبات لا يمكن تصورها.

كان في كل مكان وخاصة في المكان الذي لا يتوقع حضوره. كان يتوجه الى الضباط والجنود معاً. وعندما يغادرهم لا يكونون كما التقاهم. ويبدو انه كان موهوباً لذلك، فقد رفع معنويات الجيش ووصلت شعبيته الى ذروتها في الغرب كما وصلت في افريقيا. وذلك بالطبع لم يعجب القيادة العليا.

ومنذ ١٩٤١ تلقى قسم الدعاية في الجيش اوامر "بعدم اعطاء رومل اية اهمية" ولكنه الان وقع في حيرة. فمن الضروري والحيوي الاعلان عن حائط الاتلنتيك وبالتالي فانه في المستحيل اخفاء ذلك عن رومل او السكوت عنه.

صورت عنه الافلام وامتلات الصحف بصوره والمناقشات معه: مما ازعج غيره من القادة. ولكن الاميرال "روج" كتب يقول عنه: "بقي متواضعاً في شخصيته ولم يكن مدعياً وكان بعيداً كل البعد عن محاولات القفز الى الامام".

وبالفعل كان رومل يحاول المستحيل للحصول على المعدات النادرة التي كانت مخصصة لفرق اخرى. كان عليه الاكتفاء بما لديه. ونجح في زرع اربعة ملايين لغم. وكان يريد تحويل كل مواقع الانزال المحتملة الى حقول الغام. والسؤال هو: لو نجح في ذلك هل كان الحلفاء ليتمكنوا من النزول؟

ولكن في السادس من حزيران كان كل ذلك في طور النهاية.

الدوافع الى المؤامرة

قام رومل بواجبه على اكمل وجه. ولكنه كان يتوقع الاسوأ. كان ايمانه يزداد بأن المانيا لا يمكن ان تتفادى اكبر خسارة في تاريخها الا بالتخلص من هتلر. لم يكتف بذلك ولكنه ارتبط بعناصر عدة كانت تحضر فعلاًلازاحةهتلر عن السلطة.ولاشهر كان بضعة رجال يعملون سراً. وكان هدفهم السلام. ولكن الحلفاء اجابوا بوضوح بأنهم لن يوقعوا اي سلام مع هتلر. اذن كان هو العقبة.

كيف تخليص المانيا؟

أكثر المهتمين كان الدكتور غوردلير، عمدة مدينة لبيزيغوالجنرال "بيك"، رئيس الاركان السابق. وبصبر مشهور لهما كانا يتصلان ويحصلان على تأييد اكبر عدد من المناصرين في انحاء المانيا خاصة بين كبار الضباط. كل شيء كان يجري في الظل وكان هناك حلان.

اما توقيف هتلر او قتله.

ولكن من سيخلف هتلر؟ سؤال أساسي. كان من الضروري اختيار شخصية محبوبة من الجيش والشعب معاً. الجنرال "بيك"؟ مستحيل لكونه غيرمعروف من الالمان انفسهم. وبعكسه كانت انتصارات رومل قد بلغت ذروتها. اذن قرروا الاتصال به.

اختير سترولين كضابط اتصال، وهوعمدة مدينة شتو تغارت. كان نازياً ولكنه تخلى عن هتلر بعد عملية تشيكوسلوفاكيا. وبدأعمله السري عام ١٩٣٩. انقذ الكثير من اليهود ومن رجال المقاومة الفرنسيين المحكومين بالاعدام.



كان سترولنيي على معرفة بروميل منذ الحرب العالمية الاولى، وكانا صديقين، في آب ١٩٤٣ وقع سترولنيي على مستند نظمه مع غوردلير، كان يطالب بوقف عمليات الابادة، وعدم التعدي على الكنائس، اعادة الحقوق المدنية، وتمنى أن تسحب ادارة العدل من الحزب الاشتراكي الوطني، وقدم هذا المستند الى وزير الداخلية،

وفوراً، افهم "سترولنيي" بأنه قد يتعرض للمحاكمة بتهمة "جرائم ضد الدولة" اذا لم يلتزم الهدوء وكان جوابه:

ـ لقد تأكدت الان بأن لا شيء ممكن بالطرق القانونية ، ولم يتأخر سترولنيي عن اعطاء نسخة عن هذا المستند الى زوجة روميل التي سلمته لزوجها، وكان رد فعل الماريشال قوياً فالمستند يتطابق وافكاره الشخصية،

في نهاية ١٩٤٤ استقبل روميل سترولنيي في منزله بهيرلينكن، واضطر سترولنيي الى الاختباء من أجل اضاعة آثار اية مراقبة، ودامت المقابلة حوالي ست ساعات، كانا على اتفاق تام من ناحية الوضع السياسي والعسكري لالمانيا، عندها قال سترولنيي،

ـ اذا كانت افكارنا متطابقة فيجب ان تصل الى نفس النتيجة التي توصلت انا اليها،

وهنا عرض سترولنيي خطة من اعداد كبار الضباط من الجبهة الشرقية تنص باعتقال هتلر وبعد ذلك اجباره على اعلان تخليه عن الحكم بواسطة الاذاعة، وتلاقت نظرات الرجلين، وعم الصمت، ووافق روميل على الخطة واجتاز الخط الاحمر،

قد يكون مجنوناً

وفقاً لما نقل عن "سبيدل" رئيس اركان المارشال روميل، فان هذا الاخير كان على معرفة بخطة لاغتيال هتلر، ولكنه لم يوافق عليها، يجب الان على "سترولنيي" ان يشرح اسباب زيارته استمع روميل بصمت كلي الى سترولنيي الذي كان يشرح له انه الضابط الالماني الاكثر شعبية والاكثر محبة لدى الالمانيين والاكثر احتراماً لدى الاعداء انفسهم:

ـ انك الوحيد الذي يستطيع ايقاف حرب اهلية محتملة في المانيا، يجب عليك تبني الحركة،

بقي روميل متردداً، وسأله سترولنيي ان كان يؤمن بوجود اسلحة سرية، فنفى ذلك،

وهتلر؟ سأله سترولنيي .

أجاب روميل:

ـ انه يعيش اوهاماً ،

ـ الا تستطيع مقابلته ولفت نظره الى الحقيقة؟

ـ حاولت ذلك مراراً دون نجاح،

اتفق عندئذ على أن يقوم روميل بمقابلة هتلر كمحاولة اخيرة لاقناعه، وفي حال فشله قرر روميل ان يبدأ بالتنفيذ فوراً،

ـ اعتقد ان من واجبي مساعدة المانيا،



■ الاسرى الالمان بالمئات .. بعد انتهاء المعركة..

في نيسان ١٩٤٤ اصبح احد اعضاء المنظمة ضد هتلر، الجنرال سبيدل حلقة الوصل بين رومل وفون ستولبا نجيل حاكم فرنسا العسكري والعنصر الرئيسي في المنظمة ضد هتلر.

في ١٥ ايار عقد اجتماع في فيلا في "ماريل - مارلي" بين "سبيدل" و"ستولبا نجيل" حيث وضعا الخطوط العريضة لطلب الهدنة التي كانا يأملان مناقشتها مع ايزنهاور ومونتغمري فاذا لم يستطيعا قلب نظام هتلر فسيفاوضان بدون علمه.

واطلع رومل على كل شيء.

وفي ٢٧ ايار عقد اجتماع جديد في مقر الجنرال سبيدل في "فرودنستاد" سبب الاجتماع: رومل.

كان الحاضرون: سبيدل (ممثلا رومل) سترولين وفون نوران وهو وزير خارجية سابق، وضع محضر بالاجتماع ارسلت نسخة منه لرومل، كان هذا الاخير بدأ التكلم بصراحة دون اخفاء مشاعره وخاصة امام ضباطه المساعدين، وكان احد هؤلاء الضباط يتولى تسجيل كل ما يتفوه به الماريشال واثناء اطلاعه على هذا المحضر وجد ما يلي:

"ان اوامر هتلر ليست الا هراء وقد يكون الرجل مجنوناً"

وكان رد فعل الماريشال رهيباً:

- هل تريد ان تقودني الى المشنقة؟

وتم اصلاح عبارات المحضر.

طوال هذه الاسابيع اظهر رومل قوة ارادة في العمل غير منتظرة، فقد جهز الكاتب ارنست جنجر مشروع معاهدة سلام مبنية على ان اوروبا موحدة على اسس الديانة المسيحية، وفور اطلاعه على المشروع وافق رومل عليه، لكنه يفكر اكثر واكثر في السلام وبنفس الوقت يعمل الى اقصى حد لتقوية الدفاع ضد اي هجوم محتمل؛ كان يعتقد - وكان على حق - بأنه يجب المفاوضة من مركز قوة.

وفي السادس من حزيران وفيما كان رومل في اجازة في هيرلينجن، بدأ الحلفاء بالنزول، واستدعى على عجل، وكم كانت مفاجأته كبيرة عندما رأى كل ما توقعه يتحقق، وفي مساء اليوم نفسه كان الحلفاء قد تمركزوا في رأسي جسر استراجيتين وكان يدرك انه من غير الممكن رميهم في "البحر" بل يجب محاصرتهم، وحاول دون جدوى، وكان التفوق الجوي للحلفاء كاسحاً، هل سيفهم هتلر في النهاية؟ واخلاصاً منه لمبادئه قدم رومل تقريره للفور في ١٢ حزيران، واظهر مخاوفه واعلن ان العدو يسيطر على الجبهة كلياً، وفي ١٧ حزيران استدعى هتلر كلا من رومل وفون روندستيد الى الاجتماع به قرب "سوامسون".

وكان الاثنان متفقين على الانسحاب، ورد هتلر بعنف:

- لا انسحاب.

وحاول رومل اقناعه بمحاولة سلام مع القوى الغربية؛ فلم يقنع وقطع الاجتماع فجأة.



■ رومل في قلب المعركة..

عليه ان يذهب

وفي ٢٩ حزيران التقى رومل وفون روند ستيد مرة اخرى بهتلر في برستيد فادن، وكان هتلر محتداً، وتوجه الى رومل قائلا:

- كل شيء يتحسن لو انك صممت على القتال.

- وبواسطة سبيدل افهم رومل المتآمرين وضع هتلر النفسي وعند ذلك قرر هؤلاء تصفيته جسدياً؛ واختير الكولونيل فون ستوفنبرغ للتنفيذ، ولانه كان يستطيع الدخول الى "مقر الذئب" كان عليه وضع حقيبة متفجرات بين اقدام هتلر، وبعد ذلك تبدأ عملية الانقلاب باعتقال او اغتيال الشخصيات النازية، ثم يتولى المتآمرون السلطة بتشكيل حكومة مؤقتة، وعند هذه المرحلة يستدعى رومل الذي كان سيقبل دون شك وستتم العملية في العشرين من تموز.

في السابع عشر من تموز، اتم رومل كعادته يومياً جولته على جبهة النورماندي، وتوجه الى القيادة العامة في "سيب ديتديش"، وفي الرابعة بعد الظهر غادر القيادة للالتحاق بقيادته الخاصة لان العدو اخترق احد المواقع.

في السادسة كانت سيارة الماريشال بالقرب من "ليفارو"، وفجأة ظهرت طائرتان تتجهان نحو السيارة، اسرع السائق وحاول الدخول في شارع صغير لكنه لم يستطع، لقد اصبحت الطائرة الاولى التي كانت تحلق على علو منخفض فوق السيارة وفتحت نيرانها فاصابت السيارة من الجهة اليسرى واصيب رومل بجروح في وجهه نتيجة تطاير شظايا الزجاج، لقد اصطدم بالحاجز بقوة واصبح خارج السيارة فاغمي عليه على بعد عشرين متراً.

نقل رومل بعد ٤٥ دقيقة الى مستشفى حيث قام طبيب فرنسي بتضميد جروحه واعلن ان امله بالحياة ضئيل، لقد وجدت ثلاثة كسور في دماغه، احدها في القاعدة والاثنان الاخران على الجوانب.

.. ولم تصدق نبوءة الطبيب الفرنسي، فبعد ايام كان رومل في وضع صحي لا بأس به... وسمح بنقله الى المستشفى العسكري في /فيستبه/ قرب باريس.

ومنذ الثالث والعشرين من تموز اصبح بامكان رومل الجلوس على السرير واعلن خسارة الحرب، وفي الثاني من آب امر على الانتقال الى منزل في "هرلينكن"؛ كان لا يريد ان يقع وهو مصاب اسيراً بين يدي العدو، وتابع علاجه في المانيا، وما اذهل زوجة رومل هو ان احداً من زعماء الرايخ او من القيادة العليا لم يتصل للاطمئنان عن صحة زوجها، اذن كانت يد هتلر وراء كل ذلك.

اما "ستولبانجيل" فقد اشترك في المؤامرة بنشاط ظاهر، لقد اعطى اوامره باعتقال افراد

"الجستابو" في باريس وبعد العشرين من تموز، استدعى الى برلين، ولكونه كان يعرف المصير الذي ينتظره، فقد توقف في "فردان" حيث قاتل عام ١٩١٤ – ١٩١٨ واطلق رصاصة في رأسه ولكنها لم تقتله، وعندما استرجع قواه فاقد البصر، تفوه بكلمة "رومل".

وقام الطبيب الجراح بكتابة تقريره الى الجستابو في باريس، وبعدها عذب ستولبناجيل وشنق، وفوق ذلك وجدت لدى بعض المعتقلين اوراق تثبت ان رومل سيصبح قائداً للرايخ فور تصفية هتلر.

علامات الموت.

واشتد الخناق على رومل، اعتقل الجنرال سبيدل، ووجه رومل رسالة احتجاج الى هتلر شخصياً، ولكن دون جواب وبقي سترولينى احد القلائل الذين لم يعتقلوا، وجاء لرؤية رومل، وتكلم الرجلان بصوت منخفض خوفاً من وجود اجهزة تجسس، بعد ايام زاره مايير وهو رئيس قسم الحزب في مقاطعة اولم، وتكلم رومل بصراحة.

في السابع من تشرين الاول اتصل الماريشال "كيتل" برومل طالباً منه التوجه الى برلين في العاشر من الشهر من اجل مقابلة هامة، مساء التاسع سيكون قطاره الخاص بانتظاره، واستشار رومل طبيبه البروفسور "البريخت"، الذي أفاد بأنه من غير الممكن القيام برحلة كهذه، واتصل رومل بكيتل ولكن جاءه الرد من الجنرال بورغوروف وهو مسؤول العلاقات الشخصية في الجيش.

تقول زوجة رومل: كنت في الغرفة عندما طلب زوجي من بورغوروف بأن يقول للماريشال كتيل بأن الاطباء يمنعونه من الانتقال بسبب حالته الصحية، وطلب معرفة الامر الهام واذا امكن ارسال ضابط لدراسة الموضوع، وجاء رد الجنرال بورغوروف بأن الفوهرر طلب من الماريشال كيتل الاجتماع به لمعرفة ما سيفعله مستقبلاً.

وفي الثالث الثالث عشر من تشرين الاول اتصلت القيادة العامة في شتوتغارت واعلمت رومل بأن الجنرال بورغوروف ومع الجنرال مايزل يصلان ظهر الغد.

في اليوم التالي وصل ابنه "مانفريد" بقطار السادسة صباحاً وكان في اجازة، وجد والده واقفاً، وتناولا الفطور معاً، ثم سارا جنباً الى جنب بين اوراق الشجر المتساقطة، وتكلم رومل عن الزيارة التي ينتظرها.

سأل مانفريد: – هل يأتيان من اجل مركز جديد؟

اجاب رومل: هذا ما قالاه لي.

لم يستطع مانفريد اخفاء شعوره بأن والده مهموم، ويبدو ان الماريشال حاول المستحيل



لاخفاء ذلك، وتكلم مع ابنه عن مستقبله، لم يكن يتمن له الاستمرار في الحياة العسكرية، كان يريده طبيباً.

وفي الحادية عشرة دخلا المنزل.

تمام الثانية عشرة، وصل رسولا هتلر، بورغوروف ومايزل، كيف يمكن ان يتجاهل انهما ايضاً رسولا القدر، وبناء لطلبهما البقاء مع رومل دون شهود قادهما الماريشال الى غرفة في مدخل المنزل وهنا بقيا وحدهم حوالي الساعة.

جئت لتوديعكم

عندما انفتح الباب ودخل رومل الى الردهة متوجهاً للاجتماع بزوجته، كانت الزوجة منفعلة ووجدت على وجه زوجها ملامح القسوة والتردد وصرخت:

– ما بك؟ ماذا حصل؟ هل انت مريض؟

ونظر اليهما طويلا وصاح:

– جئت لتوديعكما، بعد ربع ساعة اكون ميتاً، انهم يتهموني بالاشتراك بمحاولة اغتيال هتلر، يبدو ان اسمي كان على لائحة "غورولير" كرئيس ممثل للرايخ، وانا لم اجتمع "بغورولير" طيلة حياتي، الفوهرر يترك لي الخيار بين السم والمثول أمام محكمة الشعب، لقد احضرا السم معهما ويقولان ان مفعوله يسري بعد ثلاث ثوان:

وصاحت زوجته بأن عليه المثول أمام المحكمة، كانت واثقة من مقدرته على انقاذ نفسه.

– كلا، انني لا اخشى المثول أمام المحكمة لانني استطيع تبرير كل مواقفي، ولكنني متأكد من عدم وصولي الى برلين وانا على قيد الحياة.

وفي هذه اللحظة دخل "مانفريد" الى الغرفة، واختصر رومل الموقف واعلن له انه سيموت، وودع ولده المنهار، وعندما خرج، استدعى "اولينفر" ضابطه المساعد من الغرفة المجاورة، وعندما حضر وعلم بما ينتظر قائده احتج قائلا:

– انني اتوسل اليك بأن تهرب، قد تستطيع بواسطة اسلحتنا النفاذ، لقد وجدنا انفسنا في ظروف اصعب من هذه ونجحنا.

وهز رومل رأسه.

– لا جدوى من كل ذلك يا صديقي، كل الطرق مقفلة بواسطة سيارات الاستخبارات السرية، لن نستطيع الالتحاق بقواتنا، الهاتف مقطوع، انني لا استطيع حتى الاتصال بمركز قيادتي.

– تستطيع على الاقل اغتيال بورغوروف ومايزل.

– انهما ينفذان الاوامر، ويجب علي التفكير في زوجتي وابني مانفريد.

ويروي بأن الماريشال شرح له كيف انهم وعدوه بعدم المساس بزوجته وولده ان هو اختار السم، سوف يدفع لهما تعويض شهري، اما هو فسيحتفل بجنازته كبطل وطني، وشرحا له حتى تفاصيل الشعائر والاحتفالات..



حادث صحي...

لقد تكلمت مع زوجتي واتخذت قراري. لن اقبل ابداً بأن يشنقني هذا الهتلر. اني لم اشترك ابداً بمحاولة الاغتيال. لقد حاولت فقط خدمة وطني كما فعلت طيلة حياتي؛ ولكن الان اعرف ماذا علي ان افعل. بعد نصف ساعة سيتصلون لابلاغكم بأن حادث اصطدام مريع حصل لي ادى الى وفاتي.

نزل رومل الدرج مع مانفريد والدينكر. كان الضابطان ينتظران في الحديقة أمام المنزل. تقدما باتجاه السيارة بينما توجه الميجور "الديكنر" للقيام ببعض "الترتيبات". صعد رومل في المقعد الخلفي للسيارة ثم تبعه يورغوف ومايزل... وانطلقت السيارة.

بعد ٢٥ دقيقة رن جرس الهاتف. رفع الدينكر السماعة. وكان على الطرف الآخر الميجور ايهرنكر الذي كشفت نبرات صوته انه كان مشدوهاً:

– الدينكر: لقد حلت كارثة. اصيب الماريشال بنزيف في الدماغ وهو في السيارة. لقد مات.

صمت تام من الدينكر.

– هل سمعت ما قلت؟

– نعم؛ سمعت.

– ارجوك اذن ابلاغ السيدة رومل بأنني سأحضر فوراً.

رفضت السيدة رومل استقبال ايهرنكر. اما الدينكر فقد توجه الى مستشفى او لم حيث شاهد الجثة.

بعد الظهر قاد الدينكر السيدة رومل وابنها مانفريد الى المستشفى حيث اخبرهم رئيس الاطباء بأن جثة الماريشال؛ احضرت الساعة الواحدة وخمس وعشرين دقيقة.

المنهج التاريخي عند الفقيه ابن العربي

د . احسان عباس

■ ابو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري (-٥٤٣هـ/١١٤٨م) اندلسي رحل الى المشرق مع ابيه وهو في السابعة عشرة من عمره، ودرس على ابي حامد الغزالي وغيره من علماء المشرق، ولما عاد الى الاندلس عين قاضياً ببلده اشبيلية، فكان شديداً صارماً في أحكامه، ثم صرف عن القضاء، فأقبل على نشر العلم، وله مؤلفات عديدة قيمة .

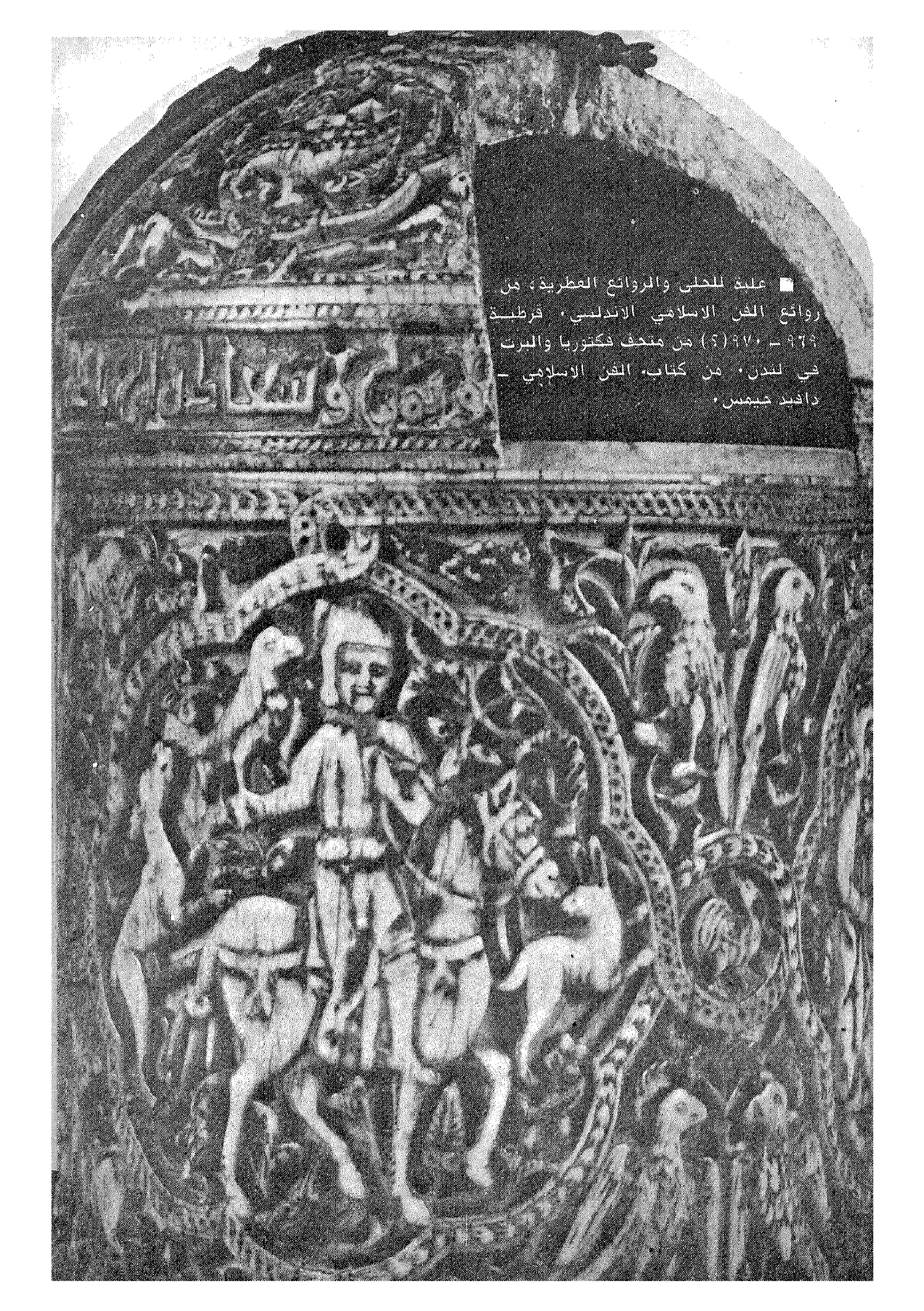
د . احسان عباس: استاذ الادب العربي في الجامعة الاميركية ببيروت .

لم يكن ابن العربي – فيما نصب له نفسه وسخر له علمه وكفاياته المتعددة – يدعي انه مؤرخ، ولكنه من موقف الفقيه الاشعري وجد نفسه يحاكم حقبة من التاريخ، تلتبس فيها الاحداث بالاحكام، وتصطرع من حولها التفسيرات المتعددة ليصبح كل تفسير منها منطلقاً لمجموعة من المعتقدات تتبلور من حولها الفرق المختلفة. وبما أن الاشخاص الذين تدور حولهم أحداث تلك الحقبة ذوو "منزلة خاصة" فان الاختلاف حول تفسير تصرفاتهم قد ادى – وما يزال يؤدي – الى تباين، لا في الرؤية التاريخية وحسب بل في المواقف العقائدية أيضاً. وتلك الحقبة تمتد من مقتل عثمان الى مقتل الحسين، وقد ارتبطت اسئلة عديدة من مثل: هل نفى عثمان أباذر الغفاري الى الربذة؟ هل قتل عثمان مظلوماً؟ هل تخلى الصحابة عن نصرته؟ هل كان معاوية "جاداً" في المطالبة بدمه؟ الى عشرات من الاسئلة التي تتناول ما دقّ وما جلّ من احداث تلك الفترة. فماذا يمكن ان يقول فقيه ابتعد عن تلك الاحداث – مكاناً وزماناً – حين يتصدى للاجابة عن تلك الاسئلة، وهو محكوم منذ البداية بمنهج فقهي كلامي صارم في النظر الى التاريخ؟ واسرع الى القول بأن ليس ابن العربي فريداً – في سياق تاريخنا – باتخاذ هذا الموقف، فلعل تاريخ الحقبة المذكورة كتب – وما يزال يكتب – من منظور مسبق، ومن رجحان افراد على سواهم في الميزان الديني والاخلاقي لدى من يكتب ذلك التاريخ، واذن فنحن ازاء حقبة يعسر تناولها من زاوية "الاسباب الفاعلة" و"النتائج" المترتبة على تلك الاسباب. وقد كانت رؤيتها بوضوح عسيرة ايضاً على كثير ممن عاصرها، وما صمت الصامتين عن الحكم على الاشخاص المتصارعين في تلك الحقبة، واعتزال من اعتزل، وجهر جماعات بالارجاء الا تعبير عن تلك الحيرة. ومع كل ما بذله ابن العربي من جهد في بناء منهج صالح – في رأيه – لالقاء الاضواء الكاشفة على تلك الفترة التاريخية فانه يعود في النهاية ليوجه نداءه الى الجماهير قائلا: "عرجوا عن سبيل الناكثين الى سنن المهتدين، واياكم ان تكونوا يوم القيامة من الهالكين بخصومة اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد هلك من كان اصحاب النبي خصمه، ودعوا ما مضى فقد قضى الله ما قضى" (١). واول ما يدل عليه هذا النداء – وهو دعوة الى الصمت – شك ابن العربي نفسه في قدرة منهجه على أن يحيط بكل المشكلات التي تتصل بتلك الفترة، او أن يجد الاجوبة الحاسمة عنها، ويشفي من الحيرة والقلق ازاء رجالها واحداثها، وهو منهج ان حقق شيئاً جزئياً من ذلك فانه لا يصلح أن يكون اداة في يد كل واحد من الناس.

ينطلق ابن العربي في نظرته الى الروايات التاريخية من انعدام إيمانه بفئتين من الاخباريين هم المؤرخون والادباء "فانهم ينشئون أحاديث فيها استحقار للصحابة والسلف والاستخفاف بهم" ويخص بهجومه من المؤرخين ابن قتيبة ذلك الجاهل الذي "لم يبق ولم يذر للصحابة رسماً في كتابه الامامة والسياسة ان صح عنه جميع ما فيه" والمسعودي المبتدع المحتال فان ما رواه متاخم للالحاد، ومن الادباء المبرد في كتابه الادبي (يعني الكامل) والجاحظ الذي يدعوه كلما عرض ذكره بالشيخ المفتري. ومن المستغرب ان نجده يقول: "ولا تسمعوا لمؤرخ كلاماً الا للطبري" (٢). ووجه الغرابة هنا لا يتناول الثقة بالطبري نفسه، وانما لان ابن العربي كان يعرف ان الطبري ينقل عن رواة سابقين، وان في الروايات التي نقلها عن بعضهم ما قد يتعارض والآراء التي يعتقدها ابن العربي نفسه، فكيف يدعو الناس ليستمعوا الى روايات تبدو احياناً متعارضة ان لم نقل متناقضة، وبعض اصحابها لا يرتفعون عن الهوى؟! ذلك غريب حقاً، وهو ما يجيز لنا أن نقول ان منهج ابن العربي منذ البداية، لا يبدو قائماً على نقد سليم او شامل للمصادر. وانما اوقع ابن العربي في هذا المأزق انه حين رفض المؤرخين الكاذبين دعا للعودة الى الاخذ عن العدول، ولما كان الطبري عدلا في ذاته أجاز الاستماع إليه ونسي ان تاريخ الطبري روايات لا يسأل الطبري ازاءها عن مدى صلتها بالواقع التاريخي، وانما قد يسأل عن مدى تحكمه في اختيارها وحسب.

وهذه الدعوة الى الاخذ عن العدول مقنعة من حيث المبدأ، ولكنها مطلب مثالي، اذا كفلت له السلامة النسبية في الحديث، فليس ما يضمن كفالتها في التاريخ. وهي من حيث التطبيق دعوة تحدد مدى انطباق المنهج التاريخي الذي يرسمه ابن العربي، اذ ليست شهادة العدول متوفرة على مرّ الزمن فيما يتعلق بالاحداث، كما أن في عدالة الشخص الواحد خلافاً يصعب معه التوفيق أحياناً بين طرفيه المتباعدين، وهذا الواقدي – وهو الموثق عند المؤرخين – تتعارض فيه الاقوال حتى تكاد لا تلتقي، فهو عند بعض المحدثين متهم او ضعيف او ليس بشيء، وهو عند آخرين "أمين الناس على الاسلام" (اي على الاخبار في العهود الاسلامية) وهو أيضاً "امير المؤمنين في الحديث" (٣).

لهذا وجد ابن العربي انه ليس لديه – لتحقيق دعوته هذه – الا روايات قليلة اوردها البخاري والدارقطني وخليفة بن خياط، فرجحها على ما عداها. ولو كثرت لديه أمثال هذه الروايات لقدرنا أنه كان سيقيم – ولا بدّ – دراسة منهجية للمعارضة والمناقشة والتعليل والترجيح ولكنه لم يفعل – في الاغلب – لانه لم يكن يملك الادوات اللازمة لذلك عند كل قضية. فاختار احدى طريقتين – كلتاهما محفوفة بالخطر – وذلك أنه اما أن يلجأ الى الرفض



■ علبة للحلى والروائع العطرية، من روائع الفن الاسلامي الاندلسي. قرطبة ٩٦٩ ـ ٩٧٠ (؟) من متحف فكتوريا والبرت في لندن. من كتاب، الفن الاسلامي ـ دافيد جيمس.

المطلق للرواية دون ابداء الاسباب، واما أن يحتكم الى "منطق الاشياء" او "يستلهم الوجدان". مثال ذلك موقفه حين يدافع عن عثمان نافياً انه ضرب عماراً وابن مسعود، فيقول: "واما ضربه لعمار وابن مسعود ومنعه عطاءه فزور، وضربه لعمار افك مثله، ولو فتق امعاءه ما عاش ابداً. وقد اعتذر العلماء عن ذلك بوجوه لا ينبغي ان يشتغل بها لانها مبنية على باطل، ولا ينبني حق على باطل، ولا يذهب الزمان في مماشاة الجهال فان ذلك لا آخر له" . (٤) . وواضح من هذا أن حديثه عن ضرب ابن مسعود رفض للرواية جملة، وان نفيه لضرب عمار مبني على ما سميته "منطق الاشياء"، وقد يكون ما يقوله ابن العربي صحيحاً، ولكنه في نطاق المنهج المرسوم لا بدّ ان يكون مقنعاً حتى تتأكد صحته.

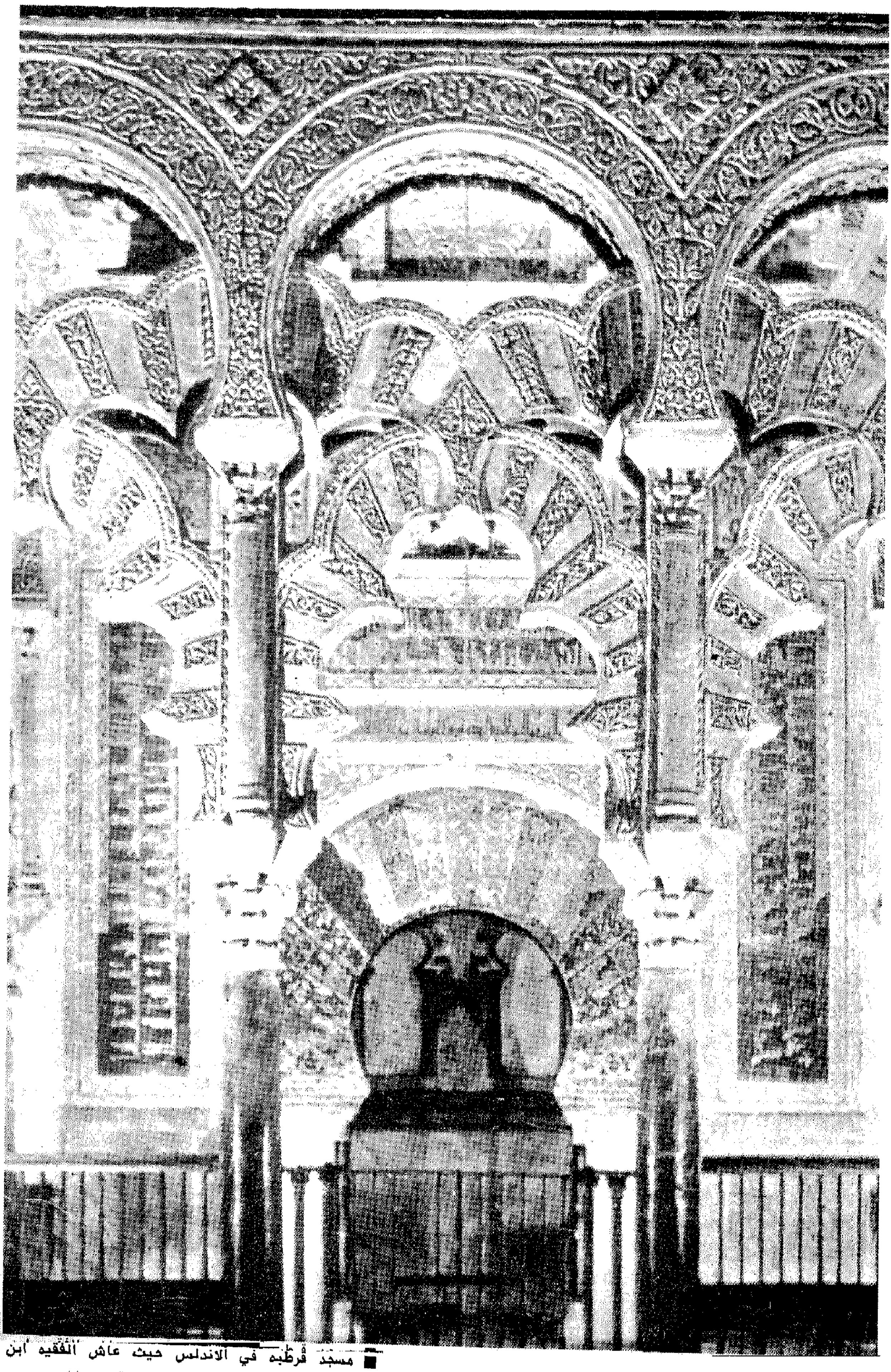
و"منطق الاشياء" هنا قد يعني مثلا ان عثمان كان شيخاً طاعناً في السنّ ليست لديه القوة البدنية التي تمكنه من ان يضرب شخصاً فيفتق امعاءه، وان الحدة التي تنسب اليه في أخريات ايامه لم تظهر لها بوادر في شبابه وكهولته ـ فالقضية معكوسة ـ وانه من المستبعد لرجل نشأ في ظل النبوة وتأدب بأدبها ان يعامل اصحابه واصحاب نبيه على هذا النحو الذي ترويه الروايات عن عثمان فتصوره جباراً غليظاً، ثم من المستبعد أن يضرب شيخ كبير أيضاً وتفتق امعاءه ويظل على قيد الحياة ـ في ظروف ذلك الزمان ـ الى غير ذلك من تعليلات لا يذكرها ابن العربي جميعاً وانما يوحي بمعظمها اطمئنانه النفسي الحاسم الى أن مثل هذا الفعل لا يمكن ان يصدر عن صحابي جليل كعثمان.

ومعنى ذلك أن "المنزلة الخاصة" ـ التي اشرت اليها من قبل ـ هي التي تتحكم في قبول الخبر او رده، وهنا يتسع معنى العدالة فلا يظل قاصراً على ما نقله اشخاص بأعيانهم مثل خليفة والبخاري والدارقطني وانما كل رواية تصبح معدلة، اي مقبولة، ما دامت لا تمسّ تلك المنزلة الخاصة بسوء. وفي مثل هذه الاحوال لا بأس من قبول روايتين هما ـ رغم تباينهما في الدلالة ـ اخف مساساً بتلك المنزلة من رواية ثالثة. وموطن الشاهد هنا ذهاب ابي ذر الى الربذة، فقد رفض ابن العربي الرواية التي تقول ان عثمان نفاه اليها، وذكر ان اباذر حين استقدمه عثمان الى المدينة جعل يدعو الى مثل ما كان يدعو اليه في الشام من الحث على عدم كنز الاموال (وما اريت زكاته في رأي ابن العربي لا يعد كنزاً) فقال له عثمان: "لو اعتزلت" اي كأنما قال له: "انك على مذهب لا يصلح لمخالطة الناس، فان للخلطة شروطاً وللعزلة مثلها. ومن كان على طريق ابي ذر فحاله يقتضي أن ينفرد بنفسه، او يخالط ويسلم لكل أحد حاله، مما ليس بحرام في الشريعة" (٥). هذه هي الرواية الاولى التي قبلها ابن العربي اعني قول عثمان لابي ذر "لو اعتزلت" فامتثل ابو ذر اشارته واعتزل، ثم ما لبث ابن العربي ان قبل رواية أخرى وهي أن ابا ذر عاد الى المدينة فاجتمع عليه الناس فقال لعثمان: اريد الربذة، اي اختار هو نفسه العزلة. وهناك فرق اصيل بين أن يوحي عثمان الى ابي ذر بالعزلة ويحضه عليها وبين ان يختارها ابو ذر من تلقاء نفسه، ولكن ابن العربي لا يعير هذا الفرق ادنى اهتمام ما دامت الروايتان تقفان في وجه رواية ثالثة تؤكد ان عثمان نفى ابا ذر الى الربذة.

ومن الانصاف لابن العربي ان اقول ـ استطراداً ـ انه كان يدرك اهمية ما يدعو اليه ابو ذر حين يقول: "وحال ابي ذر افضل، ولا تمكن جميع الخلق" وانه لم يأت برواية اختيار ابي ذر للعزلة من عند نفسه، وانما هي رواية اوردتها المصادر التاريخية. جاء في انساب الاشراف: "ويقال ان عثمان قال لابي ذر حين قدم من الشام: قربنا يا ابا ذر خير لك من بعدنا، يُغدَى عليك باللقاح ويراح، فقال: لا حاجة لي في دنياكم، ولكني آتي الربذة، فأذن له فأتاها" . (٦) . وتحدث بشر بن حوشب بقصّة نفي ابي ذر الى الربذة الى سعيد بن المسيب، فأنكر سعيد ان يكون عثمان اخرجه وقال: "انما خرج ابو ذر اليها راغباً في سكناها" (٧). الا ان ابن العربي يوحي ـ لعدم مناقشته الروايات او نسبتها الى مصادرها ـ بأنه يحتكم الى الترجيح بين حالتين دون اعتماد لبحث او تمحيص.

ومن الطبيعي ان يجعل ابن العربي تلك "المنزلة الخاصة" محوراً في منهجه، لانه مهتم في المقام الاول بأقامة "سنة"، وغايته من وراء التحقيق التاريخي ـ ان صح ان نسمي عمله تحقيقاً ـ هو جلاء تلك السنة. فالصحابة لم يتخلوا عن عثمان، ذلك ما يحاول ان يثبته بشهادة النقل والعقل، وانما هو الذي طلب اليهم الكفّ وعزم عليهم الا يشهروا سلاحاً للذود عنه، والقى بيده الى المصيبة واستسلم، "وامر عثمان كله سنة ماضية وسيرة راضية" حتى ان ابن العربي نفسه اختار ذات يوم ان يستسلم اقتداء بعثمان، فقد كان قاضياً شديداً على المنكر، حريصاً على ازالته، مما اغضب بعض الغاصبين والفاسقين، فتألبوا عليه ومشوا الى داره وحاصروه، فأمر كل من حوله ان لا يدافعوا عنه، "وخرجت الى السطوح بنفسي فعاثوا علي، وامسيت سليب الدار، ولولا ما سبق من حسن المقدار لكنت قتيل الدار" . (٨) .

ولأهمية الهدف الذي يسعى اليه ابن العربي لم يحس انه يطرح منهجاً ضيقاً تتحدد فيه قدرته على النقد. ومما زاد في بعده عن مثل هذا الاحساس اعتماده على ذكائه. فميزة منهج ابن العربي الكبرى ليست في ذاته ـ دائماً ـ وانما في شخصية صاحبه، وهي شخصية تتمتع بشيئين بارزين ـ الى جانب فضائل اخرى كثيرة ـ وهما اتساق الموقف والذكاء النافذ.



■ مسجد قرطبه في الاندلس حيث عاش الفقيه ابن العربي . . وهو من آيات الفن الاسلامي في القرن العاشر .

فمن اتساق الموقف ـ وهو موقف سني اصلا لا ينفرد به ابن العربي ـ انه حين تنعقد البيعة لامام ما ـ وان كان مفضولا ـ فكل ثائر عليه خارج على البيعة، خاضع لقول الرسول ـ كما رواه مسلم ـ :"انها ستكون هنات وهنات، فمن اراد ان يفرق امر هذه الامة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائناً من كان" (٩) . وقدوته في هذا السبيل ابن عمر، فانه حين ثار أهل المدينة على يزيد قال ـ فيما رواه البخاري ـ: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة، وانا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، واني لا اعلم غدراً اعظم من ان نبايع رجلا على بيع الله ورسوله ثم ننصب له القتال" (١٠) . وهذا الاتساق في الموقف قد وضع ابن العربي في موقف شديد الحرج ـ وخاصة في تفسيره لمقتل الحسين ـ ولكنه لم يبال بذلك لانه كان يؤمن بسلامة الجماعة ايماناً لا يتزعزع.

وأما الذكاء النافذ فانه حاضر في معالجة صغار الامور وكبارها: فالحديث "انت مني بمنزلة هارون من موسى" لا يدل على خلافة، لان العارفين يعلمون ان هارون توفي قبل موسى (١١) . وطلحة لا يمكن ان يقول: "بايعت واللج على قفي" (أي والسيف على قفاي) لان "قفي" لغة هذيل وطلحة قرشي (١٢) . ومن كبار الامور قضية التحكيم، وقد ادرك ابن العربي ان الرواية الشائعة حول هذه القضية اشبه بفصل مسرحي مضحك، ولذلك سماها "سخافة"، وان ابا موسى الذي كان موضع ثقة الرسول وثقة عمر في الولاية والقضاء لا يمكن ان يكون ابله ضعيف الرأي، وان المغالاة في وصف عمرو بن العاص بالدهاء انما تمثل طرفاً في تلك المعادلة، والحق الذي لا مرية فيه عند ابن العربي ان عمراً عزل معاوية، وذلك ما تؤكده، رواية للدارقطني عن حصين بن المنذر (١٣) .

ان قصة التحكيم تلفتنا الى الحقيقة الاولى في منهج ابن العربي، وهي ان نعيد طرح الاسئلة عن تلك القضايا ـ دون ملل ـ حتى ولو عجزنا عن اجابتها، والا ظل النقد التاريخي لدينا منهزماً أمام الاساطير المسلية . ولا يعيب ابن العربي ان يجانبه التوفيق احياناً في الاجابة عن بعض الاسئلة ، كما حدث له ـ واكتفي بمثال واحد ـ حين القى هذا السؤال: لماذا ذهب طلحة والزبير وعائشة الى البصرة؟ يقول ابن العربي ـ ومقدماته مقدمات المؤرخ الدقيق ـ :"اما خروجهم الى البصرة فصحيح لا اشكال فيه، ولكن لأي شيء خرجوا؟ لم يصح فيه نقل، ولا يوثق فيه بأحد لان الثقة لم ينقله، وكلام المتعصب غير مقبول، وقد دخل مع المتعصب من يريد الطعن في الاسلام واستنقاص الصحابة" (١٤) ثم يفترض ثلاثة احتمالات لخروجهم:

١ ـ اما انهم خرجوا خلعاً لعلي بعد ان اتضح لهم وجه من الحق لم يكن واضحاً قبل البيعة، وهذا احتمال ضعيف "لان الخلع لا يكون الا بنظر من الجميع وبعد الاثبات والبيان" .

٢ ـ واما انهم خرجوا ليتمكنوا من قتلة عثمان، وهو ايضاً احتمال ضعيف،لأنهم لا يستطيعون طلب قتلة عثمان قبل تأليف الكلمة .

٣ ـ ويبقى الاحتمال الثالث المقبول وهو انهم "خرجوا لينظروا في جمع طوائف المسلمين وضم نشرهم وردهم الى قانون واحد حتى لا يضطربوا فيقتتلوا" . ولكن مصلحة أهل الاهواء غلبت، وتبادر الناس الى القتال. ولا نريد ان نسأل ابن العربي اي الطوائف التي كانوا يريدون جمعها؟ بل نقول ان هذا التعليل قاصر عن الوفاء بتفسير اختيار البصرة دون سواها، واذا كان تأليف الكلمة هو الغاية من الخروج فلم الخروج اصلا وقد كانت المدينة احسن ساحة من البصرة للاجتماع والائتلاف، واذا كانت نيتهم الحرب فما هي ميزة البصرة على غيرها اهي صلاحية الموقع للقتال أم وجود الاتباع والمسانديـن أم وفرة المرافق الاقتصادية؟

ان حدة الذكاء تكسب المنهج حيوية وتهجم به على منافذ ومداخل جديدة، ولكنها لا تستطيع ان تنقذ، مما يعانيه من مكبلات اولية، بل لعل الذكاء كثيراً ما يخضع لقيود المنهج وخاصة حين تكون تلك القيود الزامية وافدة من خارج المنظور التاريخي. فابن العربي المحدث قد يقنعنا بقبول الرواية ذات السندالقوي ورفض ما هو واهي الاسناد مثل الحديث المنسوب الى الرسول "ايتكن صاحبة الجمل الاديب التي تنبحها كلاب الحوأب" ولكنه لا يتصور ابداً ان يتردد في قبول ماصح عنده من حديث مع انه كان يعلم ان "الصحيح من حديث النبي كنقطة من بحر" (١٥) ولو كان مؤرخاً يملك نظرة شمولية لوجد أن اغراق هذه الفترة ـ رجالا واحداثاً ـ بالنبوءات أمر يحتاج الى تأمل طويل. في مقدور المؤرخ أن يتساءل ـ دون ان يباشر بالقبول او الرفض ـ: لماذا اجتمعت كل هذه الاحاديث مثل: "لتقاتلنه وانت ظالم له" (للزبير)، "تقتلك الفئة الباغية" (لعمار)، "يخرج من ضئضىء هذا قوم يمرقون من الدين... (في ذي الثدية) الى غير ذلك من احاديث كثيرة؟ ولماذا سلطت على هذه الفترة دون غيرها؟ ثم يستطيع المؤرخ ـ لا المحدث ـ أن يتساءل: هل من الممكن ان يكتب التاريخ في ظل الاخبار بالمغيبات؟

وفي مثل هذا المنهج الذي يجعل الرواية المعدلة او المحتملة هي الاولى بالاخذ والتصديق لا بد من تقدير ـ باديء ذي بدء ـ لمحتوى الرواية، ثم لا بد من اتخاذ هذا المحتوى شاهداً على العلاقات التاريخية، فقد قبل ابن العربي رواية تقول ان عثمان وقع للثائرين على مطالبيهم وهي: "ان

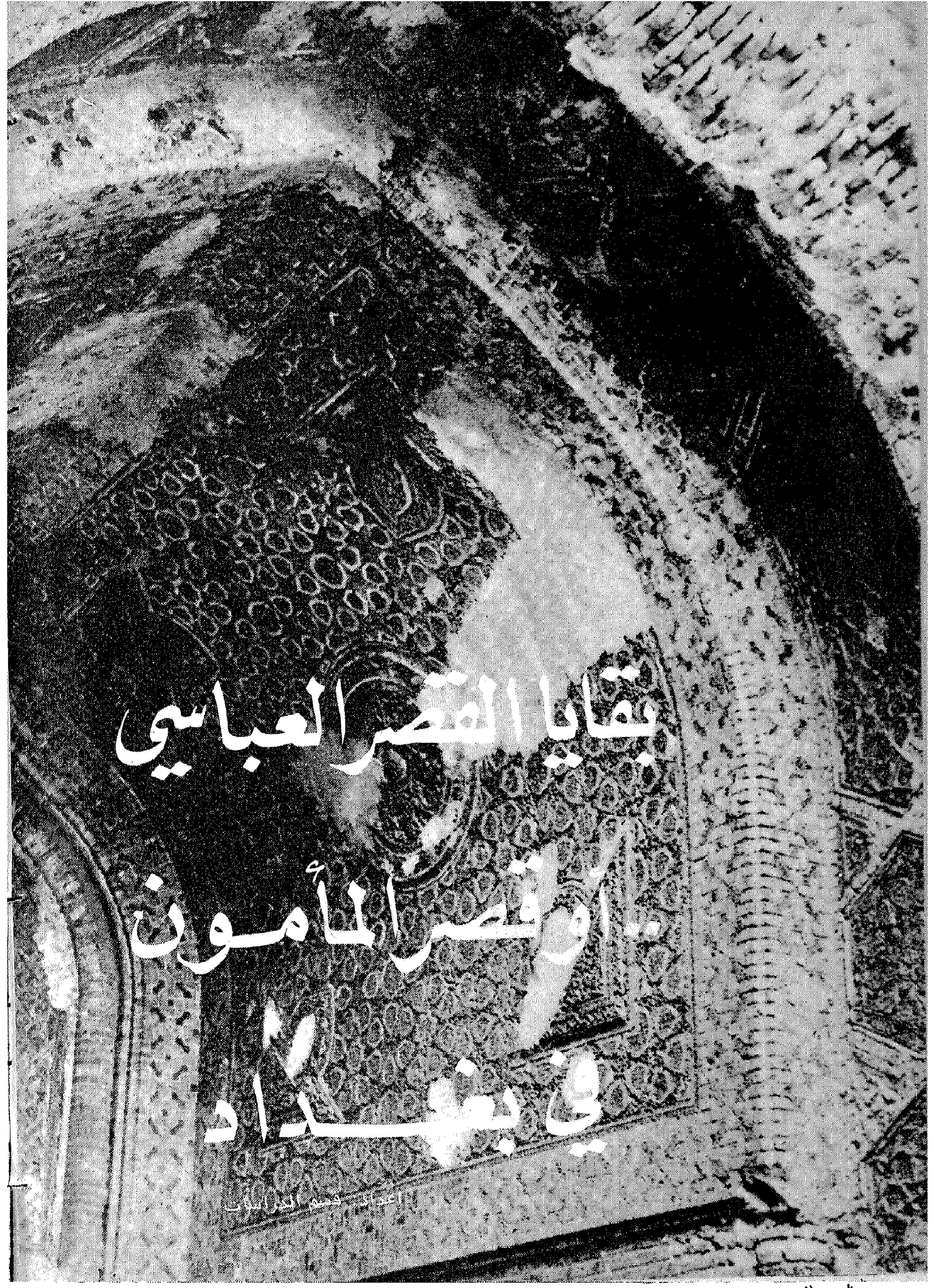
المنفي يقلب (اي يرد) والمحروم يعطى، ويوفر الفيء، ويعدل في القسم، ويستعمل ذو الامانة" (١٦) وهذا هو معنى رواية ابي مخنف كما اوردها البلاذري: "ان لكم ان اعمل فيكم بكتاب الله وسنة نبيه: يعطى المحروم ويؤمن الخائف ويرد" المنفي ولا تجمّر البعوث ويوفر الفيء..." (١٧) ويعني هذا الميثاق ان هنالك مطالب محددة للثائرين، وان اقرار عثمان بها اعتراف منه بوجود منفي يحتاج الى رد" ومحروم بحاجة الى عطاء، وحاجة الىالعدل في القسمة وتوفير الفيء، ولو لم تكن هذه مطالب محددة لوسع عثمان ان يقول لهم: "ان ما تطلبونه دعوى لان كل شيء جار بما يؤكد زور مطالبيكم". واقوىتلك المطاليب ـ كما لا بد ان نلاحظ ـ تتصل بأمور اقتصادية تجعل للثورة اسباباً مرتبطة بواقع الحياة. وهنا يعترض الفرض المسبق دون ذكاء ابن العربي فيمنعه من التنبه الى ما قد يقع فيه من مغالطة، ذلك انه رغم قبوله لهذه الرواية يجعل اسباب الثورة على عثمان الاحقاد الفردية، "ممن طلب امراً فلم يصل اليه، وحسد حسادة اظهر داءها، وحمله على ذلك قلة دين وضعف يقين وايثار للعاجلة على الآجلة (١٨). وقد يحسن ان يقال في هذا الصدد: ان الاحقاد لا تتولد من ذاتها في فضاء، وانها ـ ان وجدت ـ لا تمثل مرحلة اولية ـ ثم لا تمثل تياراً عاماً ـ في الخروج على عثمان، الا ان تكون صدى تابعاً لاحقاد قوم آخرين وجهوا "الدعاية" ضده واحكموها، حتى صار الاتباع ـ الذين يصفهم ابن العربي بدناءة القدر ـ يرددون ما يقوله سادتهم.

وقد اضاف ابن العربي ـ من موقف الفقيه ـ قيداً آخر الى منهجه حين احتكم في رؤية التاريخ الىأحكام فقهية لاحقة مثل: "ان البيعة تتم" بواحد او اثنين" او "انتهمة الطالب للقاضي لا توجب عليه ان يخرج عليه" (كما حدث في مطالبة معاوية بدم عثمان وخروجه عليه)، وغير ذلك منأحكام، فهذه لا تفسر سياق التاريخ ولا تضيف شيئاً الى حركته، واستغلالها في التسويغ والتقليل يحجب عن عيني الدارس الحال الاجتماعية والنفسية والاقتصادية لدى المشاركين في احتجاج او فتنة او ثورة او منافسة، كما يطمس ارتباط هذه الامور كلها بالمرحلة المدروسة.

هل يمكن ان يقال بعد كل ذلك ان ابن العربي لم يفعل شيئاً سوى انه اضاف الى المواقف الجدلية، موقفاً آخر، وهل يمكن ان يقال ان هذه الفترة بالذات ستظل اعسر من ان يقتحمها المؤرخ، الا ان يكون مسجلا وحسب للاحداث؟

تعليقات

١ ـ العواصم من القواصم (الجزء الثاني من آراء ابي بكر بن العربي الكلامية، تحقيق عمار طالبي، الجزائر ١٩٧٤): ٤١
٢ ـ العواصم: ٤٧٣ ـ ٤٧٤
٣ ـ ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب ٩: ٣٦٣ ـ ٣٦٨
٤ ـ العواصم: ٣٨١
٥ ـ العواصم: ٣٨٤ ـ ٣٨٥
٦ ـ البلاذري انساب الاشراف (ط. القدس، ١٩٣٦) ٥٣:٥
٧ ـ انساب الاشراف ٥٥:٥
٨ ـ العواصم: ٤٠١
٩ ـ العواصم: ٤٥٥
١٠ ـ العواصم: ٤٤٩
١١ ـ العواصم: ٤٣٠
١٢ ـ العواصم: ٤٠٣
١٣ ـ العواصم: ٤١٨ ـ ٤٢٠
١٤ ـ العواصم: ٤٠٦
١٥ ـ العواصم: ٤٩٦
١٦ ـ العواصم: ٣٩٥
١٧ ـ انساب الاشراف ٥: ٦٤
١٨ ـ العواصم: ٣٩٣



بقايا القصر العباسي .. أو قصر المأمون في بغداد

اعداد: قسم الدراسات

منظر جانبي

عهد بناء القصر

الى اي عهد يرجع تاريخ بناء هذا القصر المهم ؟

ليس لدينا - مع الاسف - معلومات اكيدة عن هذه القضية ،

لان كتب التاريخ المعلومة ، لم توضح مواقع القصور وتقسيماتها بالضبط اللازم ، كما انه لا يوجد في القصر كتابة واحدة تدل على تاريخ بنائه ، او على واقعة من الوقائع التي حدثت فيه ، ولم يظهر بين انقاضه ايضا ، شيء مكتوب ، سوى قطعة آجر مكسورة ، كتب عليها - بين زخارف زهرية - (ذلك في) ان قسم التاريخ من هذه الكتابة مفقود ، كما ان شكل الزخرفة التي عليها تدل على انها متأخرة عن البناء ، فلا سبيل لمعرفة تاريخ البناء ، سوى الاستدلال من الموقع ومن طراز الزخرفة والبناء ،

لقد اصطلح الناس على تسمية القصر ، باسم "قصر المأمون" غير انه لا مجال للشك في انه ، متأخر عن عهد المأمون كثيرا ، لان الاشكال الزخرفية المعلومة في عهد المأمون ، وفي العهود التي تليه ، بعيدة جدا عن زخارف هذا القصر ، فان قصور الخلفاء في سامراء كانت مزينة بزخارف جبسية ، مع انها كانت مبنية بالآجر ، فلا شك في ان القصر الموجود في القلعة احدث من قصور سامراء باجمعها ،

كما انه لا مجال للشك في ان انواع الزخرفة المشهودة هناك مما لا يمكن ان تتكون عن طريقة زخرفة الآجر مباشرة ، بل انها من الاشكال التزيينية التي تولدت من استعمال مواد زخرفية اخرى - كالاحجار والاخشاب - والتي انتقلت منها الى الآجر ، بعد تكاملها ،

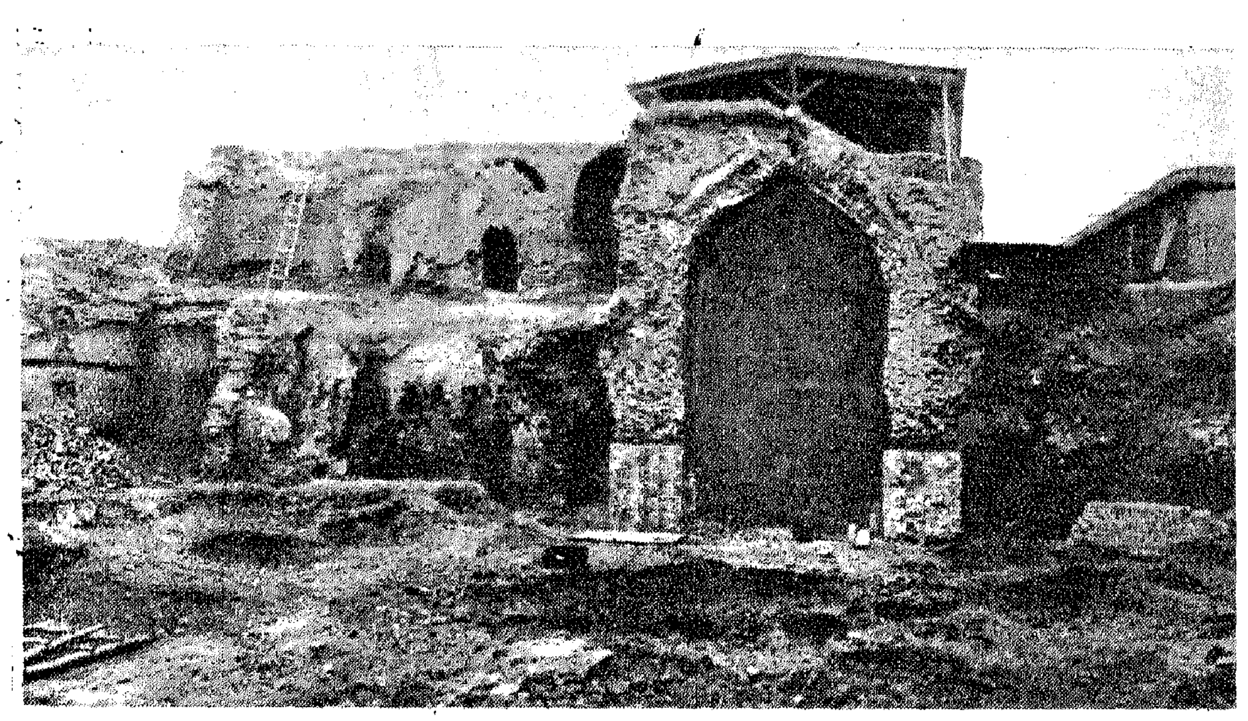
وبهذا الاعتبار ، يسوغ لنا ان نجزم بان بناء القصر يعود الى اواخر العهد العباسي ، لا اوائله ، وانه لا يتقدم على تاريخ بناء المستنصرية بكثير من عقود السنين ،

ولا يستبعد أن يكون - والحالة هذه - من المباني التي شيدت في عهد الخليفة الناصر لدين الله ،

داخل قلعة بغداد ، في الزاوية الجنوبية الغربية منها ، ايوان قديم مزخرف ، من بقايا قصر عباسي ، يعرف بين الناس باسم "قصر المأمون" ،

يتصل هذا الايوان من طرفيه بسلسلة من الغرف والقاعات والمجازات ، وتتعامد هذه السلسلة ، في الجهة اليسرى من الايوان ، بسلسلة ثانية ، تنتهي بمجاز مزخرف وحجرة مزخرفة ، تفوق زخرفتها سائر الزخارف الموجودة في الايوان ،

غير ان هذه الحجرة المزخرفة - مع مجازها البديع - كانت محرومة من المنافذ ، وكان لا يدخلها النور الطبيعي الا من الثلمة الحادثة في سقفها المتضعضع ، ولهذا السبب ، كان الوصول اليها يستلزم اجتياز دهاليز مظلمة طويلة ، مجهزة



منظر مأخوذ بعد رفع المباني المستحدثة (الجبهة الشرقية)

ببعض الفوانيس والمصابيح. وأما تمييز انواع الزخارف التي تزين سقوفها والقسم الاعلى من جدرانها، فكان من الامور العسيرة جدا. ولذلك، فان البعض من العلماء القليلين الذين دخلوا اليها، وكتبوا عنها، اعتبروها كـ"سرداب" لا يتم الوصول اليه الا باجتياز بعض الانفاق التي تمتد "تحت الارض".

وبما ان دعامات وجدران هذه الحجرة المزخرفة، كانت متضعضعة جداً. كما ان قسما من سقفها كان قد انهدم فعلا، رأت مديرية الآثار في اواخر سنة ١٩٣٤، ان تقوم بالتعميرات اللازمة لصيانتها، واخذت تهدم بعض الاقسام من الجدران المتصلة بها، بقصد تقويتها. غير انها عندما هدمت احد هذه الجدران. رأت من خلفه بقايا مزخرفة، في منتهى الاتقان والبداعة. وعندما تتبعت اثارها، لاحظت ان سلسلة القبب التي تمتد بين هذه الحجرة والايوان تتصل بجدار مزخرف قديم، كما فهمت ان القبة الكبيرة القائمة في الجهة اليمنى من الايوان ايضا تستند على حيطان مبنية امام جدران مزخرفة قديمة.

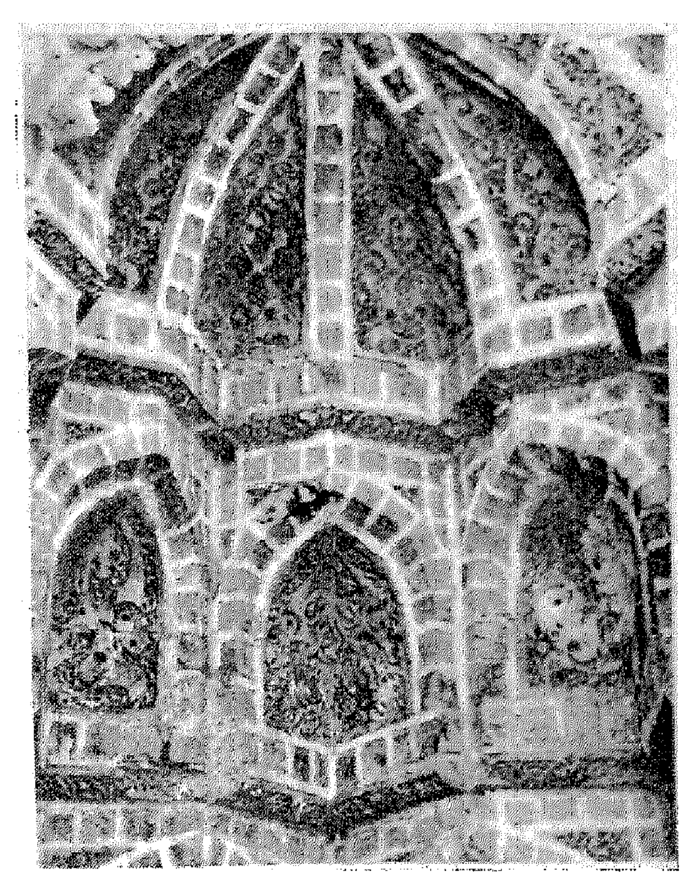
ولذلك، قررت هدم جميع الغرف والجدران المستحدثة، لاظهار الجدران القديمة وتقويتها، وباشرت في تنفيذ هذا القرار من فورها. كما رفعت جميع الانقاض المتراكمة، التي كانت قد كونت طبقة سميكة، لا يقل معدل سمكها عن المتر ونصف المتر في معظم اقسامها. وبعد ذلك حفرت بعض المحلات، فاظهرت بعض الاساسات العائدة الى الاقسام المتهدمة، فتوصلت بهذه الصورة الى معرفة مخطط القصر الاصلي وتقسيماته الداخلية، معرفة اكيدة.

كانت القلعة في العهد العثماني ثكنة للمدفعية، وهذا القسم منها كان مذخراً للعتاد الحربية. ولا شك في ان استعمال البناية لمثل هذه الغاية كان قد استلزم سد بعض الابواب والمنافذ القديمة، تارة بالآجر والجص، وطورا بالآجر والطين ، واستحداث بعض الابواب والمنافذ عن طريق ثقب الجدران القديمة، تارة بصورة منتظمة، وطورا بصورة غير منتظمة ـ كما كان استلزم تشييد بعض الجدران والقبب الجديدة ـ بعضها مستند على اساسات قديمة، وبعضها مشيد على اسس جديدة فتشابك "القديم" و"الحديث" في البناية تشابكا عجيبا، فتباعد المجموع عن هيأته الاصلية تباعدا كبيرا.

فقد تبين خلال اعمال الصيانة التي قامت بها دائرة الآثار القديمة، ان المباني الموجودة كانت محصول ثلاثة ادوار اساسية، تفصل بين الاول والاخير منها مدة لا تقل عن سبعة قرون:

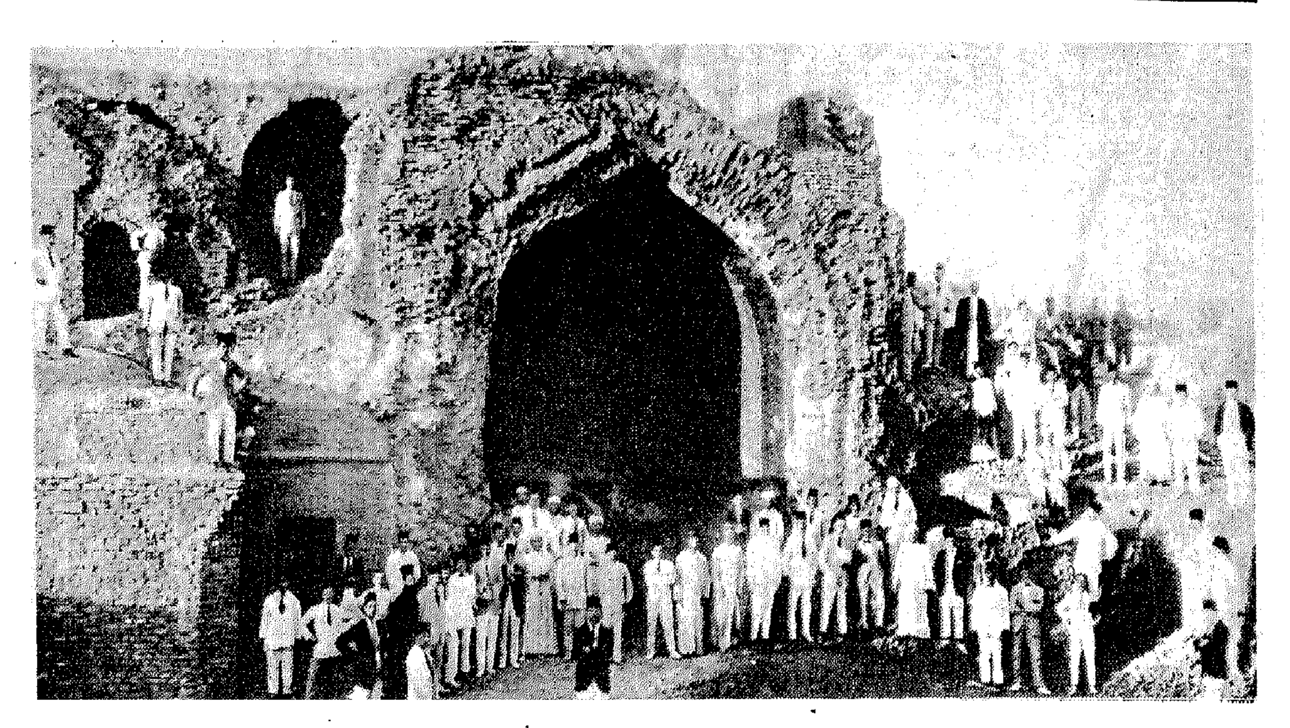
(أ) الايوان وغرف وقاعات القصر الاصلية.

(ب) البرج المستحكم الذي شيد ـ على ما يظهر ـ بعد شيوع استعمال المدافع، والالات النارية.



تفاصيل زخارف الرواق

تفاصيل الزخارف



منظر عام الايوان (سنة ١٩٢٣)

(ج) المخازن والغرف والقبب التي اضيفت الى بقايا القصر في العهد العثماني، بعد التنظيمات العسكرية.

فقد هدمت دائرة الآثار جميع الاقسام المستحدثة في الدور الاخير. غير انها حافظت على البرج المستحكم، لانها تأكدت من ان بنايته قديمة ايضا، ولو كانت احدث من بناية القصر. كما لاحظت انه مشيد بصورة مستقلة عن القصر، دون ان يغير من تقسيماته واجزائه الاصلية شيئا.

ان رفع الجدران المستحدثة، وتتبع اساسات الجدران المتهدمة، اظهرا بكل وضوح، ان القسم الامامي من الايوان كان ينتهي ببابين جانبيين، وان هذين البابين كانا يتصلان برواق مزخرف طويل، يدور حول الصحن، وينتهي بالحجرة المزخرفة القائمة الى الآن، والتي كانت تظهر كسرداب مظلم قبلا.

وخلال ترميم جدران هذه الحجرة المزخرفة ورفع الرقع المستحدثة فيها، ظهر في الجهة الشطية منها بقايا فتحة قديمة، لم يعرف في بادىء الامر فيما اذا كانت في الاصل محل باب او شباك، لانها كانت متصلة بجدار حديث متين، يحمل احدى القبب الكبيرة العائدة الى المباني العسكرية المستحدثة التي كانت لا تزال تحت استعمال الجيش فعلا.

فقد استحصلت الدائرة على موافقة وزارة الدفاع على هدم القبة مع الجدران التي تسندها، بالرغم من متانتها، واستفادة الجيش منها. وبعد الهدم، تبين لها بان الفتحة المذكورة كانت بابا، وان الباب المذكور كان مدخل القصر، من جهة الشط. فالداخل الى القصر من هذا الباب، كان يجد نفسه امام "ما بين" مزخرف، فكان يستطيع ان ينتقل من الما بين الى القاعات الخلفية، او الى الرواق المحيط بالصحن، كما كان يستطيع ان يصل الى الايوان نفسه، تحت ظلال هذا الرواق.

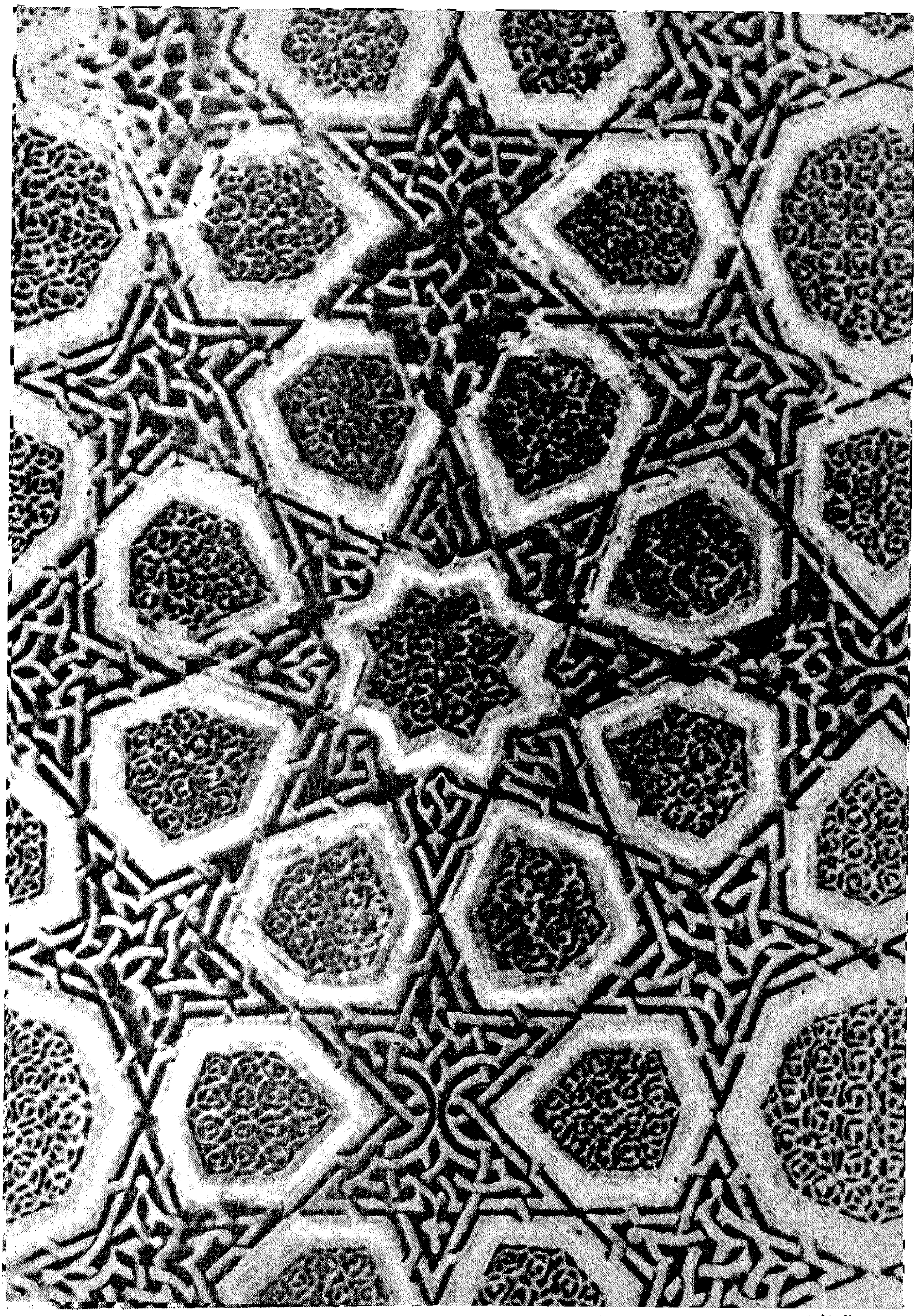
تقسيمات القصر

١ ـ الايوان

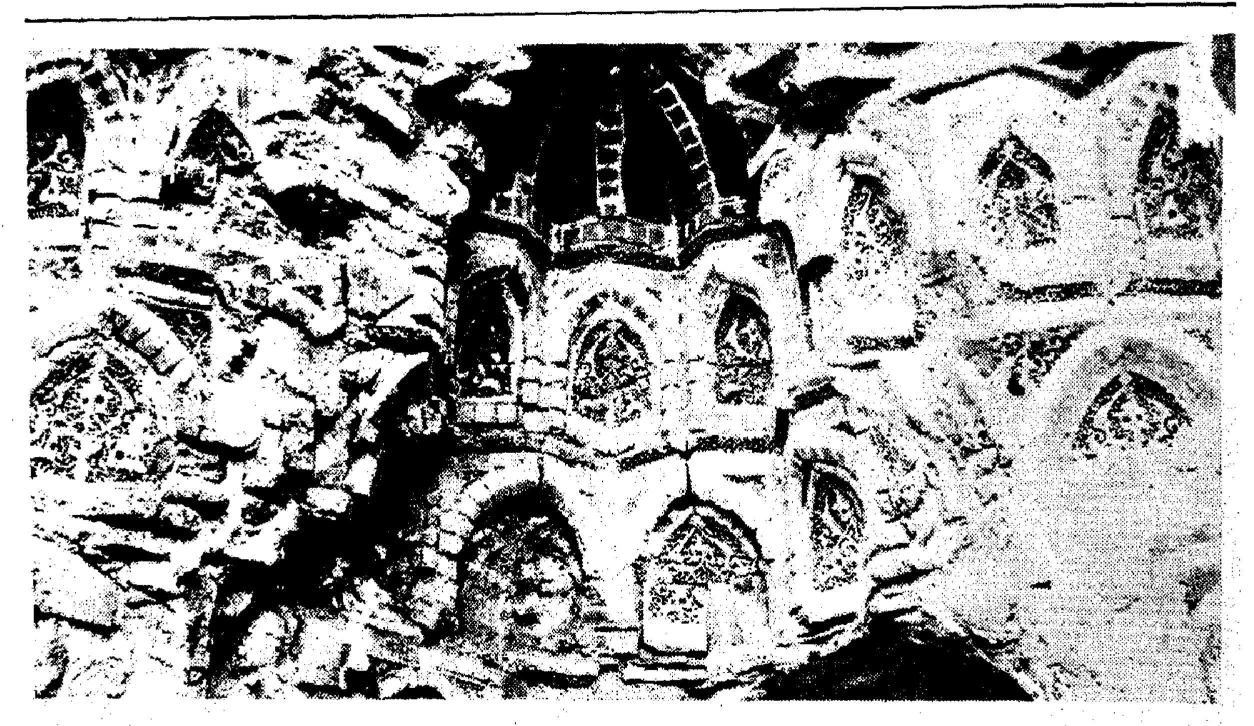
ان ابرز واهم اقسام القصر، هو "الايوان"، وهو بمثابة "قاعة كبيرة" مفتوحة من جهتها الامامية فتحة تامة. يبلغ عرض هذا الايوان نحو خمسة امتار، وطوله ثمانية امتار ونصف، واما سقفه البيضي، فيرتفع عن الارض اكثر من تسعة امتار.

والقسم الاعلى من جدران هذا الايوان مستور بزخارف بديعة، حتى اعلى السقف. غير ان القسم المزخرف من الجدران يبرز عن اسفلها على شكل افريز جميل، يبدأ من علو ثلاثة امتار ونصف.

كما ان القسم الامامي من جداري الايوان يرجع الى الوراء، نحو اربعين سنتمترا على طول متر واحد، وهذا القسم المتراجع يصعد على طول السقف، فيكوّن امام الايوان نطاقا منخفضا، مزخرفا بزخارف خاصة، يزيد في جمال المجموع زيادة بارزة.



تفاصيل الزخارف



بقايا زخارف على جدران الرواق (في الزاوية الشرقية الجنوبية)

والزخرفة التي تستر هذا النطاق الامامي، تنزل الى ما تحت مستوى الافريز الذي ذكرناه آنفا، حتى تتصل بطاقين صغيرين، يعلوان بابين جانبيين، يكونان بمثابة قاعدتين لهذا النطاق المزخرف.

٢ ـ الصحن الرواق

ان فتحة الايوان البديع تتصل بصحن مستطيل قليلا، (طوله ٥ر٣١ وعرضه ٢٠ مترا). كان هذا الصحن محاطا برواق ذي طابقين، كانت تنفتح وراء طوق هذا الرواق ابواب الغرف، من ارضية وفوقانية. غير انه في بعض الجهات، يتحد الطابقان لتكوين قاعات مرتفعة، مثل الايوان.

ان اكثر الاقسام القائمة الان تقع في الجهة الجنوبية من القصر وتعود الى الضلع الجنوبي من الصحن، واما البعض منها فتقع في الجهة الشرقية منه.

٣ ـ الضلع الجنوبي

يتالف القسم الجنوبي من سبع غرف صغيرة (عرضها ٣٤ر٢ طولها ٨٠ر٣م)، وكان يعلو كل واحدة من هذه الغرف غرفة فوقانية، جدران وسقوف الاربعة منها لا تزال قائمة الى الآن.

واما الرواق الذي كان يتقدم ابواب هذه الغرف، فكان يستند على ثمانية اعمدة، يبلغ ثخن كل واحدة منها (١٥ر١) مترا، والفاصلة بين كل اثنين منها متران، والبعد بينها وبين جدار الغرف الامامي في الطابق الارضي (١٠ر١) مترا.

ان سلسلة هذه الغرف السبع، تنتهي في طرفيها بمجازين جانبيين (عرض كل منهما ٧٠ر١، طوله وارتفاعه ٨٦ر٤ امتار).

وهذان المجازان يتصلان بدهليز طويل ومرتفع، يمتد خلف سلسلة الغرف، متوازيا ومتناظرا للرواق الذي امامها (عرض الدهليز ٢٨ر١، طوله ٧٠ر٢٦، ارتفاعه امتار).

ويقوم خلف هذا الدهليز الطويل اربع قاعات كلها مرتفعات.

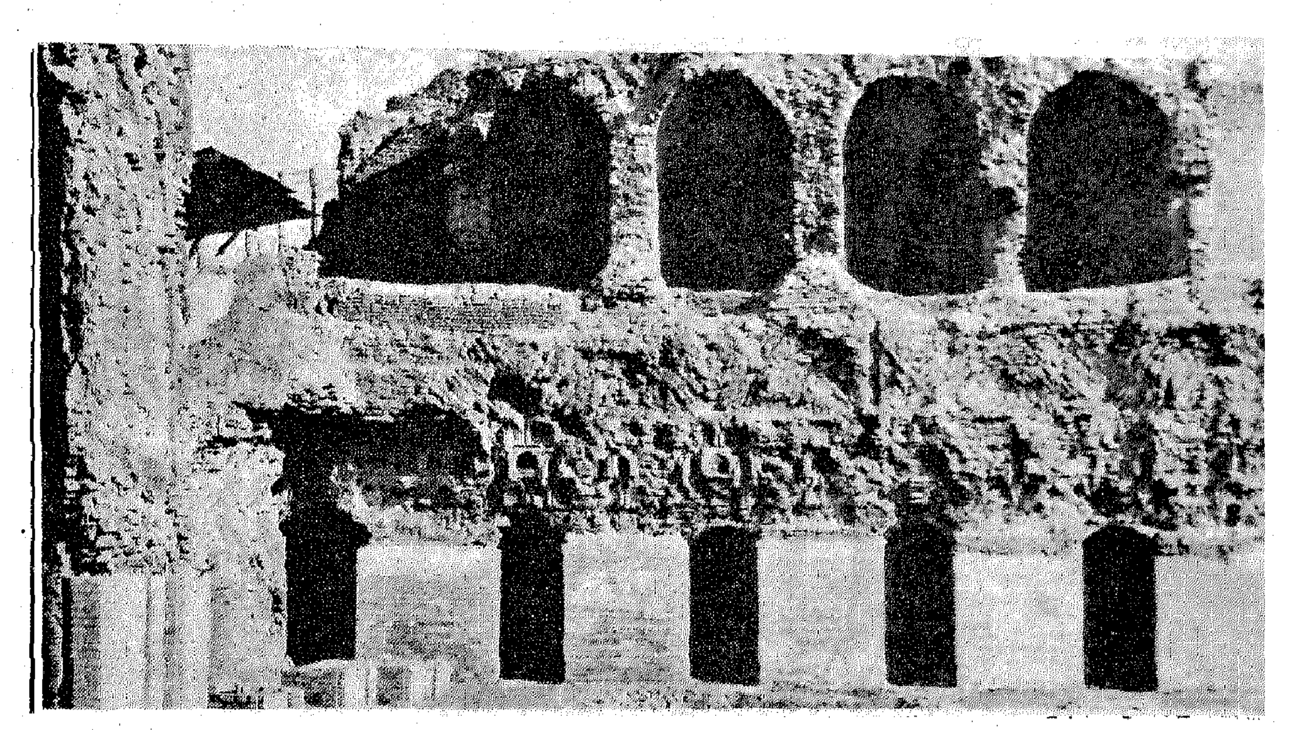
وعدا ذلك كله، فان المجاز الجانبي الذي يقع في الجهة الغربية من هذه الغرف، يتصل بدهليز مزخرف، ذي ثلاثة اضلاع، يحيط بحجرة مزخرفة، من جهاتها الثلاث. ولهذا الدهليز خمسة ابواب.

مواد البناء وطرز البناء

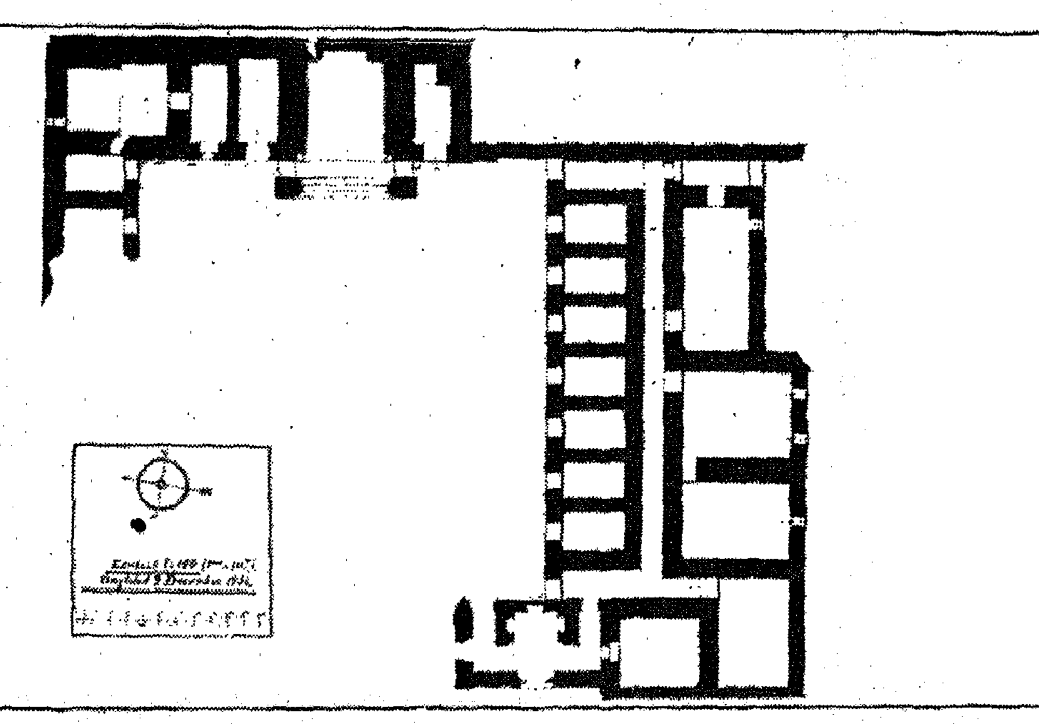
ان جميع اقسام البناء مشيدة بالآجر (الطابوق). حتى ان الطوق والسقوف ايضا معقودة بها.

وهذه العقادات مشيدة على احد الشكلين التاليين بوجه عام:

(أ) الشكل المعروف بين البنائين باسم "الدور"، والذي يشبه مقطع نصف البيضة.



منظر مأخوذ بعد أعمال التقوية والصيانة (الجبهة الجنوبية)



مخطط بقايا القصر بعد رفع المباني المستحدثة

(ب) الشكل المعروف بين البنائين باسم "المدني"، والذي يشبه مقطع سلة مسطحة القعر، مقوسة الجانبين.

ان سقف الايوان وسقوف المجازات كلها من النوع الاول. واما سقوف الغرف والقاعات، فجميعها من النوع الثاني.

ان اكبر الطوق المعقودة على الشكل الاول، يشاهد في الايوان. اذ ان هذا الطاق معقود على جدارين، يبعد احدهما عن الاخر نحو خمسة امتار.

واما اكبر السقوف المعقودة على الشكل الثاني، فيشاهد في قاعة اخرى الى جانبها، اذ ان سقف هذه القاعة، يعلو فوق جدارين، يبعد احدهما عن الآخر، نحو (٤,٥) امتار. واما عقود الابواب، فانها تجمع الشكلين بوجه عام. اذ ان كل باب يتألف من طاقين: الخارجي منهما على شكل "الدور" والداخلي منهما على شكل "المدني".

واما عقادات الرواق، فلا شك في انها ايضا كانت تجمع الشكلين: اذ كان يوجد امام كل باب قبة مقعرة، وكان يمتد بين كل قبتين متواليتين سقف مسطح منخفض. وكانت تتصل هذه القبب والسقوف، بطوق الابواب وجدران الرواق، بواسطة سلسلة من المقرنصات.

الزخارف

ان الزخارف التي كانت ولا تزال تزين جدران وسقوف بعض اقسام البناء ايضا مصنوعة من الآجر.

والدقة والكثرة التي تمتاز بها هذه الزخارف حملت بعض العلماء على الاعتقاد بانها مصنوعة من الجص والستوك، ومصبوبة بواسطة قوالب خاصة. غير ان التدقيقات الواقعة لم تترك مجالا للشك في ان هذه الزخارف كلها من الاجر بدون استثناء.

ان جميع تلك السقوف والسطوح والمقرنصات المزخرفة، تتكون من تلاصق قطع من الآجر، مختلفة الاشكال والحجوم، كل واحدة منها محفورة ومنقوشة

ان معظم قطع هذا الآجر الزخرفي مسطحة. غير انها تلتحم بعضها مع بعض بواسطة قطع رقيقة، تقع زخرفتها على ثخنها لا على سطحها العريض.

وكثيرا ما تبرز حافات هذه القطع الرقيقة عن سطوح القطع التي تقع بينها مما يجعل الزخارف كثيرة النتوء، كأنها محفورة في الخشب الى اعماق مختلفة.

وتكون هذه القطع في بعض الجهات منحنية السطوح، تقع نقوشها على سطوحها المقعرة.

والدقة المبذولة في هذه الزخارف - علاوة على تنوعها - تكسب هذا القصر، مكانة فنية خاصة، باعتبار زخرفة البناء.

توجد في اقطار العالم المختلفة، قصور كثيرة، عربية وغير عربية، مزدانة بزخارف بديعة، مصنوعة من الحجر او الخشب، مكونة من التجبسين او الزلاج (الكاشاني). غير انه لا يوجد قصر او معبد بلغت فيه "الزخرفة بواسطة الآجر" الى هذا الحد من "التنوع في الفروع مع البداعة في المجموع".

فيمكننا ان نقول: ان ما تبقى من القصر العباسي في بغداد، يمتاز بهذا الاعتبار عن جميع المباني المعلومة، في العراق وفي خارج العراق، فانها تعد من اهم المباني الاثرية، لانها ـ "الدرجة القصوى" التي وصل اليها فن البناء في "زخرفة الآجر".

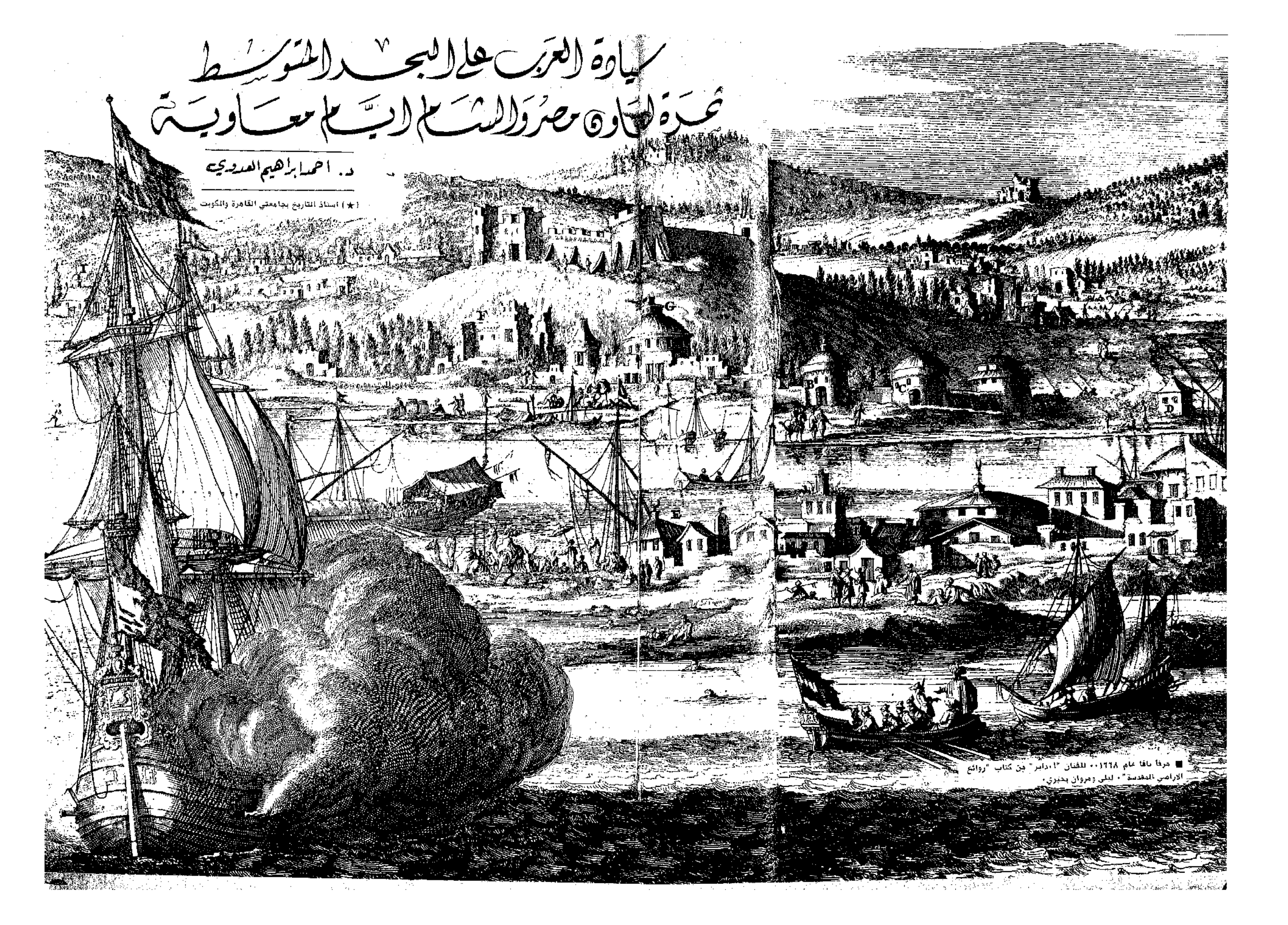
آراء في التاريخ

- حكاية معارك وأحداث تتعلق بالشعوب، خاصة، وبالانسانية، عامة .... "ليتريه"
- هو علم الأشياء المتميزة .... "ليبنيتز"
- هو علم الأشياء التي لا تعاد أبداً .... "ب. فاليري"
- هو التوفيق بين القوانين والصدفة .... "أ. شولجين"
- إن أولى أسس التاريخ كله، هي تلك الحكايات التي تنقل من الآباء الى الأبناء، ومن ثم، من جيل الى جيل آخر .... "فولتير"
- التاريخ الحقيقي ليس هو تاريخ وجود الجبهات أو عدمه، بل هو تاريخ الحضارة .... "ر. كروسيه" كيف نكتب التاريخ.
- التاريخ ليس فناً، انه علم صرف .... "فوستل دو كولانج"
- التاريخ ليس علماً سهلاً. ان الشيء الذي يدرسه معقد جداً: فالمجتمع البشري جسم، لا يمكننا ان نفهم وحدته والتناسق فيه الا بعد ان ندرس، تدريجياً وعن قرب، كل عضو فيه يعطيه الحياة .... "فوستل دو كولانج"
- التاريخ فن، وايضاً علم .... "تين"
- التاريخ ليس علماً، انه فن، لا ننجح فيه الا بالتخيل .... "أ. فرانس"
- التاريخ الحقيقي هو تاريخ العادات والشرائع والفنون وتقدم الفكر البشري ... . "فولتير"

سيادة العرب على البحر المتوسط
ثمرة تعاون مصر والشام أيام معاوية

د. أحمد إبراهيم العدوي

(★) أستاذ التاريخ بجامعتي القاهرة والكويت



■ مرفأ يافا عام ١٦٦٨ .. للفنان "أ. دابر" من كتاب "روائع الأراضي المقدسة" . ليلى ومروان بحيري.

البحر المتوسط
خط الدفاع البحري

يعتبر القرن السابع الميلادي نقطة تحول كبرى في تاريخ العرب السياسي والحضاري، اذ خرجوا في ذلك القرن من موطنهم الاصلي في شبه جزيرة العرب حاملين راية الاسلام الى جيرانهم من الامم. وقد بهر العرب أنظار العالم اذ ذاك بحماستهم الشديدة في نشر الدين الجديد، وسرعتهم الخاطفة في الاستيلاء على أهم بقاع العالم القديم، الممتدة من نهر الفرات الى وادي النيل.

على أن الدهشة التي أثارتها موجة الفتوحات العربية في القرن السابع الميلادي لم تلبث أن تضاءلت أمام ما أظهره العرب من وعي بحري ناضج في تلك الفترة المبكرة من تاريخهم السياسي، وقدرتهم على ركوب سفن البحار بنفس المهارة التي قادوا بها سفن الصحراء عبر الكثبان والرمال ولم ينل العرب تلك المكانة في عالم البحار عن طريق الصدفة أو تقدير المقادير، وانما وصلوا الى مصاف الامم البحرية الكبرى التي عرفها البحر المتوسط عن طريق التجارب المضنية وتجنب الاخطاء التي وقع فيها من سبقهم من أصحاب السلطان على شواطىء ذلك البحر.

وكانت تتردد في آذان العرب غداة استيلائهم على الشام ومصر في النصف الاول من القرن السابع الميلادي المحنة القاسية التي نزلت بالفرس بسبب اهمالهم لشؤون الاسطول في البحر المتوسط. ذلك ان الفرس كانوا قد استولوا على الشام ومصر سنة ٦١٤م أي قبل الفتح العربي لهذين القطرين بنحو عشرين سنة تقريباً، وتمادت بهم الآمال الى الاستقرار على شواطىء البحر المتوسط (١).

ولكن غاب عن الفرس أن الروم أصحاب السيادة على البحر المتوسط لن يغضوا الطرف عن أغنى أقاليمهم وهما الشام ومصر، وأنهم لا بد قائمون بحركة استرداد لمكانتهم في شرق البحر المتوسط. واستطاع الروم فعلا استعادة سيادتهم البحرية بفضل تقوية أسطولهم في البحر المتوسط، والاستفادة من أهمال الفرس لشؤون شواطىء الشام ومصر، وافتقارهم الى أسطول يحمي تلك الشواطىء كذلك.

وتجلت أهمية الأسطول لكل من يرغب في السيادة على البحر المتوسط وتدعيم أقدامه على شواطئه حين ظهر الامبراطور هرقل على مسرح دولة الروم، وأخذ يعبىء قواتها البحرية لطرد الفرس من الشام ومصر. اذ أعد الامبراطور هرقل حملة أقلتها سفن الروم من العاصمة "القسطنطينية"، وأبحرت مباشرة الى شواطىء الشام الشمالية. ثم نزلت قوات الروم في المنطقة الممتدة بين شمال الشام ومنطقة قليقية من آسيا الصغرى لتتجنب الاصطدام المباشر بقوات الفرس البرية، التي انتشرت طلائعها في آسيا الصغرى (٢).

وآتت سياسة هرقل البحرية ثمارها في انقاذ دولة الروم، واسترداد الشام ومصر في سهولة ويسر. اذ ظن الفرس أن نزول قوات الروم في شمال الشام مناورة حربية من هرقل لتطويق جيوشهم في آسيا الصغرى، ثم اندفاع تلك القوات مباشرة الى المدائن عاصمة فارس، والاستيلاء عليها في غيبة القوات الفارسية المبعثرة في بلاد شرق البحر المتوسط. ولذا سحب الفرس قواتهم على عجل من الشام ومصر، وعادوا الى بلادهم للدفاع عن عاصمتهم "المدائن". وسار هرقل في اثر القوات الفارسية مستعيداً سلطان بلاده على هذا الشطر الهام من البحر المتوسط بفضل حملة بحرية واحدة (٣).

ولكن قبل أن يسترد هرقل أنفاسه، وينعم بثمار انتصاره انطلق العرب سنة ٦٣٢م من شبه الجزيرة العربية حاملين راية الاسلام، واستولوا في سهولة وسرعة فائقتين على الشام ومصر. وبهذا الفتح العربي استهل البحر المتوسط صفحة جديدة من تاريخه الطويل. ذلك أن سيادة الروم البحرية وجدت في العرب منافساً خطيرا آذن بانتهاء اسمهم الذي لصق طويلا بالبحر المتوسط، حيث عرف أجيالا وقروناً عدة باسم "بحر الروم".

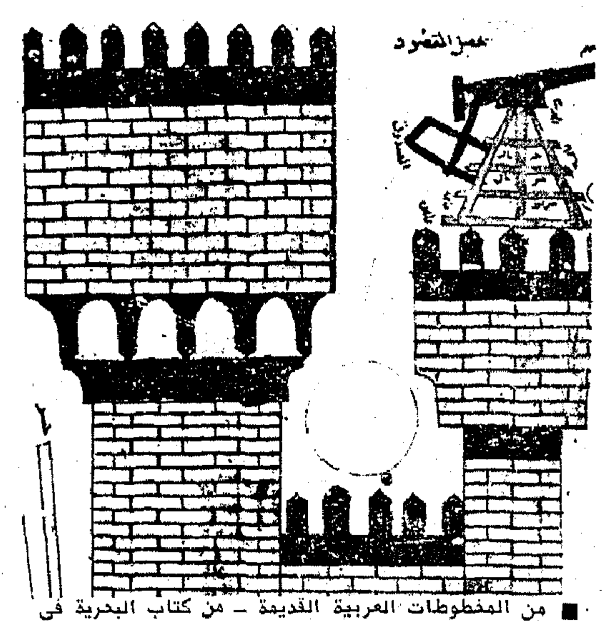
ويرجع الفضل في تجنب العرب للكارثة التي حاقت بالفرس الى سياستهم البحرية الواقعية، التي اتسمت بابتعادها عن الارتجال. ذلك أن العرب ما كادوا يسيطرون على شواطىء البحر المتوسط الممتدة من جبال طوروس شمالا الى حدود برقة غرباً حتى أحسوا عظم المسؤولية الملقاة على عاتقهم وضرورة تأمين تلك السواحل. فعمدوا أولا الى تحصين الثغور البحرية وكذلك الموانىء الهامة وغيرها من المدن الساحلية التي يمكن للعدو التسلل منها الى داخل البلاد.

ويمكن وصف تلك السياسة العربية بأنها سياسة بحرية دفاعية، تستهدف تأمين الفتوحات العربية في الشام ومصر. ذلك ان العرب لم يفكروا في ذلك الوقت المبكر من فتوحاتهم في ركوب البحر المتوسط، والاقدام على المغامرات البحرية التي لا يأمنون مغبتها. ولذا اكتفوا بوضع حاميات قوية في المدن الهامة مثل اللاذقية وطرابلس وصور وصيدا وعرقة وجبيل وبيروت على الشاطىء الشامي، وفي الاسكندرية وتنيس ودمياط والبرلس ورشيد على الشاطىء المصري، وفي ثغور بنطابلس أو المدائن الخمسة، وهي المعروفة اليوم باقليم برقة.

"وظل العرب أمناء على سياستهم البحرية الدفاعية، فكلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها ما تحتاجه من الجند، فان حدث في شيء منها حدث من قبل العدو سربوا اليها الامداد" (٤) وتجلت تلك السياسة البحرية وقدرتها على حماية الشام ومصر حين قام الروم بأشد غارة لهم على هذين الاقليمين سنة ٢٥هـ/٦٤٥م.

وكان الرأس المدبر لتلك الاغارة هو امبراطور الروم قنسطانز الثاني، الذي أراد أن يعيد بحملته البحرية قصة جده هرقل مع الفرس. اذ انتهز افتقار

العرب الى أسطول بحري، وعمد الى مفاجأتهم في الاسكندرية والاستيلاء عليها، وجعلها قاعدة لاخراج العرب من مصر. ثم ان قنسطانز توسع في خطته البحرية بارسال حملة أخرى تغير على شواطىء الشام في نفس الوقت الذي يهجم فيه أسطوله على الاسكندرية، حتى يحول الضغط على العرب دون التعاون فيما بينهم.



■ من المخطوطات العربية القديمة — من كتاب البحرية في مصر الاسلامية — د. سعاد ماهر

واستطاع عمرو بن العاص مطاردة الروم من شمال الدلتا وألجأهم الى الاسكندرية التي تحصنوا بها. واستماتوا في سبيل الاحتفاظ بها. وقد نصب الروم المجانيق على أسوار الاسكندرية، وأخذوا يمطرون العرب بوابل من القذائف. وعانت القوات العربية الكثير من المتاعب في حصارها للاسكندرية، واستبد الحنق بعمرو بن العاص حتى أقسم لئن استولى على المدينة ليهدم أسوارها وجعلها كبيت الزانية يؤتى من كل مكان (٦).

وكان السبب في قوة حركة مقاومة الروم بالاسكندرية هو وجود اسطولهم في مياه الاسكندرية، يزود المقاتلين بالعدة والعتاد، ويقف حارساً حامياً لظهورهم. ومن ثم طال حصار عمرو بن العاص للاسكندرية، وكان حصاراً أشق أضنى من حصاره الأول لتلك المدينة. ولم يتمكن من اقتحام المدينة الا بعد أن أرشده أحد المصريين الموالين للعرب الى أحد الابواب الضعيفة الحراسة، واعمل السيف في قوة الروم المقيمة بالاسكندرية، والتي خر قائدها مانويل نفسه قتيلا فيها. واستطاع الجند العرب كذلك مفاجأة سفن الروم في ميناء الاسكندرية وتدمير عدد كبير منها.

وفي نفس الوقت الذي هزم فيه عمرو بن العاص الروم بالاسكندرية كانت حاميات الشام العربية تقاوم اغارات سفن الروم على المدن الساحلية واستطاعت تلك الحاميات برغم قلة عددها أن تصد هجمات الروم وتنزل بها خسائر فادحة. وعندما جاءت الانباء بهزيمة الروم في الاسكندرية اقلعت السفن عائدة، بعد أن فشلت بدورها في مساعدة مانويل على الاستيلاء على مصر. وبذلك استطاع العرب القضاء على حملة الروم البحرية، ولكن بعد عناء وتضحيات جسيمة، جعلتهم يضعون سياسة جديدة لمواجهة أساطيل الروم (٧).

طليعة البحرية العربية

بعد انتصار العرب على الروم في الاسكندرية والشام قام نفر من زعماء العرب يدعو الى نبذ السياسة البحرية الدفاعية، لانها لم تعد كفيلة بالمحافظة على سلامة ممتلكاتهم، وأن مقتضيات الظروف تتطلب بناء أسطول عربي في البحر المتوسط يرد عن الشواطىء العربية غائلة الروم وهي في عرض المياه، قبل مفاجأتها للسواحل. وجاءت تلك الدعوة العربية عنواناً على أن قوة بحرية جديدة حان ميعاد ميلادها، وأن البحر المتوسط يشاهد في أمة العرب مظاهر تختلف تمام الاختلاف عن دولة الفرس.

وكان صاحب الدعوة الأولى الى بناء الأسطول العربي في البحر المتوسط هو معاوية بن أبي سفيان والي الشام، زمن الخليفة عمر بن الخطاب، ثم آزره في تلك الدعوة والي مصر عبد الله بن أبي سرح، الذي خلف عمرو بن العاص على ولاية تلك البلاد، في عهد الخليفة عثمان بن عفان. ويرجع السبب في سبق معاوية في الدعوة الى ركوب البحر المتوسط، الى التجارب القاسية التي مر بها أثناء فتح اقليم الشام، مما جعل سياسة العرب البحرية الهجومية تستند الى أسس سليمة وليدة الدرس والتمحيص (٨).

وتلقن معاوية الدرس الأول في أهمية البحر المتوسط وضرورة وجود أسطول عربي في مياهه حين اضطلع بعبء فتح مدن الشام الساحلية ذلك أن اخاه يزيد، أحد قادة العرب في الشام، قد استعصت عليه المدن الساحلية، لانها فضلا عن متانة حصونها ومنعتها كانت متصلة بالبحر مباشرة تتلقى منه الامداد من دولة الروم، وكذلك المؤن التي تضمن لها البقاء والمقاومة. ومن ثم ترك يزيد لاخيه معاوية مهمة اخضاع تلك المدن الساحلية وعاد الى دمشق (٩).

وجد معاوية أن خير طريقة للاستيلاء على مدن الشام الساحلية هو تشديد حلقة الحصار البري عليها، وانتهاز الفرصة المواتية لاقتحام اسوارها، لأن أسطول الروم يقف من خلف تلك المدن ويشد من أزرها. وتجلت سياسة معاوية ازاء المدن الساحلية الشامية حين اتجه الى فتح قيسارية وطرابلس الشام. وكانت المدينة الاولى قد استعصت على عمرو بن العاص نفسه، ذلك القائد الماهر الذي فتح منطقة فلسطين. اذ بعد مغادرة عمرو بن العاص فلسطين متجهاً لفتح مصر، سار معاوية الى هذه المدينة وضرب عليها الحصار.

وظل معاوية مثابراً في حصاره أمام مقاومة المدينة وعنادها، اذ كانت مثل سائر المدن الشامية الاخرى على الساحل تتلقى الامداد وآلات الدفاع من الروم عن طريق البحر، وصدت هجمات الروم

المتوالية. وظل معاوية على حصاره لقيسارية عدة سنوات حتى تمكن أخيراً من اقتحامها سنة ١٩هـ/٦٤٠م بفضل خيانة يهودي يهودي بهايدعى- يوسف. اذ أتى ذلك الرجل الى العرب ليلا ودلهم على طريق يمكن مهاجمة المدينة منه، بعد أن أخذ منهم أماناً لنفسه وأهله. ونجح معاوية بذلك في اقتحام قيسارية التي كان لسقوطها في يد العرب فرحة كبرى عند الخليفة عمر بن الخطاب (١٠).

وأظهر معاوية مهارة فائقة في فتح مدن الشام الساحلية حين قصد الاستيلاء على طرابلس الشام، اذ كانت تلك المدينة تعد ميناء دمشق ومفتاح حياتها الاقتصادية، ثم انها بزت سائر مدن الشام في حصونها ومنعتها، حيث تمتعت بميناء عظيم اتسع لعدد كبير من السفن. وامتازت طرابلس كذلك بأن البحر يحيط بها من ثلاث جهات، وتصل أمواجه الى أسوارها، على حين يحيط بسورها خندق عظيم. وزاد في منعة هذه المدينة وسهولة حصولها على الامداد وجود أربع جزر صغيرة تقع أحداها وراء الأخرى في مياه البحر القريبة منها (١١).

وجه معاوية الى طرابلس سفيان بن مجيب الازدي، ووضع خطة محكمة للاستيلاء عليها تتفق وافتقار العرب الى أسطول بحري في ذلك الوقت. وكانت تلك الخطة تهدف الى تضييق الحصار على طرابلس براً ومحاولة منع وصول الامداد اليها من سفن الروم. فبنى القائد الاموي حصنا في مرج يقع على أميال من طرابلس وضيق على أهلها الخناق. ولما اشتد الحصار كتب سكان المدينة الى امبراطور الروم يطلبون منه ارسال أمداد، أو أيفاد سفن يهربون عليها ولما لم يكن هناك مناص من التسليم، بعث امبراطور الروم بسفن حملت الجند في جنح الليل، وخلت حصون المدينة من المدافعين عن هذا الميناء الهام (١٢).

واذا كان معاوية بن أبي سفيان قد بذل في فتح المنطقة الساحلية من اقليم الشام جهوداً ذات "بلاء حسن وأثر جميل" كما شهد له بذلك قادة العرب في الشام، فانه خرج من تلك العمليات الحربية بنتيجة هامة، كانت السبب الرئيسي في بناء الاسطول العربي في البحر المتوسط. فقد أدرك معاوية أن بقاء العرب واحتفاظهم بممتلكاتهم في الشام ومصر رهن بالاستيلاء على جزر البحر المتوسط التابعة للروم، والتي كانت قواعد بحرية خرجت منها الامداد الى مدن الشام أثناء حصار العرب لها.

وبدأ معاوية يعمل على تحقيق أهدافه البحرية بعد أن انفرد بولاية الشام على عهد الخليفة عمر بن الخطاب، حتى غدت فترة ولايته على الشام الحجر الاساسي في صرح قوات العرب البحرية فيما بعد، وفاتحة المجد البحري العربي وتجلت الخطوط الرئيسية للبرنامج البحري الذي رسمه معاوية حين أرسل الى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه في غزو جزيرة قبرص، مبيناً شدة خطورة هذا المعقل التابع للروم على سلامة مدن الشام، اذ جاء في خطابه: "يا أمير المؤمنين في بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم، وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص (١٣)"، ثم ختم خطابه بعد هذا الوصف الدقيق المؤثر بطلب الاذن له بغزو تلك الجزيرة.

وأراد الخليفة عمر بن الخطاب ان يعرف آراء قادة المسلمين في طلب معاوية بغزو قبرص، ولاسيما أنه يحمل العرب على اقتحام ميدان البحر، وفيه مخاطرة تستوجب الدرس والروية، فضلا عن أن هذا الموضوع الذي أثاره معاوية موضوع جديد لا بد من عرضه على كبار رجالات العرب. ووقع اختيار الخليفة عمر بن الخطاب على عمرو بن العاص، والي مصر اذ ذاك، لما لهذه الولاية من شواطىء على البحر المتوسط مثل الشام، ولأنها كذلك تعرضت للاغارات البحرية التي شنها الروم على السواحل.

وجاء رد عمرو بن العاص وصفاً دقيقاً لطبيعة البحر وركوب مياهه، وما يلاقيه المرء في ذلك من صعاب. فكتب الى الخليفة: "أني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، إن ركن خرق القلوب، وإن تحرك أزاغ العقول... هم فيه كدود على عود إن مال غرق، وإن نجا برق (١٤)" ولذا لم يكن عجباً أن يؤثر الخليفة عمر بن الخطاب التريث في إجابة طلب معاوية بعد أن وقف على رأي عمرو بن العاص في البحر وراكبه.

وبذلك ظهرت عدة آراء إزاء ركوب البحر المتوسط، أحدها ينادي به معاوية، وهو ضرورة بناء قوة بحرية تدافع عن أرض العرب في الشام ومصر، والثاني ينادي به عمرو بن العاص، وهو تجنب المخاطرات البحرية. واعتنق الخليفة عمر بن الخطاب هذا الرأي الاخير لأنه آثر الوقوف على الحياد إزاء تلك المشكلة الخطيرة. وكان رائد الخليفة في اتخاذ هذا الموقف الحيادى هو الحرص على سلامة المسلمين، حيث قال لمعاوية في الرد على طلبه بغزو قبرص: "تالله لمسلم أحب الى مما حوت الروم (١٥)"

ولكن معاوية لم يكن بأقل من الخليفة حرصاً على سلامة المسلمين، وإنما كان أشد الولاة إحساساً بالخطر الذي يلوح في الأفق مهدداً ولايته بالشام وكذلك مصر، بسبب وجود أسطول الروم قريباً من شواطئهما، وافتقارهما الى وسائل الدفاع. وآثر معاوية أن ينفذ سياسته البحرية تدريجياً، جرياً على ما اتصف به من دهاء وحيلة، ولاسيما إزاء موقف كل من المعارضة والحياد اللذين ظهرا بصدد رغبته في الهجوم على جزيرة قبرص. فكتب معاوية مرة أخرى الى الخليفة عمر بن الخطاب يعرض عليه سوء حال سواحل الشام وما هي عليه من خراب وافتقارها الى وسائل الدفاع القوية.

ولم يتردد الخليفة عمر في أن يطلق يد معاوية لاصلاح حال السواحل بما يراه كفيلا بسلامتها من "مرمة حصونها، وترتيب المقاتلة فيها، وإقامة الحرس على مناظرها واتخاذ المواقيد لها (١٦)". واستغل معاوية هذا التصريح واتخذه خطوة أساسية يبنى عليها مشاريعه البحرية. فآثر أن يحصن المدن الساحلية ويزودها بالقوات المحاربة، بما يجعلها قواعد في المستقبل تنقل منها الجنود بحراً الى أي مكان يشاء.



■ جبل الكرمل ومرفأ حيفا، للفنان "أ.دابر" من كتاب "روائع الاراضي المقدسة". ليلي ومروان بحيري

ووضع معاوية للمدن الساحلية نظاماً عرف بالرباط، وهو يقصد به الأماكن التي تتجمع بها الجند والركبان استعداداً للقيام بحملة على أرض العدو. واعتنى معاوية بهذا النظام حتى أصبح جزءاً مرتبطاً أشد الارتباط بالجهاد أو الحرب المقدسة. ذلك أن الرباط اجتذب اليه كل الأتقياء المتحمسين، العاملين دائماً على إعزاز الاسلام ونصرته. وكان لهذه الظاهرة السالفة أثر كبير في تكوين القوات الأولى للبحرية العربية في عهدها المبكر.

وجاء اعداد الرباط عملا يتفق مع خطة معاوية البحرية، التي تستهدف تأمين السواحل أولا، واعداد قواعد بحرية للمستقبل ثانياً. فكان الرباط يضم حصوناً يتجمع فيها الجند للدفاع عن المناطق المعرضة لاغارات أساطيل الروم، ولتكون ملجأ كذلك يحتمي بها الاهالي في المناطق التي يدهمها العدو. وقد خصصت حاميات الرباط لانذار الأهالي في المناطق الساحلية بأن يأخذوا حذرهم اذا ما لاح خطر سفن الروم في المياه الاقليمية. فكان الحصن في الرباط يضم حجرات للجند ومساكن لهم ومخازن للأسلحة والمؤن، وبرجاً للمراقبة. غير أن الربط لم تلبث أن اتسعت وازدادت أهميتها، حتى صارت قواعد للهجوم البحري وشن الغارات.

واكتفى معاوية بسياسة تقوية السواحل حتى ولي الخلافة عثمان بن عفان، إذ خطا منذئذ خطوة ثانية في متابعة سياسته البحرية، وتشجيع الناس على النزوح الى المناطق الساحلية، لينمى عندهم ملكة ركوب البحار. وساعد معاوية على تحقيق خطته أن الخليفة أمر بمنح كل راغب في الاقامة بالمدن الساحلية اقطاعات من الأرض يستغلها ويتمتع بخيراتها. فترتب على ذلك ازدياد العمران بالسواحل، وانثيال الناس عليها للتمتع بامتيازات الاقامة بها، دون أن يأبهوا بمخاوف التعرض لاعتداءات سفن الروم. ومما ساعد على طمأنينة سكان السواحل أن معاوية أعد جيشاً ثانياً في المدن الساحلية للدفاع عنها الى جانب قوات الرباط، كما دأب على أخذ ارض من يتخلف عن الغزو، واعطائها للجند المقيم على حراسة السواحل أثناء الخروج للاغارة (١٧).

وتعتبر سياسة منح الاقطاعات بالسواحل الخطوة الاخيرة في سلم السياسة البحرية الدفاعية، التي رسمها معاوية قبل أن يستطيع ركوب البحر المتوسط في عهد الخليفة عثمان بن عفان. اذ أتم بفضل هذه الامتيازات اعداد القواعد البحرية التي أنشأ فيها أساطيله فيما بعد. وكانت آية ازدهار المدن الساحلية نقل جماعات من اهالي بعلبك وحمص وأنطاكية سنة ٤٢هـ/٦٦٢م الى صور وعكا وغيرها من المدن الساحلية (١٨). وكذلك أصلح معاوية الحصون البحرية، ولاسيما حصون عكا التي خرج منها بأولى حملاته البحرية ضد قبرص.

ومد معاوية اهتمامه الى سائر المدن الساحلية، فمنح الجند أراضي كذلك في أنطرسوس ومرقية وبلنياس، وأهتم اهتماماً خاصاً برباط عسقلان والجند الموكلين بحمايتها (١٩). وأخيراً جدد بعض الحصون في المدن التي خربت معاقلها القديمة، كما فعل في مدينة جبله. ومن ثم آتت سياسة الاقطاعات ثمارها، فعمرت الثغور البحرية لأن "الناس انتقلوا الى السواحل من كل ناحية (٢٠)"، على حد قول المؤرخين المسلمين.

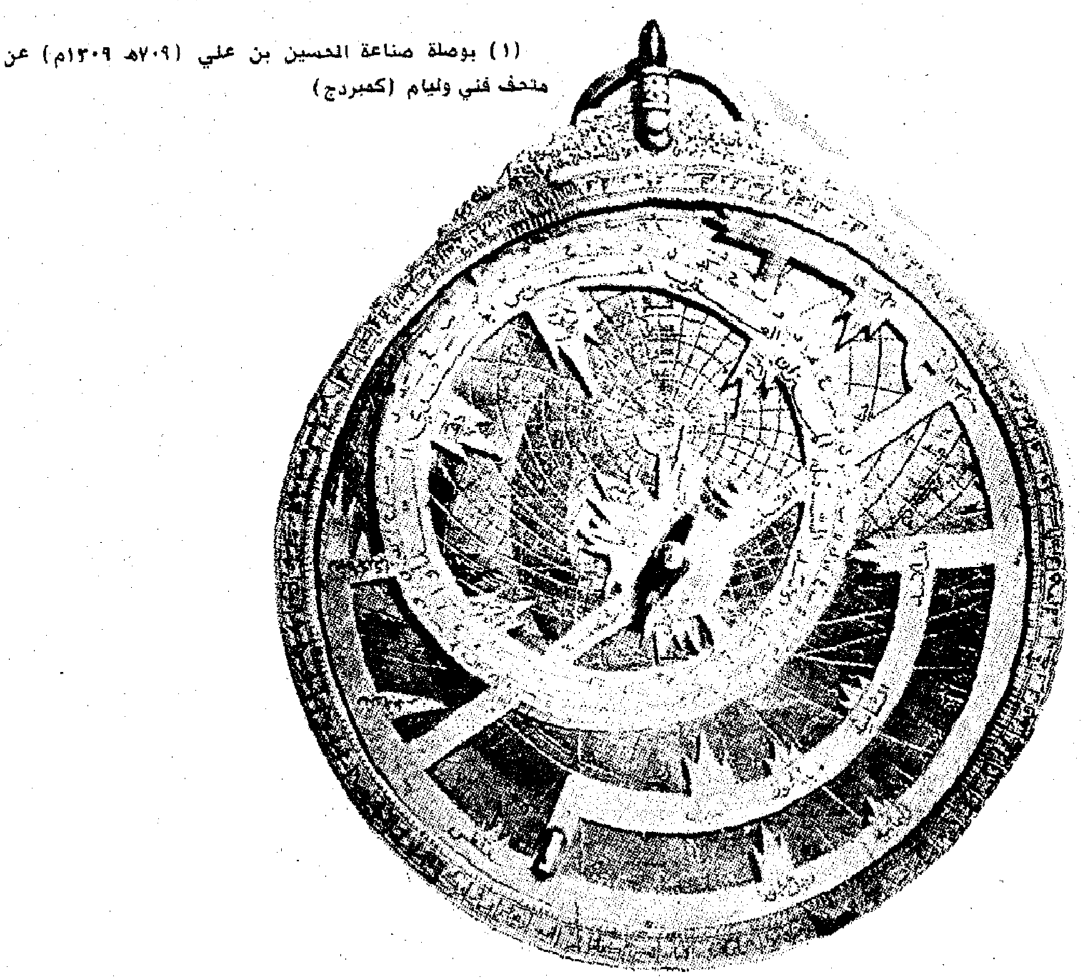
وجنى معاوية ثمار هذه السياسة التمهيدية حين استطاع أن يظفر من الخليفة عثمان بن عفان بتصريح يبيح له غزو قبرص، إذ سمح له الخليفة بالقيام بالغزو البحري على شرط الا يكره أحداً على ركوب البحر، وأن يعبىء أساطيله من المتطوعة فقط. ولم يلق معاوية عناء في اجتذاب الجند الذي أخذه معه في حملاته البحرية، اذ كانت المدن الساحلية عامرة بالمغامرين وغيرهم ممن ذاقوا ثمار الاقطاعات وامتيازاتها، وتطلعوا الى خوض غمار الميدان البحري تحت راية معاوية، مخلدين اسمهم في طليعة الحملات الاسلامية البحرية.

واذا كان لمعاوية الفضل في بناء السياسة البحرية التي غرست نواة القوات العربية في البحر المتوسط، فإن والي مصر زمن الخليفة عثمان بن عفان، وهو عبد الله بن أبي سرح، يعتبر الساعد الأيمن لمعاوية في مجهوداته لخلق هذه القوة البحرية. ذلك أن عبد الله بن أبي سرح خلف عمرو بن العاص على ولاية مصر، وبذلك اختفت شخصية عمرو الذي عارض في ركوب البحر.

وكان عبد الله بن أبي سرح من المتحمسين لبناء أسطول عربي في البحر الابيض المتوسط، ومن ثم وضع موارد مصر البحرية ورجالها في خدمة معاوية، والمساهمة معه في سائر الحملات البحرية التي أعدها لصد الروم. وبلغ من ايمان عبد الله بن أبي سرح بضرورة إنشاء أسطول عربي، أنه خرج بنفسه في الحملات البحرية، ليضرب المثل الأعلى لسكان ولايته على تفانيه في نصرة البحرية العربية.

وتعتبر مجهودات عبد الله بن أبي سرح الخطوة الايجابية في بناء قوات البحرية العربية في مياه البحر المتوسط. فإذا كان معاوية قد نفذ الخطوات التمهيدية لبناء السفن وشحنها بالمقاتلة من العرب وغيرهم، فإن عبد الله بن أبي سرح هو الذي بدأ بناء السفن الأولى التي تكونت منها نواة الاسطول العربي. ذلك أن مصر كانت أيام تبعيتها للروم، بل استيلاء العرب عليها، مشهورة بمهرة صناع السفن فيها، وكثرة دور الصناعة التي أخرجت الأعداد الوافرة من سفن الروم، فتابع عبد الله بن أبي سرح سياسة بناء السفن في مصر، وبعث بها الى الشام التي كانت خالية إذ ذاك من دور الصناعة.

وقد ساعدت العوامل الطبيعية على تعضيد التعاون البحري بين كل من معاوية والي الشام وعبد الله بن أبي سرح والي مصر. ذلك أن مصر فقيرة في أخشابها التي تصلح لبناء السفن على حين تكثر بالشام الاشجار التي تزود مصر ودور صناعتها بما تحتاجه من أجود الاخشاب. ومن ثم كانت مصر تستورد من الشام الاخشاب وتردها سفناً شامخة تعلي من راية العرب في قواعد الشام البحرية.



(١) بوصلة صناعة الحسين بن علي (٧٠٩هـ ١٣٠٩م) عن متحف فني وليام (كمبردج)

وظلت مصر وحدها مصدر بناء السفن العربية حتى سنة ٥٤٩هـ/٧٦٩م، إذ شن الروم في تلك السنة غارة شديدة على سواحل الشام. وكانت تلك الاغارة من العنف بحيث جعلت معاوية يفكر في انشاء دور لصناعة السفن بالشام نفسها الى جانب دور الصناعة بمصر، حتى يجد لديه أساطيل على أهبة الاستعداد إذا ما دمر العدو السفن الرابضة في قواعد الشام كذا أمر معاوية في نفس السنة التي حدثت فيها إغارة الروم على الشام بجمع الصناع والنجارين وإرسالهم الى عكاء التي وقع اختياره عليها لينشىء بها أول دار لصناعة السفن بالشام. وكانت عكا تستطيع الحصول على ما يلزمها من أخشاب لبنان، التي أشتهرت بصفة خاصة بصلاحيتها للمجاديف (٤٢).

وبذلك استطاع دعاة الأسطول العربي أن ينجحوا في تحقيق مآربهم بفضل مثابرتهم وتعاونهم، وخرجت طلائع الأسطول العربي الى البحر المتوسط تعلن من شأن العرب، وتعلن ميلاد مجدهم البحري.

القيادة البحرية المشتركة

وعندما قامت في الشام دور الصناعة لبناء سفن الاسطول العربي كذلك، دخل التعاون البحري بين مصر والشام في دور جديد. ذلك ان البحارة والمقاتلة الذين عملوا في الأسطول العربي جاءوا من سكان الشام ومصر، وحاربوا جنباً الى جنب دون أية تفرقة. وكان اعتماد العرب في تلك الفترة المبكرة من نشاط أسطولهم على أقباط مصر وسكان الشام القدامى، الذين مهروا في ركوب البحار وتدربوا على فنون القتال فيه. ولم يسهم من العرب في تلك الحملات البحرية الأولى غير اليمنيين، ولاسيما جماعاتهم وقبائلهم التي استقرت في الشام قبل الفتح العربي، إذ أن لعرب الجنوب ماض بحري تليد، وخبرة بركوب البحار.

وبذلك جمعت العوامل الجغرافية بين الشام ومصر منذ فجر الفتح العربي لهما، وقامتا بدور مجيد في خدمة قوات البحرية العربية (٤٣). وفضلا عن ذلك لم تنفك عرى ذلك التعاون البحري بين الشام ومصر الذي وضع أساسه معاوية بن أبي سفيان وعبد الله بن أبي سرح أيام ولايتهما لهذين الاقليمين على عهد الخليفة عثمان بن عفان.

ويعتبر هذا التعاون البحري بين مصر والشام حجر الزاوية في صرح الأسطول العربي في صدر نشاطه، والسبب في انتصاراته الباهرة التي أحرزها هذا الاسطول منذ أيامه الأولى. ثم إن التعاون البحري المصري الشامي صار كذلك النموذج الذي نهج العرب على منواله كلما اتسعت بهم الفتوح، لأنهم لمسوا فوائده وثماره الطيبة في ميدان البحار.

من كتاب "قوات البحرية العربية في مياه البحر المتوسط" للدكتور ابراهيم احمد العدوي



الاستقلال اللبناني و الميثاق الوطني

ماذا حدث بالضبط عام ١٩٤٣ ؟
كيف بلغ لبنان استقلاله

د. باسم الجسر

كان مجرى الحرب العالمية الثانية قد بدأ يتغير، في عام ١٩٤٢. فبعد معركة العلمين وستالينغراد كان نجم المانيا قد اخذ في الافول وكفة النصر العسكري ترجح لصالح الحلفاء. اما خطر الحرب على الشرق الاوسط فكان قد زال تماماً.

ازاء هذا التحول فيمجرى الحرب، لم يعد "لفرنسا الحرة" من سبب لتأخير عودة الحياة الدستورية الى سوريا ولبنان. لا سيما وان "حكومة الجزائر" (ديغول) كانت قد وعدت لبنان وسوريا، مرتين، على لسان الجنرال كاترو، بالاستقلال التام.

وهكذا في ٢٤ كانون الثاني ١٩٤٣، اذاعت "لجنة الجزائر الوطنية"، قراراً يقضي باعادة الحياة الدستورية الى لبنان وكلفت الجنرال كاترو باتخاذ التدابير اللازمة لتنفيذ هذا القرار.

طلب الجنرال كاترو من الحكومة اللبنانية التي كان يرئسها الفرد نقاش بلقب رئيس للجمهورية ويشاركه الحكم فيها سامي الصلح، بلقب رئيس وزراء، ان تقدم استقالتها. فرفض الرئيسان نقاش والصلح تقديم استقالتيهما متذرعين بالوعود التي كانت فرنسا قد اعترفت بموجبها باستقلال لبنان، ووعدا بأنهما سيقدمان هذه الاستقالة لمجلس النواب الذي سوف ينتخب. الا ان الجنرال كاترو لم يأخذ اعتراضهما بعين الاعتبار، بل اصدر قراراً بأقالتهما وبتعيين حكومة برئاسة الدكتور ايوب تابت، الذي أعطي ايضاً لقب رئيس الدولة.

وصدر قرار آخر باعادة العمل بالدستور الذي كان قد اوقف العمل به منذ عام ١٩٣٩، شرط ان يبدأ العمل به، بعد انتخاب مجلس للنواب ورئيس للجمهورية.

بعد صدور هذين القرارين دخلت البلاد في حمى الاستعداد للانتخابات النيابية، لا سيما وان مصير لبنان الوطني والسياسي وعلاقته بفرنسا كانا مرهونين بنتائجها.

ولعل اهم ما حفلت به تلك الفترة الصراع الخفي، السائر بين اركان البعثة البريطانية في بيروت التي كان يرئسها الجنرال ادوار سبيرس ومساعده فيها الكولونيل فيرلونغ ويقوم بدور بارز فيها المستشار الشرقي، مارون عرب، وبين اركان المندوبية الفرنسية التي كانت تضم اجهزة الانتداب التي كانت لا تزال مسيطرة رسمياً وفعلياً على قطاعات عامة وخاصة هامة.

انقسم السياسيون الى فريقين: فريق استقلالي، عربي الولاء بريطاني الهوى، وفريق استقلالي، ضئيل الانفتاح على العرب وفرنسي الهوى. كان الشيخ بشارة الخوري يتزعم الفريق الاول واميل اده، الفريق الثاني. وبالرغم من ان جميع مرشحي الفريق الاول لم يكونوا اعداء لفرنسا او من دعاة العروبة. ولا جميع مرشحي الفريق الثاني، اعداء لبريطانيا او للعرب، الا ان ظروف المعركة الانتخابية جعلت كل فريق يعتمد على احدى الدولتين المتنافستين ليحقق غايته في الفوز.

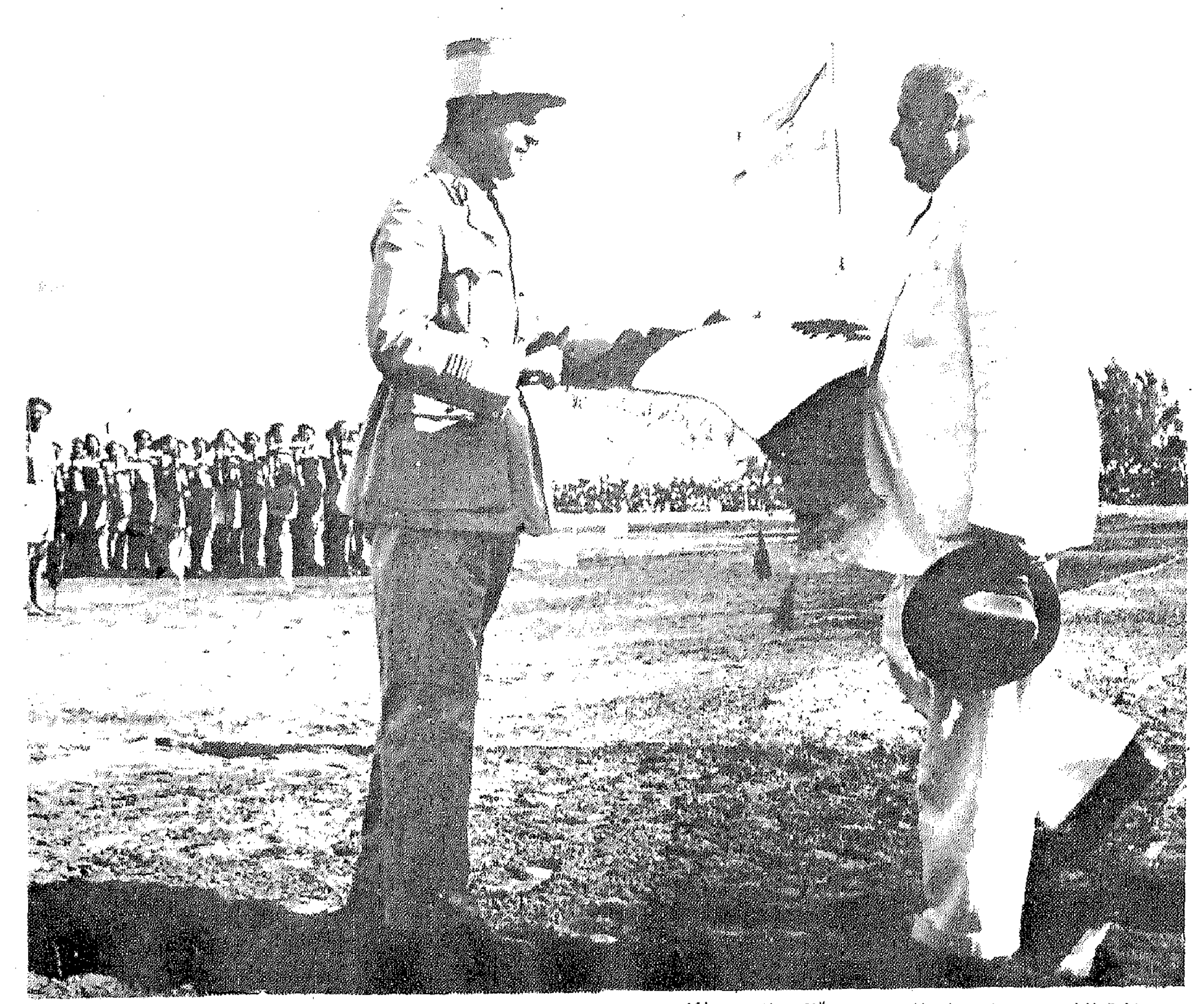
وحقيقة الامر أن الاستقلال كان مطلباً سياسياً عاماً اجماعياً في لبنان منذ عام ١٩٤١، لاسيما بعد اندحار فرنسا عسكرياً امام المانيا. ولكن دخول الجيوش البريطانية مع قوات فرنسية ديغولية الى لبنان وسوريا عام ١٩٤٢، حول هذه الامنية الى تيار سياسي اشترك فيه سياسيون مسلمون ومسيحيون ممن سبق لهم الاشتراك في الحكم ابان عهد الانتداب او عارضوا الانتداب والدولة اللبنانية.

يشهد على ذلك الاجتماع الذي عقد في بكركي في يوم الميلاد ١٩٤١ حين امَّت وفود شعبية، على رأسها مسلمون ومسيحيون، مقر البطريرك الماروني في بكركي لتهنئة البطريرك بعيد الميلاد، فتحول الاجتماع الى مؤتمر صدر عنه، بيان يطالب بالاستقلال التام.

السياسة البريطانية

كانت السياسة البريطانية في الشرق الاوسط تقضي بأن تستقل الدول العربية بعد انتهاء الحرب وان تنظم في "رابطة" او "جامعة"! وكان انطوني ايدن، وزير الخارجية البريطاني آنذاك، قد صرح بهذه الخطة في خطاب له في مجلس العموم. ولذلك التقت الحركات الوطنية العربية يومذاك مع السياسة البريطانية. وكان المتحمسون لهذه السياسة الاستقلالية العروبية التي رسمتها بريطانيا، الكتلة الوطنية في دمشق وعلى رأسها شكري القوتلي وسعد الله الجابري وجميل مردم. كذلك كان النحاس باشا وحزب الوفد في مصر، بالاضافة الى نوري السعيد والامير عبدالله في الاردن. وكان من الطبيعي أن يتأثر قادة الحركة الوطنية العربية في لبنان بهذه السياسة وفي مقدمتهم رياض الصلح وعبد الحميد كرامي وغيرهما.

غير ان الامر كان مختلفاً بالنسبة للاوساط المسيحية. ذلك ان الحرب واندحار فرنسا كانا قد احدثا نوعاً من الخلل بالنسبة لموقف المسيحيين من الاستقلال. فمشروع المعاهدة اللبنانية – الفرنسية، عام ١٩٣٦، الذي لم يصدق عليه المجلس النيابي الفرنسي، كان يشكل في نظر المسيحيين، بوجه عام الحل الامثل الذي يوفق بين أمنية الاستقلال وامنية الحماية الفرنسية. اما وقد طويت المعاهدة، تحولت فرنسا بعد انكسارها الى دولة ثانوية بالنسبة للولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وبريطانيا، واما وقد برزت الدعوة البريطانية للمناداة باستقلال الدول العربية وتوحيد كلمتها في "جامعة" او "رابطة اقليمية" فأنه بات من الطبيعي ان يبرز في الاوساط المسيحية فريق يرى في هذا التيار الاقليمي الجديد مجالا مصيرياً جديداً يحقق ما لم تحققه المعاهدة اللبنانية –



١ ـ بشارة الخوري يتسلم علم الجيش من قائده الزعيم فؤاد شهاب .

الفرنسية. وكان الشيخ بشارة الخوري هو الزعيم السياسي الذي وقع الاختيار عليه للقيام بهذا التحول السياسي الوطني بأسم المسيحيين.

كان الشيخ بشارة الخوري مهيأً للقيام بهذا الدور. فأبعاده عن الرئاسة مرتين في عهد الانتداب ـ كان قد جعل منه زعيماً معارضاً تتقبله الجماهير الاسلامية. ثم ان البورجوازية التجارية والمالية المسيحية في بيروت (شيحا، حلو، خطار، فرعون بسترس،) كانت قد ادركت اهمية الاسواق العربية بالنسبة لمستقبل الاقتصاد اللبناني، وكان عدد كبير من عائلاتها يرتبط بالشيخ بشارة الخوري، بصلات قربى او صداقة او تحالف سياسي.

الا أن الدور الكبير في اتصال الشيخ بشارة الخوري بالقوى الوطنية العربية: في دمشق والقاهرة ولتجميع البورجوازية المسيحية حوله، كان للجنرال ادوار سبيرس، المندوب البريطاني في بيروت.

وهنا لا بد من الاشارة الى سبب آخر من اسباب حماس الجنرال سبيرس الشخصي للاستقلال اللبناني ولمعاداته للسياسة الفرنسية.

لم يكن الجنرال سبيرس موظفاً ديبلوماسياً عادياً بل كان نائباً بريطانياً وعضواً نافذاً في الحكومة البريطانية، ولقد كان له اجتهاده الخاص في ما يتعلق بخدمة مصالح صاحب الجلالة البريطاني في هذه المنطقة، ولذلك لم يتقيد كثيراً بما نص عليه اتفاق ديغول ـ ليتلتون" الذي تم في القاهرة عام ١٩٤٢ والذي اعترفت فيه الحكومة البريطانية لفرنسا "بمركز خاص" في لبنان وسوريا بعد الحرب.

كان الجنرال سبيرس يرى ان الشعبين السوري واللبناني يريدان الاستقلال والذي اعترفت به الحكومة البريطانية.

كان الجنرال سبيرس يرى أن الشعبين السوري واللبناني يريدان الاستقلال التام الناجز، وانهما يرفضان ان يقيد هذا الاستقلال باي معاهدة مع فرنسا. والواقع ان هذا التقدير كان صحيحاً مائة بالمائة بالنسبة لسوريا،، اما بالنسبة للبنان، فان الموضوعية تقضي بالقول بأن قسماً كبيراً من المسيحيين، ومن الموارنة بنوع خاص، كانوا يتمنون استقلالا مرتبطاً بمعاهدة مع فرنسا.

من هنا نشب الخلاف الحاد بين المندوبية الفرنسية والبعثة البريطانية وراحت كل منهما تشجع وتدعم فريقاً من السياسيين المتنافسين على النيابة والحكم.

لم يكن السياسيون والزعماء، باستثناء عدد ضئيل منهم، ليعلنوا موقفهم الصريح من المصير

اللبناني، في برامجهم الانتخابية. فالكل كانوا يطلبون الاستقلال، ولكن من الواضح أن فرنسا كانت تؤيد وتدعم البعض وبريطانيا البعض الآخر. ولقد استطاع عدد من السياسيين ان يلعب على الحبلين، فيخوض المعركة، في لائحة "فرنسية الرعاية" فيما هو مقتنع بالاتجاه الآخر، والعكس بالعكس. الا انه من الثابت ان الحلقة الضيقة من السياسيين والمرشحين، في جبل لبنان بنوع خاص الملتفة حول الشيخ بشارة الخوري كانت واضحة الميول والاتجاهات. اما لوائح الجنوب والشمال والبقاع فقد اختلط الحابل فيها بالنابل، عند تأليفها. ولكن اتجاهها ما لبث ان اتضح قبل الانتخابات، وخصوصاً بعد ظهور النتائج.

وابان احتدام هذا الصراع البريطاني ـ الفرنسي من جهة واللبناني ـ اللبناني من جهة اخرى نشبت



الخوري مع ممثل الاتحاد السوفياتي سولود

ازمة كان من شأنها التأثير على مصير الاستقلال لو لم يبادر اصحاب الشأن الى تلافيها.

ذلك ان حكومة الدكتور ايوب ثابت وضعت قانوناً للانتخابات ادخلت في حساب عدد النواب فيه وتوزعهم بين الطوائف، المغتربين الذين هم من اصل لبناني مما زاد في نسبة عدد النواب المسيحيين، والموارنة بنوع خاص.

اثار هذا المشروع ردة فعل قوية في الاوساط الاسلامية فتداعى الزعماء السياسيون المسلمون الى مؤتمر انعقد في ٢١ حزيران ١٩٤٣ طالبوا فيه بتعديل قانون الانتخابات واجراء الاحصاء العام للسكان والا قاطعوا الانتخابات (١).

اضطر الجنرال كاترو، تلافياً للازمة، الى اقالة حكومة الدكتور ايوب ثابت، وتعيين حكومة جديدة برئاسة محام ارثوذكسي معتدل، هو بترو طراد،

رئيس المجلس النيابي سابقاً. لقد جاء هذا القرار اثر تدخل الجنرال سبيرس الشخصي ووساطة النحاس باشا، رئيس وزراء مصر، اللذين توصلا الى اقناع الزعماء المسيحيين والمسلمين بصيغة وسط تقضي بأن تكون نسبة تمثيل المسيحيين في المجلس زائدة على نسبة تمثيل المسلمين بالسدس (اي نسبة ٦ على ٥) ولا ريب في أن هذه التسوية ساعدت كثيراً على كسر جدار الحذر بين المسلمين والمسيحيين ومهدت لتبلور فكرة الميثاق الوطني والوصول الى الاستقلال التام.

جرت الانتخابات النيابية في ٢٩ آب ١٩٤٣ ففازت فيها اللوائح التي كانت تساندها السياسة البريطانية ويتفق اعضاؤها مع الشيخ بشارة الخوري والنهج الاستقلالي المنفتح على العرب والملتقي مع السياسة البريطانية: (باستثناء جبل لبنان حيث فازت لائحة اميل اده بـ ١١ نائباً لقاء ٦ نواب في لائحة الشيخ بشارة الخوري). وهكذا تكرس النهج الوطني والسياسي الذي يقضي ببلوغ الاستقلال محرراً من اي ارتباط مع فرنسا.

بشارة الخوري رئيساً

واكتمل الفوز بانتخاب الشيخ بشارة الخوري رئيساً للجمهورية، رغم كل المناورات التي قامت بها المندوبية الفرنسية للحؤول دون هذا الانتخاب (٢).

وكلف الشيخ بشارة الخوي، رياض الصلح، بتأليف الحكومة. وكان لهذا التكليف معان وابعاد لم تخف على احد. فرياض الصلح امضى القسم الاكبر من حياته مناضلا قومياً عربياً. ولم يكن قد

انتقل الى ميدان النضال الوطني اللبناني الا في السنوات الاخيرة، متبنياً الفكرة التي كان ابن عمه كاظم الصلح قد بلورها مع عدد من المثقفين الشباب، والتي سوف تبرز في صيغة "الميثاق الوطني". وخلاصتها انه لا بد من التقاء الصف الوطني العربي في لبنان مع الوطنيين المسيحيين لبلوغ الاستقلال وللابقاء على وجه لبنان العربي. وكان رياض الصلح معروفاً بخصومته للانتداب الذي نفاه اكثر من مرة وحال دون دخوله المجلس عام ١٩٣٧.

الف رياض الصلح حكومته من ستة وزراء اختارهم مع الشيخ بشارة الخوري، من الطوائف الست الكبرى (ماروني، سني، شيعي، ارثوذكسي، درزي، كاثوليكي)، (٢). وفي الفترة الواقعة بين ٥ ايلول ١٩٤٣، وهو يوم اعلان نتائج الانتخابات و٧ تشرين الاول ١٩٤٣، وهو يوم القاء البيان الوزاري امام مجلس النواب، عرفت البلاد شهراً مليئاً بالاحداث والمناورات السياسية والاتفاقات الوطنية، التي سوف تطبع الحياة الوطنية والسياسية اللبنانية لمدة ربع قرن واكثر.

فخلال هذا الشهر تمت اجتماعات عدة بين الشيخ بشارة الخوري ورياض الصلح جرى خلالها التفاهم والاتفاق على البرنامج الوطني والسياسي لبلوغ الاستقلال كما جرت خلال هذا الشهر الاتصالات بين العهد الجديد في لبنان والحكومات الوطنية في دمشق والقاهرة. وكان الجنرال سبيرس يلعب في هذه الاتصالات دور المرشد او العراب.

وفي السابع من تشرين الاول ١٩٤٣، القى رياض الصلح بيانه الوزاري الاول امام المجلس النيابي وسط جو من الحماس الشعبي والعنفوان الوطني، لم تعرفه البلاد من قبل. وجاء البيان، الذي يعتبره البعض احدى صيغ الميثاق الوطني والذي ايده المجلس النيابي بالاجماع (لم يتغيب سوى بضعة نواب ممن تضامنوا مع اميل اده). مكرساً للمبادىء التي اتفق عليها المسلمون والمسيحيون، و"اللبنانيون" و"العروبيون" لبلوغ الاستقلال والسيادة الوطنية.

ما تضمنه البيان الوزاري من وعود كان لا بد له من ان يقود عملياً الى تعديل الدستور والغاء كل المواد المتعلقة بالانتداب الفرنسي منه وبالتالي استلام كل السلطات او المراكز التي كان الانتداب يمارس السلطة الفعلية بواسطتها.

وهكذا ابلغت الحكومة اللبنانية المندوب الفرنسي، المسيو "هيللو"، رغبتها "في تسلم المصالح الوطنية وتحويل المندوبية الفرنسية الى تمثيل ديبلوماسي".

رفضت الحكومة الفرنسية المؤقتة، المقيمة في الجزائر آنذاك، تسليم لبنان وسوريا، المصالح والسلطات التي تمارسها فرنسا قبل توقيع اتفاق معها تحدد بموجبه بصورة عامة ونهائية العلاقات الفرنسية ـ اللبنانية والفرنسية ـ السورية. (٣).

كانت الحكومة الفرنسية بهذا الرد الذي يدل على رغبتها في توقيع معاهدة مع لبنان وسوريا تحفظ بموجبها مصالحها ومركزاً لها متميزاً، وتتراجع عن تسليمها بمبدأ الاستقلال التام الذي كانت قد وعدت به مراراً والذي كان لبنان قد بدأ يمارسه بالفعل. وان دل ذلك على شيء فأنما يدل على قصر نظر وخطأ في تقييم الواقع الدولي وتطور الاوضاع السياسية في هذه المنطقة من العالم.

تعديل الدستور

وفي ٥ تشرين الثاني، نشرت الحكومة الفرنسية المؤقتة، بواسطة المندوبية الفرنسية في بيروت، بلاغاً انكرت فيه على الحكومة اللبنانية حق تعديل الدستور، من طرف واحد وبدون موافقة فرنسا.

جاء ردّ الحكومة اللبنانية على هذا البلاغ، عفوياً وسريعاً. ففي اليوم ذاته الذي اذيع فيه البلاغ، عقد مجلس الوزراء اللبناني جلسة استثنائية، بدعوة من رئيس الجمهورية، وقرر احالة مشروع تعديل الدستور الى المجلس النيابي.

وفي الثامن من تشرين الثاني ١٩٤٣ وبالرغم من كل المحاولات والمناورات الفرنسية لتأجيل انعقاد الجلسة، عقد المجلس النيابي اللبناني جلسته التاريخية، كانت شرفات المجلس مليئة بالحضور وآلاف المواطنين محتشدون في ساحة البرلمان، فوافق النواب على تعديل الدستور بالاجماع، والغيت كل المواد التي فيها ذكر للانتداب الفرنسي.

● لم تمض ايام ثلاثة حتى جاءت ردة الفعل الفرنسية على هذا التحدي، عنيفة وغير منتظرة.

ففي الساعات الاولى من فجر الحادي عشر من تشرين الثاني ١٩٤٣، داهمت قوات مسلحة فرنسية منازل رئيس الجمهورية ورئيس الوزارة وبعض الوزراء فالقت القبض عليهم، وقادتهم نحو معتقل اعد لهم في قلعة "راشيا" بالاضافة الى الشيخ بشارة الخوري ورياض الصلح والوزراء كميل شمعون وسليم تقلا وعادل عسيران اعتقل النائب عبد الحميد كرامي. اما المير مجيد ارسلان وحبيب ابي شهلا فقد نجيا من الاعتقال.

وفي الوقت الذي كانت فيه القوات الفرنسية تقوم بهذه العملية المجنونة، اصدر المندوب السامي الفرنسي قراراً بابطال مفعول قانون تعديل الدستور، وبحل مجلس النواب وتعليق الدستور وتعيين اميل اده رئيساً للدولة والحكومة، كما اذاع المسيو هيللو بياناً حاول فيه تبرير عمله بقوله ان التدابير التي اتخذها انما كانت رداً على تصرفات المسؤولين اللبنانيين الذين حاولوا القضاء على الوجود الفرنسي في المشرق، لمصلحة دولة كبرى اخرى!

فوجىء اللبنانيون بهذا العمل الطائش، وما لبث الانفعال أن اعقب الدهشة. واندفع مئات بل

واخذت الجماهير تهاجم وتعتدي على كل مظاهر الوجود الفرنسي، واشتركت كل الطبقات والفئات في الاعراب عن ثورتها بما في ذلك عدد من رجال الدين المسيحيين، وعقد النواب اكثر من جلسة، رغم حل المجلس مستنكرين العمل الفرنسي معلنين تأييدهم للحكومة الشرعية. وتحركت العواصم العربية محتجة على ما حدث.

حاول الرئيس المعين تأليف حكومة تساعده فلم يفلح. واعلن المجلس النيابي عن تأليف حكومة موقتة مقرها قرية "بشامون"، تضم حبيب ابي شهلا، ومجيد ارسلان وصبري حماده. وعقد مؤتمر وطني ضم عدداً كبيراً من السياسيين والوجهاء والمثقفين، من مختلف الطوائف، اعلن تأييده للحكومة الشرعية. وتوحدت منظمتا "الكتائب" و"النجادة" في حركة واحدة واعلنتا النضال ضد السلطات الفرنسية. (٤).

وصعّدت الحكومة البريطانية ضغطها بحيث ارسلت الى الجنرال كاترو مذكرة تحذّر فيها من استمرار اعتقال الزعماء اللبنانيين، على اعتبار ان الازمة "تهدد المواصلات العسكرية البريطانية ومجهود الحلفاء الحربي في الشرق الاوسط".

وفي ٢١ تشرين الثاني ١٩٤٣ استجابت الحكومة الفرنسية لتوصيات الجنرال كاترو، فاستدعت المندوب هللو الى الجزائر. وفي ٢٢ تشرين الثاني افرج عن رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء، والوزراء المعتقلين الذين غادروا قلعة راشيا.

وفي موكب شعبي، لم يعرف لبنان مثيلا له، عاد الزعماء الى بيروت. وكانت الجماهير تخرج الى الطرقات مواكبة اياهم هازجة ومهللة لهم وللاستقلال. وفي ساحة الشهداء كان هنالك مئات الالوف من اللبنانيين بانتظارهم ليهتفوا لهم وللاستقلال.



ومع ممثل الولايات المتحدة وورسورث.

وبالاضافة الى تظاهرات الاحتجاج واعمال الشغب والعصيان المدني والاصطدام بالسلطات الفرنسية، كانت المساعي الديبلوماسية ناشطة لحل الازمة. فالجنرال سبيرس، بذل نشاطاً كبيراً ضد العمل الفرنسي ومؤيداً للحكومة الشرعية، بحيث انه يجوز القول بأن المندوبية البريطانية تحولت الى مركز قيادة للمقاومة.

وهبت العواصم العربية تؤيد الشعب اللبناني في انتفاضته وتطالب بعودة الحكومة الشرعية. وما لبثت حكومتا واشنطن ولندن ان مارستا الضغط على الحكومة الفرنسية المقيمة الجزائر، للافراج عن الزعماء المعتقلين والاستجابة لاماني اللبنانيين، مما حمل الجنرال ديغول على ارسال الجنرال كاترو مجدداً، الى لبنان مكلفاً بمهمة حل الازمة.

وكان يوماً حافلا بالحماس وموحداً الشعور الوطني، كما لم كما لم يعرف لبنان من قبل.

اللقاءات والاتفاقات

تلك هي، باختصار اهم الاحداث التي رافقت ولادة الاستقلال اللبناني والتي كان عام ١٩٤٣، مسرحاً لها. ويجدر التساؤل: كيف ان هذا العام شهد توتُّراً اسلامياً ـ مسيحياً حول نسبة التمثيل الطائفي، يدل على الريبة واللاثقة في النوايا، ثم شهد صراعاً انتخابياً سياسياً وحزبياً بل وعقائدياً... انتهى بهذا الاجماع الشعبي والوطني العارم الذي كان من نتائجه بلوغ لبنان الاستقلال التام بل ولادة شعور وطني موحد؟

صحيح ان العمل الاحمق الذي اقترفته السلطات

الفرنسية ؛ في محاولتها تأخير الاستقلال؛ كان له اثره في توحيد كلمة اللبنانيين وردة فعلهم .

وصحيح ان السياسة البريطانية هي التي ساعدت السياسيين الذين وافقوا على مخططاتها؛ في الوصول الى المجلس والحكم ومن ثم على الصمود في وجه المحاولات الفرنسية للمحافظة على مركز ممتاز لها .

ولكن هذا كله لم يكن ليكفي لو لم يتوصل اللبنانيون عبر زعمائهم واحزابهم ؛ الى نوع من الاتفاق الاساسي حول صيغة تشمل نظام الحكم وواقع لبنان الوطني وعلاقاته مع جيرانه والعالم .

مما لا ريب فيه ان الانتفاضة الشعبية التي تلت اعتقال الحكومة الشرعية؛ كانت عفوية وصادقة وان اكثرية الشعب كانت تريد الاستقلال والسيادة . ولكن هل كان الشعب؛ باجمعه يؤيد هذه الصيغة الوطنية التي تم الاتفاق عليها بين الزعماء السياسيين اي "بالميثاق الوطني" .

المجلس النيابي والمؤتمر الوطني والتظاهرات الشعبية الصاخبة؛ والاضراب العام في البلاد ثم الاستقبال الشعبي المنقطع النظير للزعماء العائدين من المعتقل؛ كلها تدل على أن الاستقلال كان شعبياً اجماعياً؛ لكن هل كانت هذه التظاهرات تؤيد ابقاء النظام السياسي الذي يرسمه دستور ١٩٢٦؟ هل كانت مطلعة على اتفاق بشارة الخوري ورياض الصلح على "الميثاق"؟

في الواقع؛ لم يكن الشعب مطلعاً على "الميثاق الوطني"؛ بل كان مؤيداً للاستقلال وثائراً لكرامته التي تعرضت للعدوان . الا انه من المؤكد ان عدداً كبيراً من السياسيين والعاملين في الحقل العام؛ كانوا مطلعين؛ او على الاقل مؤيدين؛ للخطوط السياسية الكبرى والمبادىء الوطنية التي توصل الشيخ بشارة الخوري ورياض الصلح الى الاتفاق عليها في صيفة ١٩٤٣ . فما هي هذه الخطوط الكبرى والمبادىء وكيف ومتى واين تم ابرازها والاتفاق عليها .

ومن اغرب المفارقات ان الشيخ بشارة الخوري ورياض الصلح اللذين قيض لهما ان يلعبا الدور الرئيسي في هذه المرحلة التاريخية الحاسمة؛ لم يكونا قد اتفقا؛ والبعض يقول لم يكونا قد التقيا قبل صيف ١٩٤٣! فرياض الصلح كان اقرب مودة لاميل اده منه للشيخ بشارة الخوري؛ ويؤكد الكثيرون من المطلعين ان ادخال رياض الصلح في لائحة احمد الاسعد الانتخابية؛ جاء بناء على وساطة اميل اده .

الحقيقة هي ان "مبادىء" الميثاق الوطني؛ التي اقترنت بأسمي بشارة الخوري ورياض الصلح؛ لم تكن من ابتكارهما؛ بل انها تبلورت وتولدت رويداً رويداً في عقول ونفوس اللبنانيين ابتداء من الثلاثينات وانها كانت "ناضجة" في عام ١٩٤٣؛ عندما اتاحت الظروف الدولية والعربية لبشارة الخوري ورياض الصلح أن يكونا صاحبي الفضل في اخراجها وتكريسها وتطبيقها .

تلك هي الحقيقة التي لا تقلل من اهمية الدور التاريخي الذي لعبه الزعيمان السياسيان . ولكنها تعطي؛ ايضاً غيرهما؛ لاسيما المفكرين والسياسيين الذين لم تمنحهم الحياة او الظروف فرصة البروز الى مقدمة التاريخ؛ حقهم ايضاً .

اما الحقيقة الثانية فهي أن بشارة الخوري ورياض الصلح رغم تبنّيهما لصيغة كانت قد تبلورت قبل وصولهما الى الحكم؛ كانا مؤهلين؛ شخصياً وسياسياً ووطنياً اكثر من غيرهما للقيام بهذا الدور التاريخي وللاتفاق .

(في العدد المقبل: من وضع الميثاق الوطني؟)

١ ــ نشرت جريدة "الانوار"؛ محضر هذا المؤتمر المفصل؛ في عددها الصادر في ١٢/ شباط/ ١٩٧٥ وكان من ابرز الحاضرين فيه: مفتي الجمهورية الجمهورية؛ رياض الصلح؛ عبدالله اليافي؛ عبد الحميد كرامي، جميل بيهم؛ بهيج تقي الدين؛ سليمان الضاهر .

٢ ــ راجع كتاب الجنرال كاترو "في معركة المتوسط"؛ باريس ١٩٤٩ .

٣ ــ من ابرز المناورات الدعوة الى انسحاب كل من بشارة الخوري واميل اده؛ والاتفاق على مرشح ثالث . وكان ابرز الاسماء كميل شمعون؛ مجيد ارسلان؛ حبيب ابي شهلا؛ عادل عسيران؛ سليم تقلا .

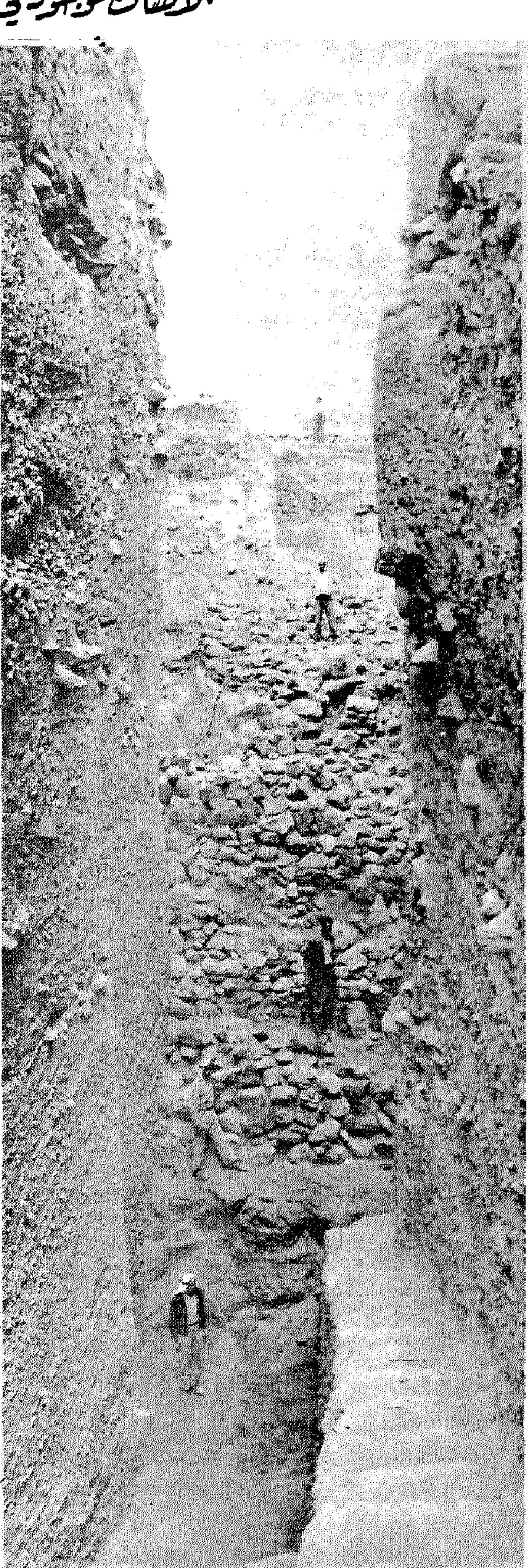
٤ ــ حول الاحداث التي وقعت بين ١١ و٢٢ تشرين الثاني ١٩٤٣؛ يراجع كتاب "ولادة استقلال" للشيخ منير تقي الدين؛ ــ دار العلم للملايين .

الانسان موجود في الشرق الأوسط من نصف مليون سنة

العالم العربي في العصر الحجري

د. ديمتري برامكي

الدكتور ديمتري برامكي: مولود ١٩٠٩ في الاردن، حامل شهادة بكالوريوس آداب من جامعة لندن ١٩٣٤ ودكتوراه بالآثار من جامعة لندن ١٩٥٣؛ وكانت اطروحته بعنوان "ثقافة وهندسة العهد الاموي"، أمين متحف الآثار بالوكالة في فلسطين، ١٩٤٦ – ١٩٤٩ وأمين متاحف الجامعة الأميركية في بيروت منذ ١٩٥١، مثل الجامعة الأميركية في سبعة مؤتمرات للاثريين في البلاد العربية وفي العالم، رقي الى درجة استاذ آثار في تموز ١٩٥٨.



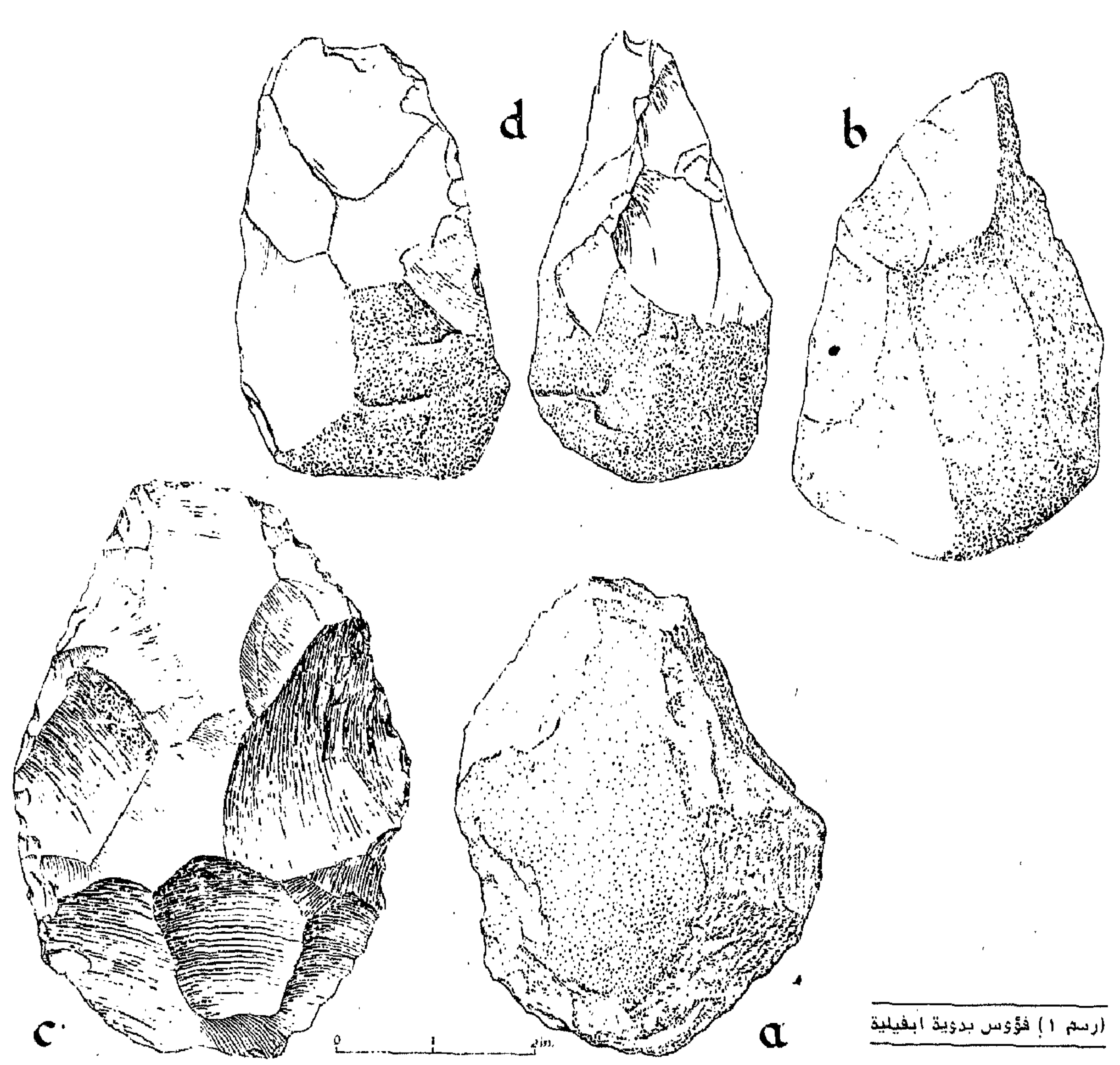
رسم ٢) حفريات اريحا.

دلت الابحاث الأخيرة على أن عنصر الانسان ظهر أول ما ظهر على وجه البسيطة في جنوب افريقيا ثم أخذ ينتقل تدريجياً وببطء شديد نحو الشمال ولم يصل إلى الشرق الأوسط الا منذ نصف مليون سنة. فالعناصر البشرية التي ظهرت في جنوب أفريقيا وبعدها في وادي أولدفاي (OLDUVAI) لم يظهر لها أثر في الشرق الأوسط. أما أول إنسان ظهر في الشرق الأوسط فهو HOMO ERECTUS الرجل المنتصب. فكانت سعة دماغه تبلغ ٩٠٠ سنتمتر مكعب وظهرت جماجم هذا الانسان في جاوا وفي مغارة تركوئيني في الصين كما خلف وراءه أدوات صوانية في كلا المكانين.

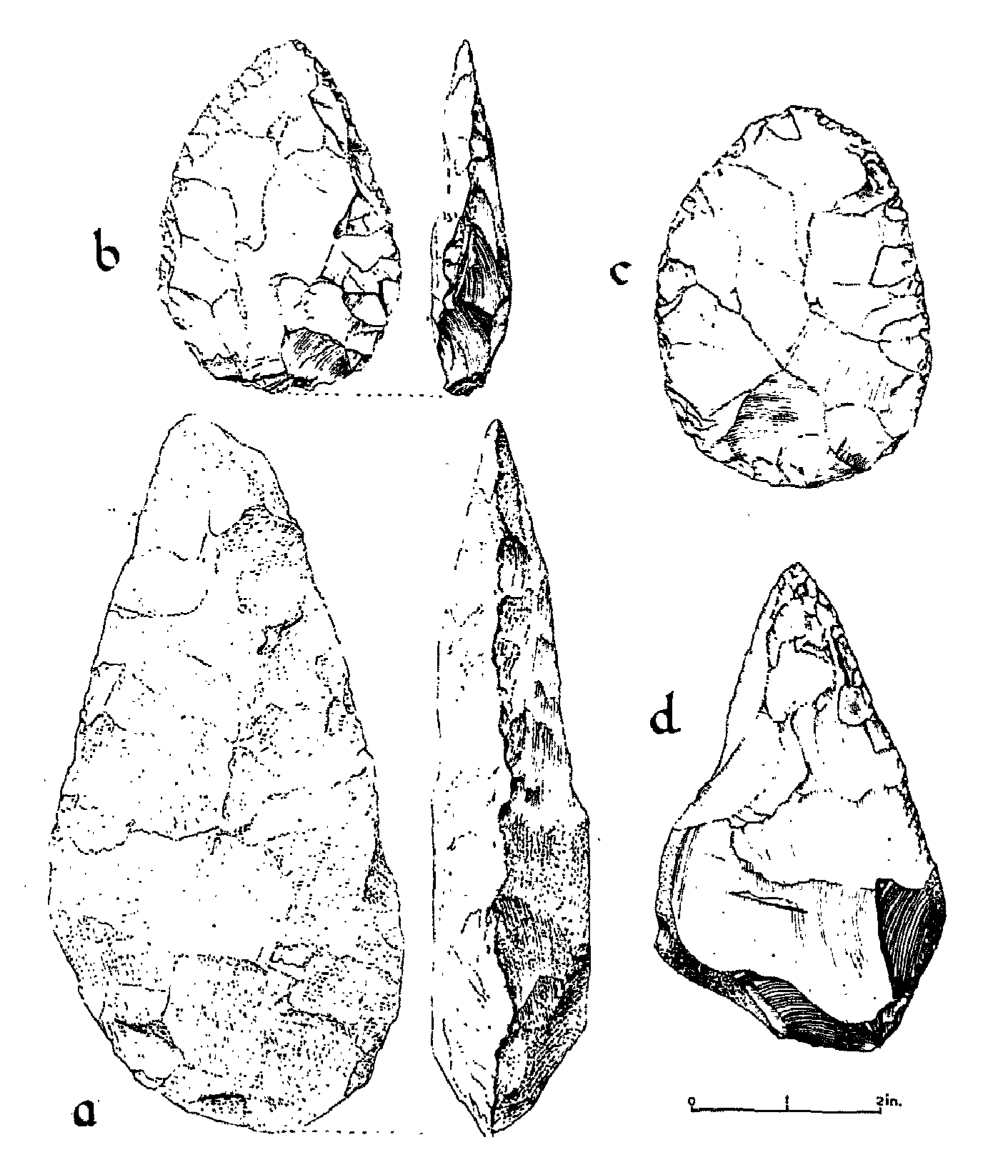
أما في الشرق الاوسط وإن كنا لم نعثر حتى الآن على جماجم هذا الانسان فقد وجدنا أدوات عديدة كان يستعملها هذا العنصر من البشر، إما لمكافحة الحيوانات الضارية التي كانت تحيط به أو لقنص الحيوانات التي كان يقتات بها.

بقي هذا الانسان ردهاً طويلا من الزمن ينتقل من مكان الى آخر طلباً للقوت إذ كان يترصد الفرائس على جوانب السهول حيث تأوى الغزلان والفيلة المنقرضة والمعروفة (MAMMOTH، وصلنا من ادواته الادوات الظّرانية فقط. أما إن كان يستعمل أدوات أخرى مصنوعة من الخشب فهذه تلاشت مع الزمن. أما الأدوات الظّرانية فكانت قطعة كبيرة من الصوان ليس لها شكل معين ورأسها ثلم (رسم ١). وجدت هذه الأدوات بعدد وافر في ضبية وجزين في لبنان وقرب جبل فُريديس وكولونية اليونان في القدس في فلسطين، وفي أماكن أخرى من فلسطين وسوريا ولبنان ولكن لا أثر لها في العراق.

تدعى هذه الثقافة (الثقافة الابفيلية ABBEVILLIEN) نسبة ألى "ABBEVILLE في فرنسا حيث عثر عليها لأول مرة. وكانت هذه الثقافة تدعى الثقافة الشّلية (CHELLEEN سابقاً.



(رسم ١) فؤوس بدوية ابفيلية



(رسم ٣) فؤوس يدوية اشولية

إمتد هـذا العصـر مـن العصـر الجـاف الأول (JUNZ-MINDEL) والعصـر المطـري الثانـي MINDEL والـعصـر الـجـاف الـثـانـي (MINDEL-RISS) والعصـر المطـري الـثـالـث (RISS)

تلي هذا العهد العصر الاشولي (ACHEULIEN) نسبة الى (ACHEULE) في فرنسا اي المكان الذي عثر فيه على هذه الأدوات لأول مرة ـ وتمتاز الأدوات الأشوليـة بكونـهـا فـي بـادىء الامـر مثلثة الشكل, ومهذبة من جانبين لذلك تدعى (BIFACE) ولها طرف حاد مروس بعكس الأدوات السابقة وتطور هذا النوع منها حيث أخذ في ما بعد شكلا يشبه القلب ولذلك دعيت هذه الأدوات CORDLFORME وفي أواخـر العصـر أصبحـت مستديرة الشكل واصبحت تدعى (CIRCULAIRE)

طبعا حصل في هذا العصر بعض التطور في شكل الانسان خصوصاً في حجم دماغه ولكن للأن لم نعثر على أي من جماجمه، رغم عثورنا على عـدد كبيـر من أدواته لنحدد حجم دماغه بالضبط.

وفي العصر الأشولي كان الانسان ما زال يتعاطى القنص ويفترس الحيوانات البرية مثل الغزلان والماعز البري وخصوصاً الفيلة الصغيرة المعروفة بـ MAMMOTH وجدت أدوات هذا القنص في جزين وفرن الشباك وصيدا في لبنان وفي اماكن عديدة في فلسطين وفي لطـمـنـة في سوريا حيث وجدت أيضاً حجارة مقطوعة بجوار الأدوات الأشولية. تدعى هذه الحجارة MANUPORTS ولكن لا ندري الغاية منها.

والثقافتان الأبفيلية والأشولية تنتميان الى العصر الحجـري القـديـم الادنـى (LOWER PALAEO LITHIC AGE

ومنذ ثمانين ألف سنة ظهر عنصر بشري جديد على وجه البسيطة، يدعى HOMONEANDER THALENSIS أمـا الأن فـتـغـيـر اسـمـه إلـى HOMO SAPIENS نظراً نقربه الى الانسان الحالي الذي اصبح يدعى HOMO SAPIENS SAPIENS

يبلغ حجم دماغ هذا الانسان ١٥٠٠ سنتمتر مكعب؛ مثل الانسان العاقل عاقل تماماً انما يختلف عنه بميزتين: الأولى ان عظام الجمجمة خلف الحواجب بارزة بروزاً ظاهراً والثانية أن الذقن غير بارزة.

لا ندري تماماً متى اهتدى الانسان الى اشعال النار وربما كان ذلك في العصر الحجري القديم الادنى اي العصر السابق. إنما في هذا العصر أخذ الانسان يتحكم فيها، فيوقدها حين يشاء ويطفئها حين يشاء.

وفي هذا العصر اخذ الانسان يصنع أدوات ظرّانية تختلف كلّ الاختلاف عن العصر السابق. فبدلا من أن يأخذ قطعة كبيرة من الصوان ويهذبها لتصبح فأساً يدوية أخذ يشطب قشرات من امّاية صوانية ثم يهذبها لاستعمالها كرؤوس نبل أو سكاكين (رسم ٣).

وبينما الانسان المنتصب كان يقتات بلحوم الحيوانات التي يقنصها الى حد بعيد فالانسان أصبح يقتات من الثمار والأعشاب البرية أكثر فأكثر

وكان يعيش في المغاور والملاجيء الصخرية ويوقد النار أمام مغارته ليصدّ الحيوانات الضارية عنه

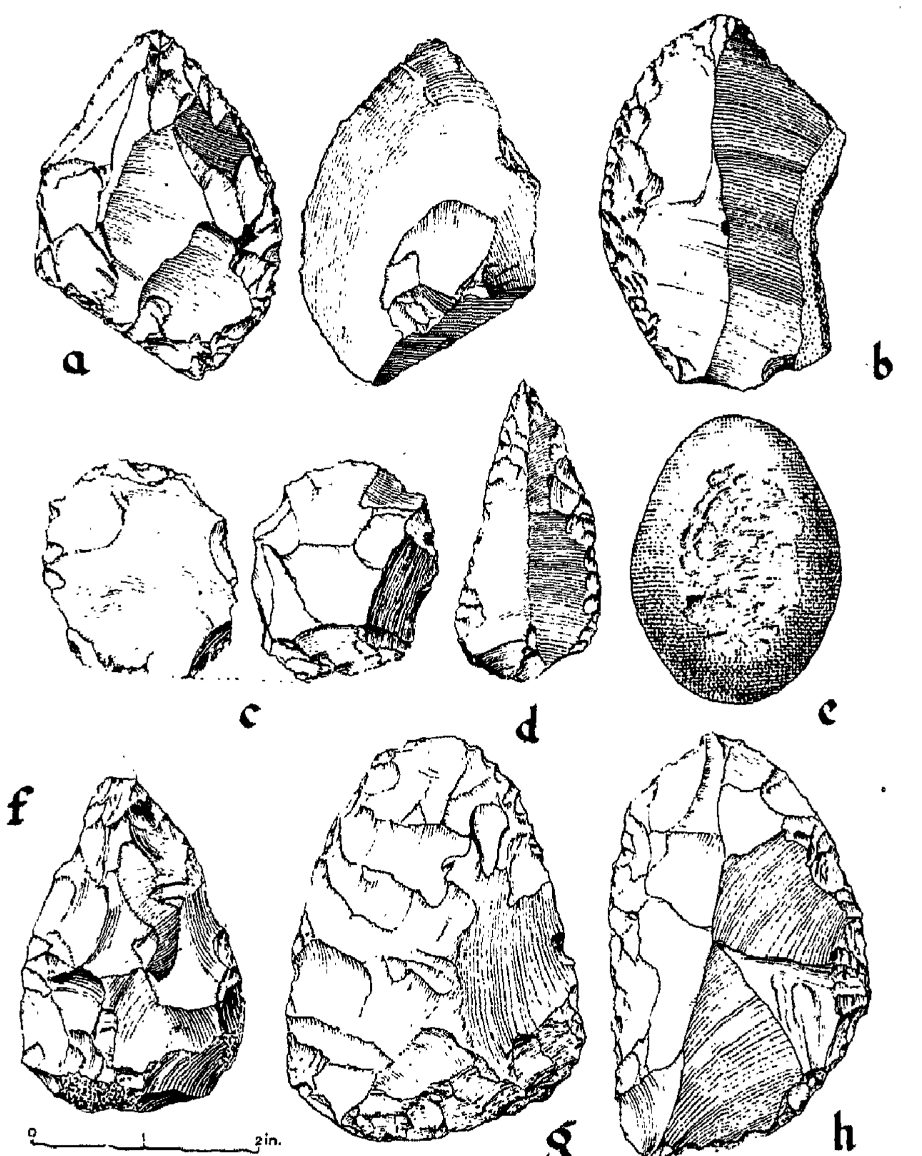
ولقد نبغ الإنسان في صنع الأدوات التي تدعى **LEVALLOISO-MOUSTERIEN**

نسبة إلى الأماكن التي وجدت فيها لأول مرة في فرنسا، وطريقة صنعها.

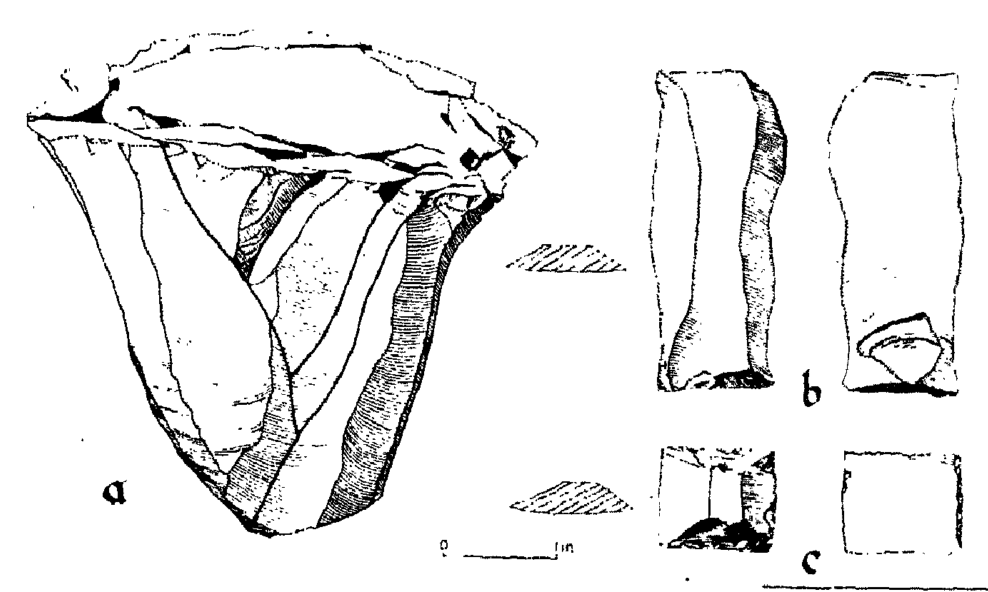
فكان الانسان يأخذ قطعة كبيرة من الظرّان ويهذبها على جوانبها الستة ثم يطرق طرف هذه القطعة ويكسر منها القشرات الصغيرة (رسم ٤) ونقطة الضرب كانت تدعى **POINT DE PERCUSSION**

ولكن الضربة تكون قوية عادة عند هذه النقطة فانها تشكل نتوءاً على القشرة يدعى **BULBE DE PERCUSSION**، وبعد ذلك تهذّب أطراف القشرة لتصبح حادة. لا نعرف امتداد هذا العصر بالضبط انما كان بحدود ٨٠ ألفاً الى ٤٠ ألف سنة قبل الميلاد.

وجدت بقايا عديدة لهذا العنصر البشري. ففي مغارة الزطيّة على ضفاف بحيرة طبرّية في



(رسم ٣) قشرات مستيرية



(رسم ٤) طريقة شطب القشرات اللفلوازية

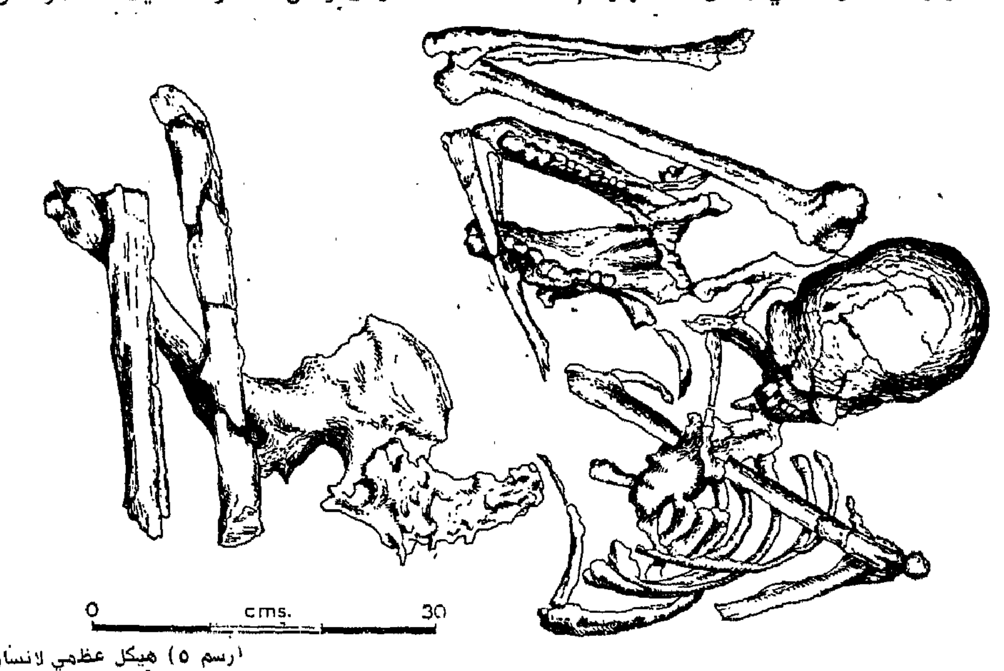
فلسطين عثر على جمجمة شخص وكميات كبيرة من القشرات اللفلوازية - المستيرية، كما عثر في مغارة الطابون في جبل الكرمل على عظام متحجرة لهذا الانسان (رسم ٥)، عدا ذلك وجدت عدة جماجم في نفس المغارة تدل على تطور الانسان ، من الانسان العاقل الى الانسان العاقل عاقل.

أما العصر الذي ينتمي اليه هذا الانسان فهو العصر الحجري القديم الاوسط، ويلي هذا العصر الحجري القديم الاعلى عندما ظهر الانسان الحالي أي الانسان العاقل عاقل، ما فتىء هذا الانسان يعيش في المغُر والملاجيء الصخرية نظراً لدنو العصر الجليدي الرابع (WURM)

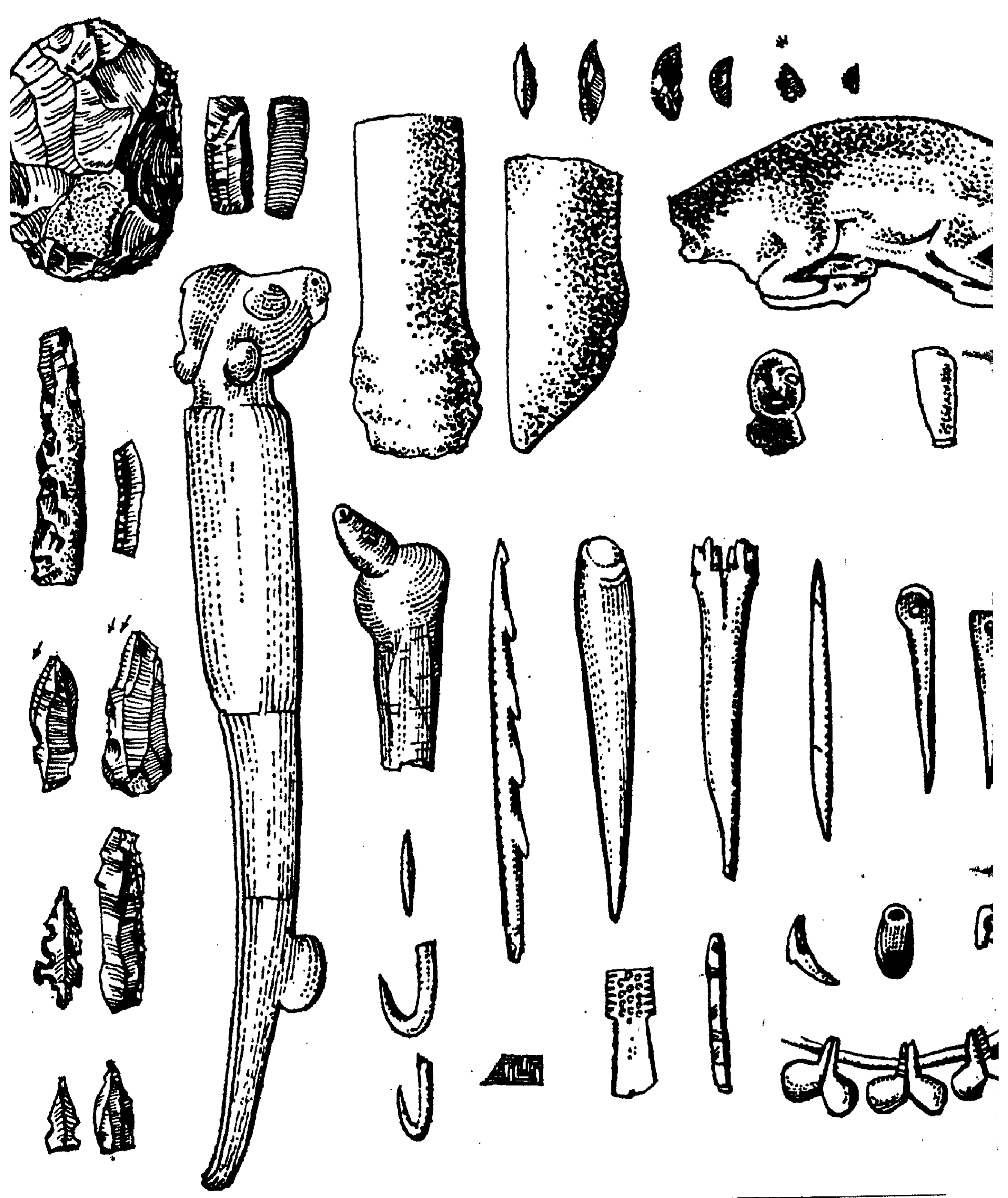
تختلف أدوات هذا العصر عن العصر السابق بشكلها وليس في طريقة صنعها فبينما القشرات اللفلوازو-مستيريّة مثلثة الشكل فشفرات هذا العصر كانت متوازية الاطراف في باديء الامر رغم التغييرات التي حصلت عليها بعد شطبها، وهذه التغييرات اكسبت الأدوات أشكالا متعددة فهنالك مقاشط طرفية (ENDSCRAPERS) ومقاشط جانبية (SIDESCRAPERS) ومقاشط عالية STEEP SCRAPERS، وشفرات منحفة، عدا ذلك هنالك شفرات مروسة وحفارات وهلم جرّا وزيادة على ذلك وصلتنا من هذا العصر الادوات المصنوعة من العظام كالابر والدبابيس.

وفي بعض الأحيان كانت بعض الشفرات تثلم عمداً على ظهرها لتوضع بايد خشبية وتدعى هذه (BACKED BLADIES)، وبعض الاحيان الاخرى كانت الشفرات مزودة برؤوس ملتوية ومروسة.

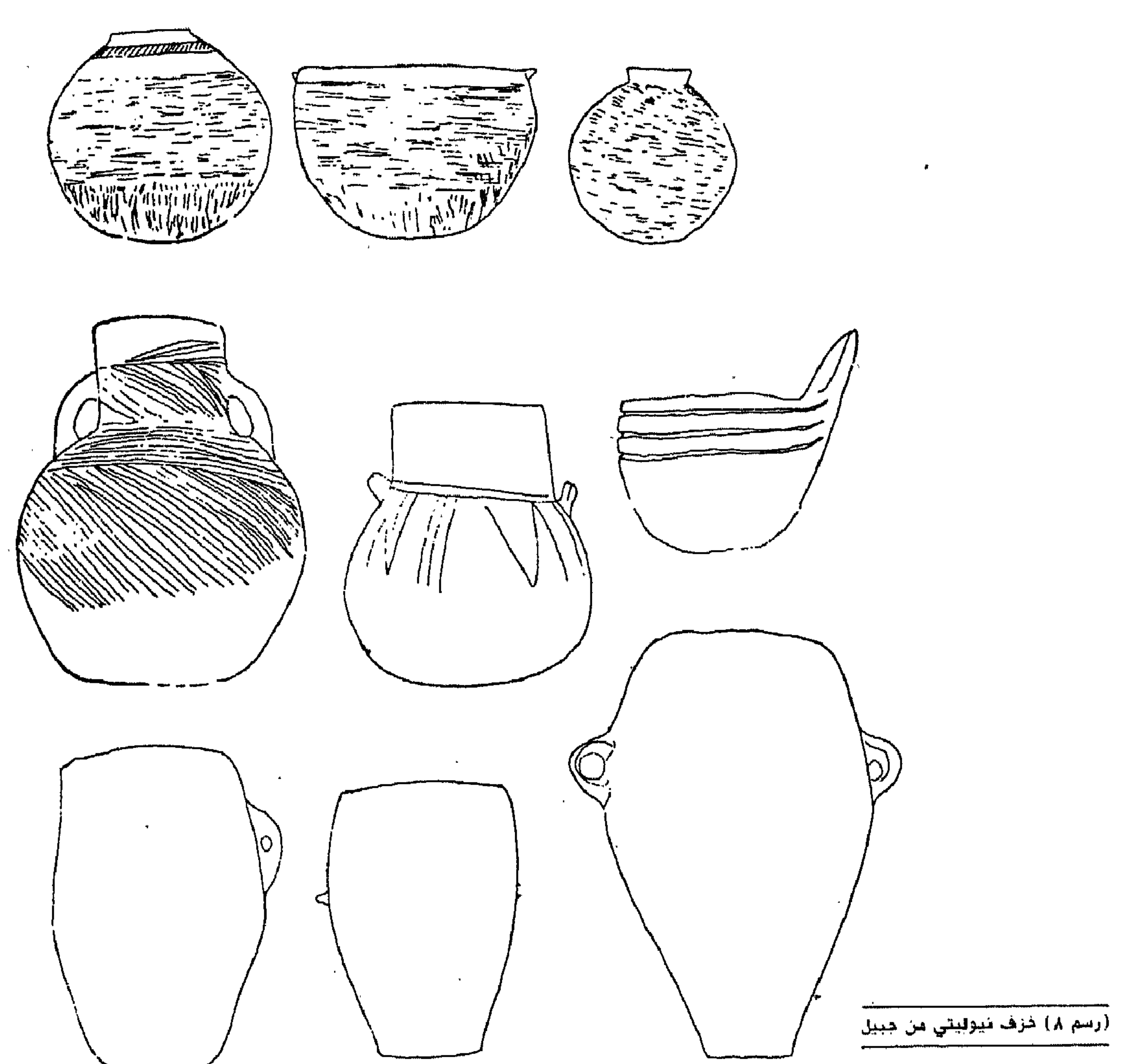
وتوجد عادة في المغائر التي سكنها الانسان في العصر الحجري القديم الاعلى عظام الحيوانات التي كان يقتات بها الانسان مثل ذي القرن الوحيد المنقرض وكان له صوف كثيف كالمموث والغزال.



(رسم ٥) هيكل عظمي لانسان الكرمل



(رسم ٦) ادوات ناطوفية من العصر المسوليتي



(رسم ٨) خزف نيوليتي من جبيل

وقبل حوالي ١٠ الاف سنة حصلت معجزة كبرى في حياة الانسان، اذ اهتدى الى الزراعة ووضع بذلك أسس المدنية. ويقال، ولكن هذا غير أكيد، ... ان المرأة هي التي اكتشفت الزراعة، اذ اخذت تغرس بعض الحبوب البرية وترويها اثناء غياب زوجها في القنص. وهذا الاكتشاف ادى الى استيطان الامكنة التي اخذ الانسان يزرع حبوبه فيها. اذ اصبح عليه ان يبقى قرب مزروعاته حتى موسم الحصاد. وهذا ادى الى مضاعفات في شكل حياته.

وهذا العصر الذي يمتد من حوالي ٨٠٠٠ سنة الى ٦٠٠٠ سنة قبل الميلاد يدعى بالعصر الحجري المتوسط او **MESOLITHIC AGE**

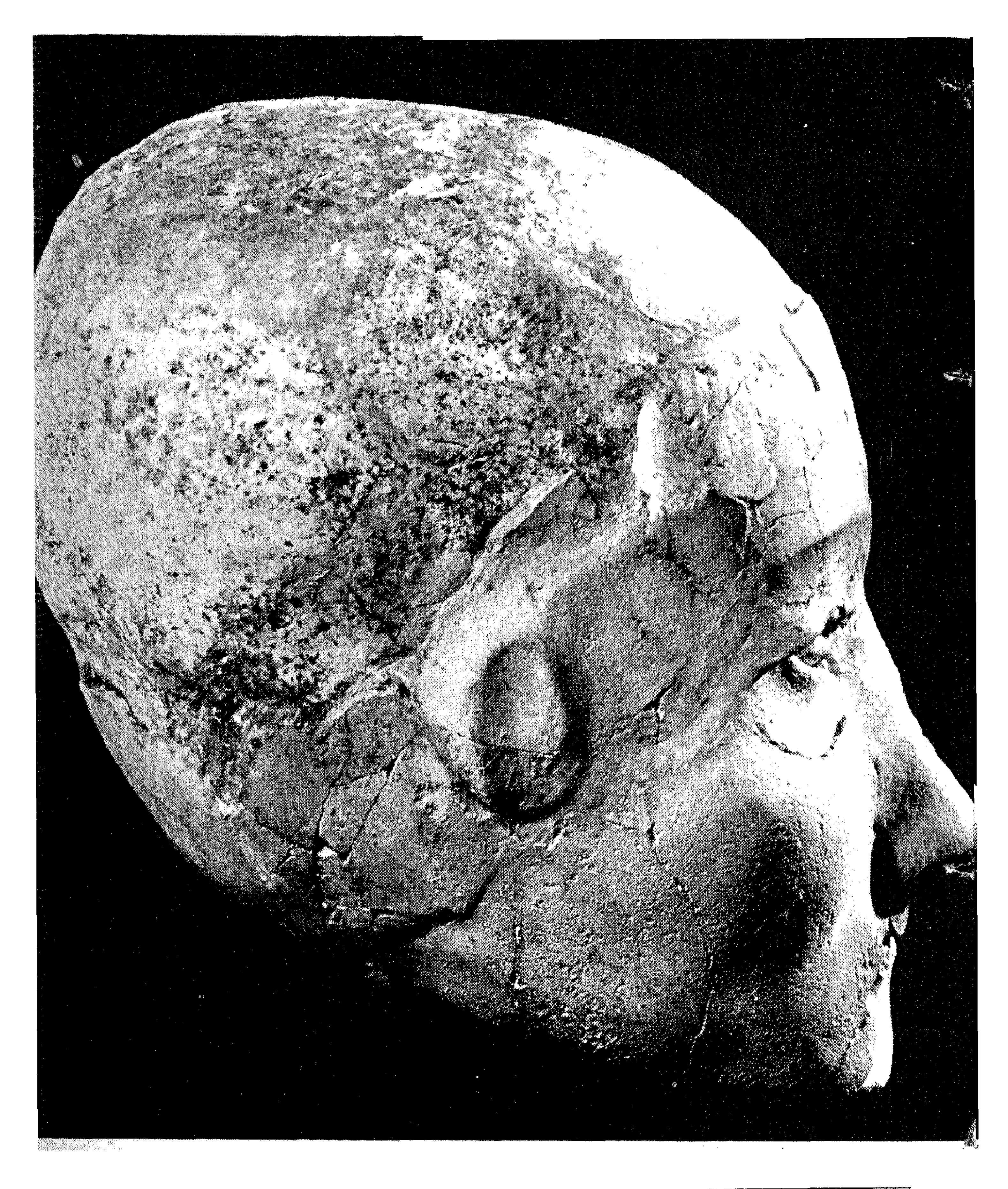
العصر المسوليثي

ما فتىء الانسان فيه يسكن المغاور باديء ذي بدء ثم انتقل بعد اكتشافه الزراعة الى السهول حيث اقام القرى الصغيرة مثل اريحا وعين ملاحة في فلسطين وحسّونة في العراق وجبيل في لبنان.

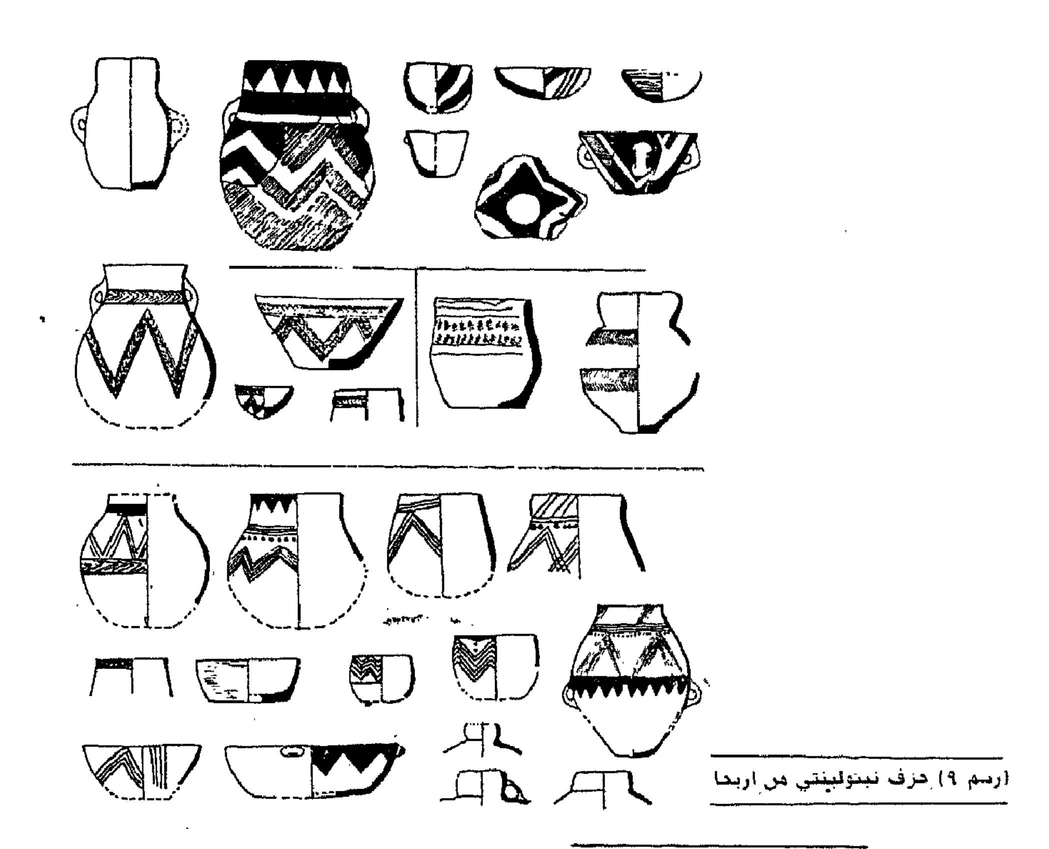
ومن ميزات العصر المسوليثي صغر حجم الادوات الظرّانية التي كانت لا تفوق السنتمترين او الثلاثة على الاكثر وغلب عليها الشكل الهلالي (رسم ٦) فكانت توضع بايد من العظم او الخشب، الواحدة بجانب الاخرى لكي تصنع منجلا او سكيناً او اي أداة اخرى.

اصبح الانسان منتجاً ولم يعد عالة على الطبيعة كما كان الامر في الماضي ونضج حسه الفني في هذا العصر الى حد بعيد. فأخذ يزيّن رأسه بالخرز المصنوع اما من الفيروز او من العظام او من صدفة الدنتاليه.

وكان ينسج ويخيط. فلقد عثر في اريحا وفي وادي الناطوف في فلسطين على ابر ودبابيس مصنوعة من العظم. كما انه كان يجرش القمح والشعير اذ عثر في اماكن عديدة على جواريش وهواوين من حجر البزلت.



(رسم ١٠) جمجمة مطلية بالجبس من العصر النيولتي



(رسم ٩) خزف نيوليثي من اريحا

العصر الحجري الحديث

وقد ادت الخطوة التي خطاها الانسان في العصر المسوليثي الى تغير شامل في حياته في العصر التالي. فالبذور التي زرعها الانسان المسوليثي نمت وترعرعت في العصر النيوليثي اي العصر الحجري الحديث. وهذ التقلبات حدت بعلماء الآثار لتسمية هذه التقلبات بالثورة النيوليثية.

من هذه التقلبات بزوغ القرى العديدة التي ظهرت في الشرق الاوسط في العراق ومصر وفلسطين وسورية ولبنان. فعندما هجر الانسان الكهوف والمغاور التي كان يسكنها وهبط الى السهول اضطر الى بناء ملاجيء وهكذا بزغت الهندسة المعمارية (رسم ٧).

في باديء الامر كان الانسان يسكن الاكواخ المصنوعة من القصب كما هي الحالة في فزان في ليبيا. إ أن الاعصارات اضطرته ان يبني اكواخاً اقوى، مصنوعة من اللبن، لاتقاء الاعصارات والامطار.

وتعاطي الزراعة ادى بصورة مباشرة الى تدجين الحيوانات. أول حيوان دجن كان الكلب الذي أخذ يقتات في العهد السابق من النفايات حول مساكن الناس. وفي هذا العهد أخذت الماعز تجتذب نحو بقايا الحصيد فأخذ الانسان يقتنصها ويدجنها شيئاً فشيئاً. وتدجين الحيوانات ادى بدوره الى ظهور النسيج والحياكة. ويجدر بالذكر ان صناعتين اخريين ظهرتا في العصر النيوليثي هما صناعة الصفصاف وصناعة الخزف (رسم ٨، ٩)

وتختلف صناعة الادوات الظرانية في هذا العصر عن العصور السابقة اولاًبسبب كبر حجمها وثانياً بسبب صقلها وعدا هذا أخذ الانسان النيوليثي يصنع الادوات والطلاسم من حجارة أخرى صلبة كالديوريت والسربنتين.

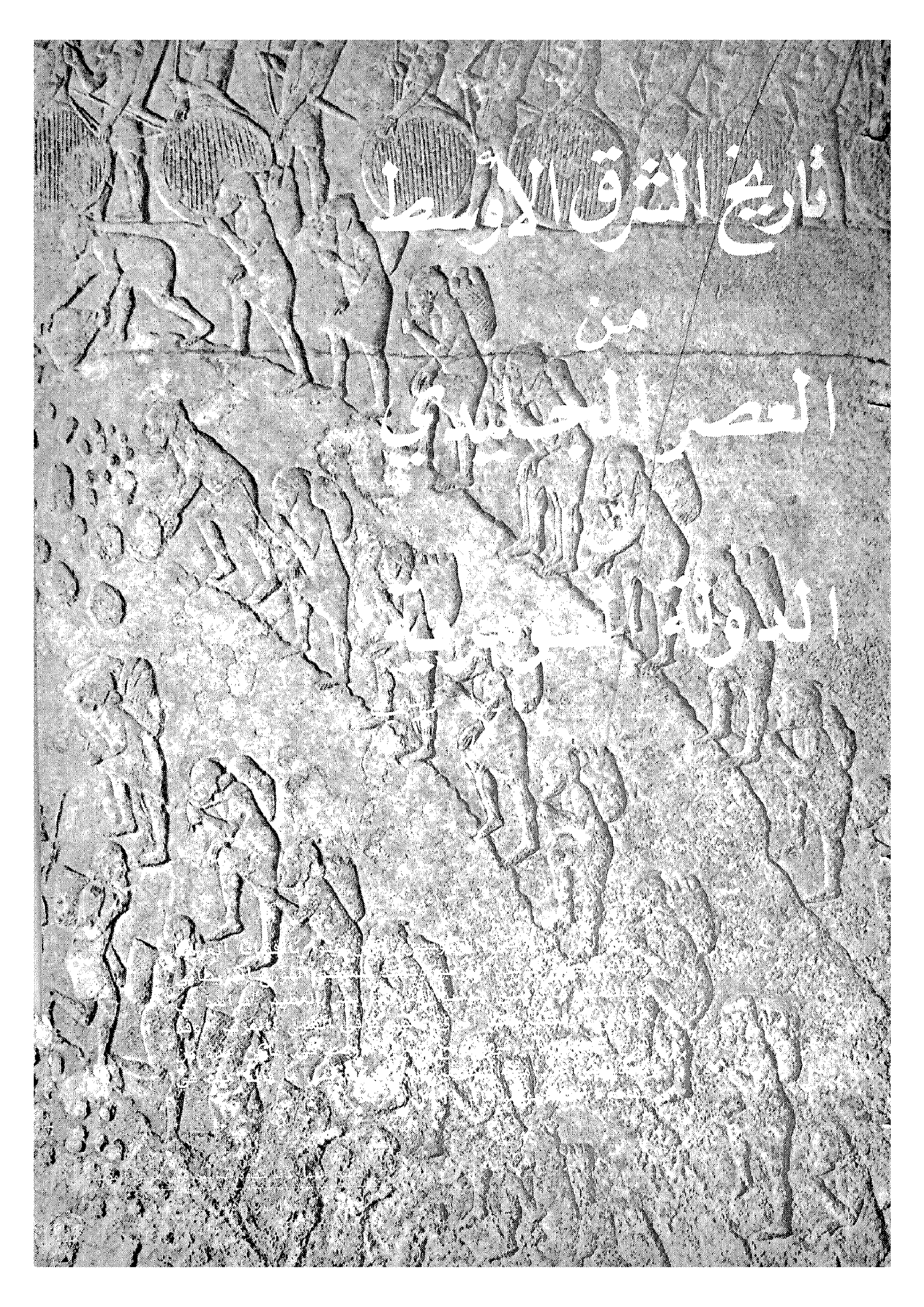
وطبعاً فإن الوعي الاقتصادي أدى الى التفنن في صنع الادوات فكانت الفؤوس والمعاول ورؤوس النبل ورؤوس الرماح والسكاكين والمخارز والمناشر والقداديم وما الى ذلك.

كذلك فإن إنتشار الزراعة على نطاق واسع غيّر في معتقدات الانسان وبما ان محصولاته الزراعية ترتهن لتقلبات الجو وتعود الى كثرة الامطار وانحباسها، فقد اخذ الانسان يعبد إله المطر والبرق والرعد وإلهة الخصاب وأخذ يصنع تماثيل لتلك الالهة ويقدم لها القرابين.

وزيادة على ذلك كان الانسان النيوليثي في العالم العربي، في الشرق الادنى يعبد الاسلاف. وقد وجدت في اريحا عدة جماجم مطلية بالجبس لتعيد ملامح وسحنة صاحب الجمجمة (رسم ١٠).

كما وان وجود عدد كبير من الناس يعيشون بالقرب من بعضهم البعض ادى الى نشوء احوال اجتماعية وسياسية. ونتج عن ذلك قيام نوع من الحكم الديموقراطي مؤلف من حاكم ومجلس شورى ومجلس عامة يضم كافة الرجال الراشدين.

وهكذا وضعت اسس حياة اجتماعية وسياسية أدت في ما بعد الى قيام المدن المستقلة **POLIS**.


تاريخ الشرق الأوسط
من
العصر الجليدي
الدولة

خلال العصر الجليدى كان أصلح جزء من العالم بالنسبة للشعوب التي تعيش على الصيد هو الجزء الواقع في أوروبا وروسيا الجنوبية ، والمنطقة التي تغطيها الصحارى الآن أي الصحراء الكبرى وصحراء العرب وصحراء وسط آسيا كانت أرضاً خضراء ولكنها كانت الى حد ما اقل صلاحية للصيد من الأراضي الواقعة في الشمال ، ولكن بانكماش غطاء الجليد اصبحت الأطراف الجنوبية منه تغطيها الغابات ، وقد اصبحت هذه المنطقة المغطاة بالغابات اليوم منطقة متقدمة الى حد كبير جداً ،

وقد كان أبناء العصر الحجري بأدواتهم الحجرية عاجزين امام الغابات فلم يستطيعوا إزالة الاشجار ، وأصبحت هذه المنطقة غير مجدية بالنسبة لابناء العصر الحجري ، كذلك أصبحت المنطقة التي تغطيها الصحارى الكبرى الآن صحارى جرداء لان الرياح المحملة بالامطار غيرت اتجاهها عندما انكمش غطاء الجليد فتحولت الارض التي كانت خضراء الى صحراء ،

أما الذين كانوا يعيشون في المناطق التي توجد فيها اليوم الصحراء الكبرى وصحراء العرب وصحراء وسط آسيا فقد استطاعوا أن يستفيدوا من جزء من أراضيهم ، وهم لم يكونوا يستطيعون الاستفادة من هذا الجزء الذي تمثل في الواحات المتبقية من عهد الاخضرار إلا باحداث ثورة اقتصادية ضخمة اي بالانتقال من مرحلة الصيد وجمع الطعام الى الزراعة واستئناس الحيوان .

وتلك كانت الثورة الاقتصادية المزدوجة التي يبدو انها حدثت بعد انتهاء آخر مراحل العصر الجليدي في عدد من الواحات التي كانت تمتد في شبه دوائر حول الهلال الخصيب ، مبتدئة من جانبي وادي النيل ومتجاوزة منطقة النيل نفسها التي كانت منطقة غابات ومستنقعات وممتدة خلال فلسطين وسورية وشمال العراق وغرب إيران حتى الخليج العربي مباشرة ، وفي هذه الواحات أمكن ممارسة الزراعة على نطاق ضيق اعتماداً على المطر والري كعامل مساعد ، وكانت هذه المرحلة ضرورية ليمر الانسان بتجربته الحاسمة في الزراعة قبل ان يغامر فينتقل بها الى اودية الانهار الكبرى ،

وكانت هذه الثورة الاقتصادية هي بداية ما يسمى بالعصر الحجري الحديث ، ولكنني اعتقد ان اكتشاف الزراعة وتربية الحيوان في ذلك العصر كانا اكثر اهمية في الواقع من ابتكار ادوات حجرية افضل ،

ولقد سمينا العصر الحجري الجديد باسم ادواته لان الادوات التي يخلفها الانسان هي اطول آثاره بقاء ، ولكن الواقع ان تلك الادوات خادعة براقة ،

وقد كانت هذه التغيرات الاقتصادية في حياة الانسان كما نعتقد هي التي صنعت العالم المتحضر خلال الخمسة آلاف سنة الماضية ، والمعتقد ان هذا العصر الحجري الجديد استمر كما تدل على ذلك آثاره في الشرق الاوسط - من حوالي سنة ٨٠٠٠ قبل الميلاد الى ٥٠٠٠ او سنة ٤٠٠٠ قبل الميلاد ،

وفي ذلك الوقت كانت الادوات المعدنية والنحاسية تظهر تدريجياً الى جانب الادوات الحجرية ،

والناس الذين زاروا الاردن ومدينة اريحا التي اعتقد انها اقدم مدينة في العالم ونظروا من قمة ذلك الجبل الى منشآت مدينة أريحا وطبقاتها التي ترجع تربتها البكر الى سنة ٨٠٠٠ ق ٠م لا بد رأوا في أسفل هذا الجبل النبع الذى كان يروي حقول أريحا منذ بدء الزراعة هناك وبمرور الوقت ارتفعت طبقات المساكن البشرية طبقة فوق طبقة حتى بلغ ارتفاع الجبل الآن سبعمائة قدم ، ولكن عندما ينظر المرء الى الطبقة الاصلية فسوف يراها من مستوى النبع ،

وهكذا فان نبعا واحدا وأحيانا واحة واحدة يتوفر فيها الماء للزراعة يمكن ان تعول سكانا مستوطنين لآلاف وآلاف من السنين ويبقى النبع كما هو ،

اما الطبقات من المنشآت والمساكن فهي تتغير بمرور القرون ، والآن فان ابتكار الزراعة وتربية الحيوان في واحات الشرق الاوسط الى جانب الاختراعات المتتابعة للادوات الحجرية المتطورة ثم اختراع الادوات المعدنية بعد ذلك: من البرونز اولا ثم من النحاس ، كل هذا قد اتاح لمبتكري الاقتصاد الزراعي الجديد الاداة التي يمكن ان يوجهوها للتطور في استغلال الموارد الزراعية الاكثر إمكانيات والاكثر غنى ، وأعني بها موارد أحواض الانهار الكبرى ، ولم تكن الادوات الجديدة هي التي يحتاج اليها الانسان للسيطرة على احواض الانهار فقد كان الانسان يملك فعلا الاقتصاد الزراعي ،

التنظيم السياسي

أما ما كان يحتاج اليه فهو شيء اجتماعي وسياسي ، فلكي يسيطر الانسان على أحواض الانهار كان في حاجة الى تنظيم سياسي جديد ،

فقد كانت وديان الانهار على قدر تصورنا لها وهي في حالتها الطبيعية الاولى مغطاة بالغابات والمستنقعات ، ولذلك فهي لم تكن صالحة الى اقصى حد للحياة البشرية كما أنه كان من العسير جداً على بني البشر أن يسيطروا عليها ، ولم يكن يمكن السيطرة عليها الا عن طريق تعاون الجهود البشرية على نطاق واسع ،



ارنولد توينبي

وهي جهود كان لا بد من بذلها لا لتؤتي فوائدها في المدى القريب بل في المدى البعيد، وكان لا بد من إقناع مجموعات كبيرة من الناس أو إغرائهم أو إجبارهم على العمل معا من أجل فوائد تأتي في المدى البعيد، اي أن الأمر كان يحتاج الى زعامة قوية قادرة على تصور المستقبل البعيد،

ونحن نستطيع أن نقول على ما أعتقد، إن سيطرة الانسان الاقتصادية على أحواض الأنهار الكبرى كنهر النيل والدجلة والفرات والسند، لا بد وأن تكون قد تمت على يد مجتمعات غزيرة بالسكان ولديها الطاقة البشرية التي تتيح لها القيام بالأعمال الهائلة للسيطرة على المياه، ولا بد أنها كانت في مجتمعات منظمة بحيث تستطيع أن تعمل معا تحت زعامة واحدة لتحقيق غايات بعيدة، ولم يكن من الممكن تحقيق ذلك دون أن تكون هناك خطة محكمة للغاية وتوجيه سديد وقيادة حكيمة،

ولم تكن الحاجة تتطلب إنشاء ضفاف الأنهار وحفر القنوات ثم ينتهي الأمر إذ كان لا بد من إصلاحها وصيانتها باستمرار عندما تتعرض للتلف أو التصدع نتيجة للفيضانات، وإن مصر بأكملها إذا كنت على صواب والعراق أو جنوب العراق تعتمد كلية على الري لمد أراضيهما الزراعية بالمياه، بينما يعتمد وادي السند لحسن حظه على الأمطار الموسمية نتيجة لهبوب الرياح القادمة من المحيط الهندي بالاضافة الى اعتماده على الري ولكنه أيضاً لا يمكن أن يستغني عن قنوات الري لتمده بالمياه بالاضافة الى مياه الامطار الموسمية، والآن بعد شق القنوات وتدعيم ضفاف النهر كان لا بد من المحافظة عليها وصيانتها الامر الذى كان يتطلب حكومة دائمة على نطاق أوسع بكثير وتتمتع بسلطات أكبر مما يتطلبه توفير الحياة في الواحات التي كانت تحيط بأودية الأنهار في الهلال الخصيب،

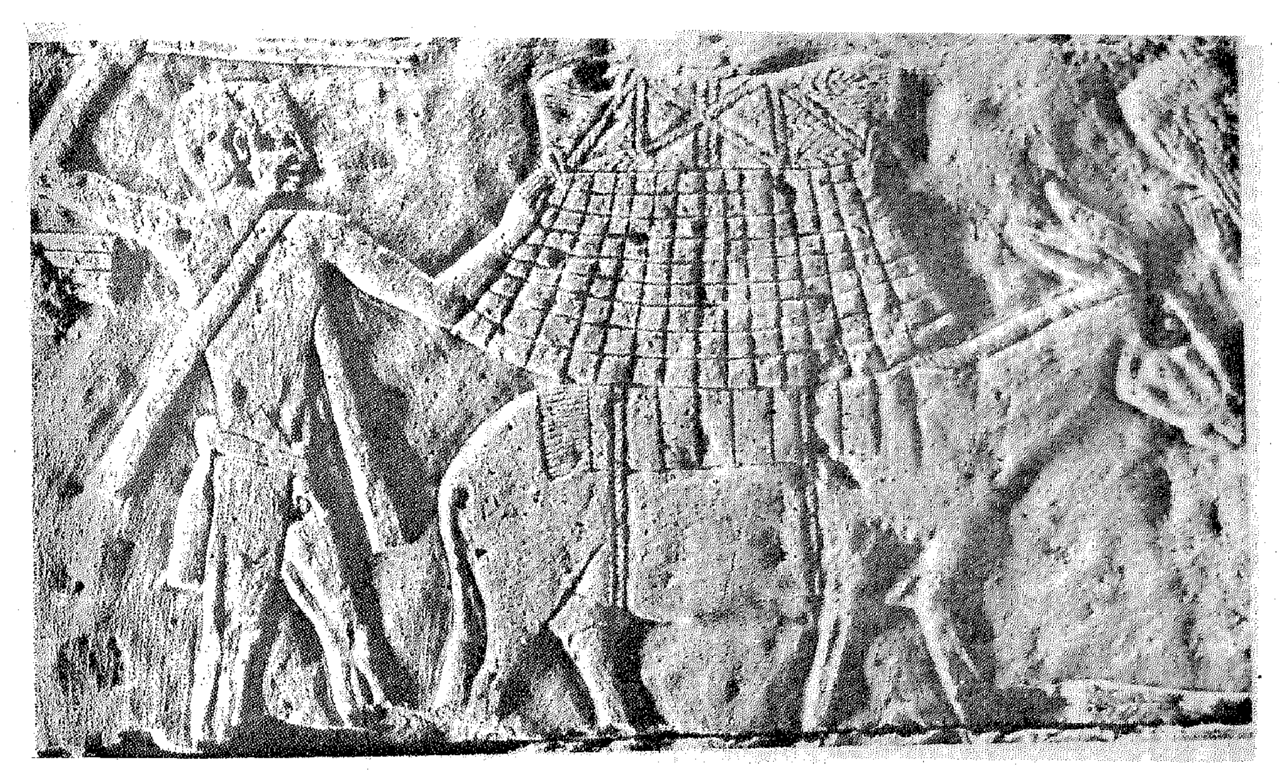
ففي الواحات كان التنظيم من وجهة النظر الاجتماعية غاية في التفكك، والحكومة قليلة الشأن، أما استغلال أودية الأنهار فلم يكن ممكناً بالمرة دون أن تكون هناك حكومة قوية للغاية، ولذلك فان تطويع أودية الأنهار والسيطرة عليها كان في حاجة بدوره الى ثورة جديدة تلي الثورة الزراعية، ولم تكن هذه الثورة ثورة اقتصادية ولكنها كانت ثورة سياسية، إنها لم تكن ثورة اقتصادية ولا ثورة تكنولوجية، ذلك ان الاقتصاد القديم والتكنولوجيا القديمة للعصر الحجري الجديد قد اسفرا بعد تنظيمهما بواسطة حكومات قوية عن احتلال أودية الأنهار وزراعتها،

وكانت الثورة السياسية هي التي حققت هذه الزيادة العظمى في مجال العمل البشري وجعلها ممكنة، واذا استطرد المرء قليلا في الحديث عن النتائج السياسية للسيطرة على أحواض الأنهار فانه واجد هناك تفاوتاً شديداً في المعلومات عن المناطق المختلفة، فنحن مثلا ما زلنا نجهل الوضع السياسي لحضارة حوض نهر السند كلية بينما نعرف الكثير عن حضارة العراق القديمة ومصر القديمة وربما ظهرت حضارة حوض نهر السند من حوالي سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد الى سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد،

ولكن رغم ما لدينا من مخطوطات عن وادي السند، فإننا لم ننجح بعد في حل رموزها ولذلك فإننا لا نعرف شيئا عن التنظيم السياسي أو عن الحياة اليومية للسكان الأول في وادي السند،

وبمقارنة هذه الحضارة مع غيرها من الحضارات في كل من العالم السومري والعالم المصري القديم فإننا نكون قد فسرنا المخطوطات المتعلقة بهما وأصبحنا نعلم الكثير عن تاريخنا القديم،

ونحن نعرف في كل من مصر والعراق القديم بداية الحضارة وبداية الزمن الذي احتل فيه الانسان حوض النهر بصورة فعالة، وفي الحالتين نجد نظاما سياسياً قوياً ضخماً نسبياً بمقارنته بأي شكل من أشكال الحكم التي كانت قائمة في الواحات المحيطة في العصر الحجري الجديد السابق، وفي الوقت نفسه فان الاوضاع السياسية القديمة في العالم السومري في العراق وفي العالم المصري القديم عند بدء الحضارة يختلف بعضها عن البعض



☐ سائق الحمار المصري من السلالة الخامسة ·

الآخر اختلافا شديداً بناء على ما استطعنا أن نحققه في ردهما الى أصولهما ·

وحينما يرتفع الستار عن السومريين في العراق نجد أن العراق قد تألفت من دويلات مستقلة صغيرة تتكون كل منها من مدينة واحدة ومن المناطق المحيطة بها ·

وحينما نرفع الستار عن التاريخ المصري نجد أن أول عمل كان هو توحيد مصر السفلى مع مصر العليا في مملكة متحدة تتكون منهما معاً، وهي التي استمرت في الواقع كوحدة سياسية وقومية واحدة حتى يومنا هذا ··

وبينما نجد أن التاريخ السومري في العراق قد بدأ بالدويلات المحلية المتعددة المستقلة عن بعضها البعض، نجد أن التاريخ المصري قد بدأ بالدولة العالمية، لان مصر - من وجهة نظر المصريين - كانت كل العالم ·

ففي الوقت الذى كانت فيه العلاقات بين مصر وسومريا نادرة وصعبة · كانت كل من الدولتين - من وجهة ها - تمثل العالم المتحضر كله ·

ولذلك نجد أن المملكة ذات التاجين في مصر كانت دولة مصرية عالمية ·

وهكذا - فمنذ فجر الحضارة - نرى أن النمطين الرئيسيين للتنظيم السياسي قد وجدا · وهما اللذان ظلا في تنافس مستمر حتى وقتنا هذا وفي عالمنا المتحضر ·

وفي خلال الخمسة آلاف عام الأخيرة انتشرت الحضارة من الشرق الاوسط في كل اتجاه حتى أصبحت الحضارة اليوم تغطي وجه هذا الكوكب كله · وها هنا لدينا النمطان الرئيسيان من التنظيم السياسي · فنرى أن الدويلات المحلية ذات السيادة - التي كانت في العراق وبابل في فجر التاريخ - تعبر عن النظام السياسي الذي يكون فيه للحرية المكان الأول، فالحرية فيه لها الأولية على النظام وعلى السلم ·

أما الدولة العالمية - التي كانت في مصر عند بداية عصر الأسر فيها فتعبر عن نظام سياسي مختلف، فهو نظام الدولة التي يكون فيها للنظام والسلم المكان الاول ·

ولذلك كان لهما المقام الاول قبل الحرية أذا قضت الضرورة بالاختيار بينهما ·

فشلان كبيران

ولقد أثبتت المآسي الكثيرة التي حدثت في تاريخ الحضارة أن كلا من الدولة المصرية العالمية والمجموعة الكبيرة من الدويلات السومرية قد فشلت ·

وأعتقد أن هذا حدث قبل نهاية الألف سنة الثالثة قبل الميلاد، لأنه في خلال الألف سنة الثالثة قبل الميلاد، انهار كل من هذين النظامين السياسيين المختلفين وذلك لأن تقسيم العالم إلى كثير من الدويلات المحلية قد أدى الى ازدياد الحروب والفوضى، تلك الفوضى، التي نتجت عن توحيد العالم السومري بالوسائل العنيفة، في دولة عالمية قائمة بذاتها، وهي ما كانت تسمى بامبراطورية عكا العسكرية الصرفة ·

ومن ناحية أخرى نجد أن توحيد مصر في دولة عالمية تحت النظام الملكي القديم قد أدى الى

قيام حكومة مركزية أصبحت فيها السلطة مركزة في القمة تركيزا كبيراً. وأعتقد أيضا أنها كانت ظالمة لرعاياها حتى أن هذه المملكة القديمة اي الدولة المصرية العالمية، قد تفتت كما نعرف جميعا بعض الوقت الى مجموعة من الدويلات المحلية على النحو الذي بدأ به العالم السومري... وهكذا نجد أن هناك فشلين سياسيين أولين قد حدثا في تاريخ الحضارة. وقد جابه المجتمع الانساني الفشل كثيراً منذ ذلك الوقت، وحتى هذه الايام.

وقد أدى كل من هذين الفشلين اللذين حدثا قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة الى خيبة أمل نجد آثارها في المقتطفات الباقية من الادب المصري، والسومري... ولكن خيبة الأمل هذه لم تؤد الى ابتكار اشكال جديدة للتنظيم السياسي، وإنما أدت الى تحول عقول الشعب من السياسة الى الدين...

وفي الحقل السياسي، أدى فشل كل من المدن السومرية، التي كانت كل منها بمثابة دولة. وفشل الدولة المصرية العالمية الى تعاقب رتيب في هذين العالمين لفترات من الوحدة وفترات من الانقسام السياسي. وأننا لنجد نفس هذه الوتيرة في الهند في عصر الدولة الاولى. وما لدينا من معلومات عن تاريخ الهند السياسي هي في الواقع معلومات ترجع الى فترة بعد ذلك بكثير فنحن لم نبدأ في العثور على سجلات لتاريخ الهند يمكن مقارنتها في الدقة بالسجلات الخاصة بمصر والعراق إلا منذ عهد بوذا في حوالي القرن السادس أو القرن الخامس قبل الميلاد.

وبديهي أن العصور السياسية في تاريخ مصر أمر معروف جدا. فقد كانت هناك المملكة القديمة، والفترة المتوسطة الاولى، ثم المملكة الوسطى، والفترة المتوسطة الثانية، ثم المملكة الجديدة، وفترات من الغزو والحكم الأجنبيين.

وهناك فترات مقابلة مماثلة لذلك في تاريخ العراق القديم... فقد أعاد مؤسس الاسرة الثامنة عشرة توحيد مصر في القرن السادس عشر قبل الميلاد، كما أعاد حامورابي توحيد الحوض الاسفل لنهري دجلة والفرات في القرن الثامن عشر أو السابع عشر قبل الميلاد

ولقد كان التوحيد في هاتين الحالتين توحيدا دائما. غير أن التحول والتغير والتقلب بين الفرقة والوحدة استمر مع ذلك في هذين العالمين ثم تليها الوحدة مرة أخرى.. ولكن منذ ذلك الحين، كان التغير والتقلب السياسي يحدث بين فترات استطاعت فيها كل من مصر المتحدة ومملكة بابل المتحدة – أحيانا – تهيئة الأساس الاقتصادي وتوفير الحبوب اللازمة لقيام امبراطورية أكبر من مصر أو مملكة بابل نفسها.

والواقع أنه خلال الفترات الأولى للوحدة والفرقة امتدت كل من مصر وسومريا أو ما يسمى بعالم بابل، الى ما وراء حدودها الاصلية.. فقد امتد عالم سومريا الى داخل ايران من جانب والى داخل سوريا حيث تداخل مع عالم بابل، كما امتد أيضا في أعالي وادي النيل الى داخل السودان.

ولقد مرت أوقات استطاعت فيها كل من مصر وبابل وشمال الهند توفير الاسس الاقتصادية، وتموين امبراطورية قائمة بذاتها.

امبراطوريات

وإذا نظرنا الى خريطة العالم القديم حوالي سنة ١٠٠ ميلادية لرأينا انها تمتد من المحيط الاطلنطي الى المحيط الباسيفيكي. وفي ذلك الحين كانت تمتد هناك أربع امبراطوريات لكل منها مخازن الحبوب الخاصة بها.

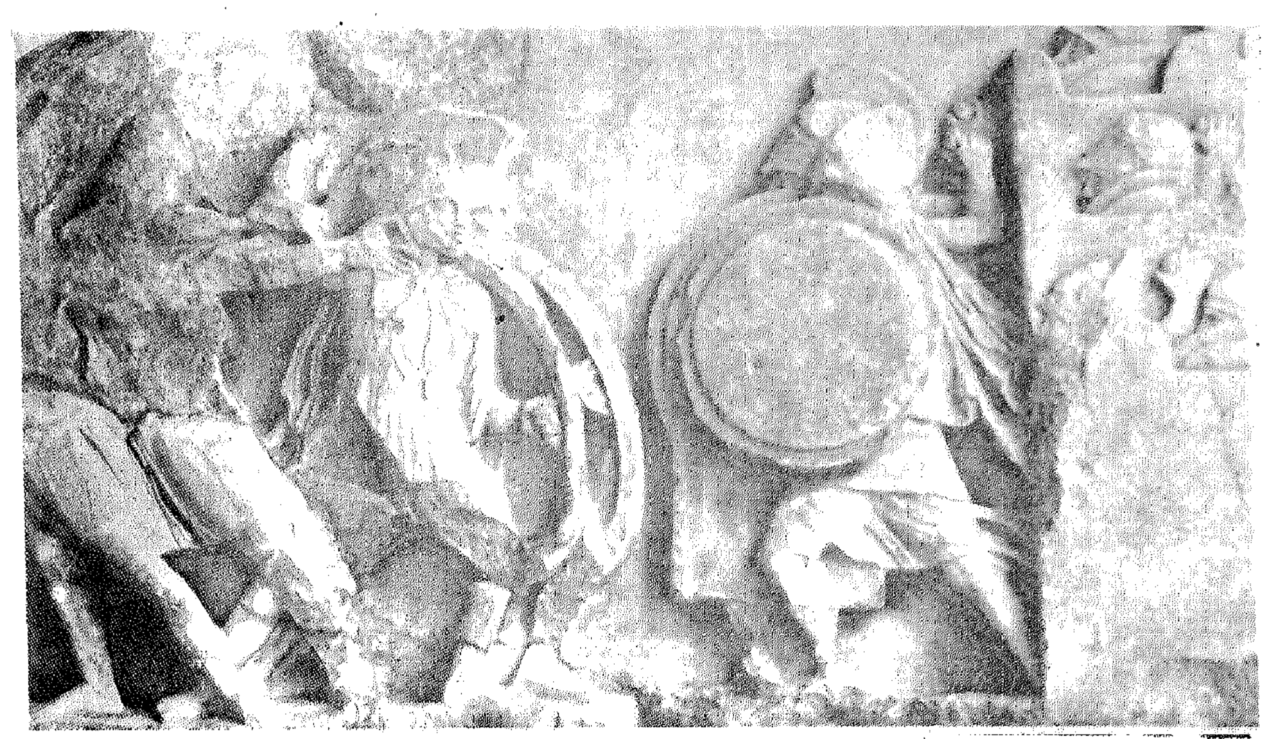
فقد كانت الامبراطورية الرومانية تحيط بالبحر الابيض المتوسط وكانت مصر تمد الامبراطورية الرومانية بمخازن الحبوب.. والى جوار الامبراطورية الرومانية كانت الامبراطورية الفارسية التي كانت إيران هي السلطة المركزية فيها غير أن مخازن الحبوب اللازمة لها كانت في العراق. وبدون العراق لم يكن في الامكان ان يكون لتلك الامبراطورية أساس اقتصادي.

وفي الهند كانت هناك امبراطورية كوشان التي امتدت عبر جبال الهند وكرش التي تمتد الآن من آسيا السوفييتية الوسطى إلى ما يعتبر الآن شمال غربي الهند، وكانت هذه الامبراطورية تعتمد على الحبوب التي تأتيها من حوض نهر السند. ثم كانت هناك امبراطورية الصين التي تمتد، من وسط آسيا إلى الباسيفيك. وكان مورد حبوبها في ذلك الحين حوض النهر الاصفر وحوض نهر اليانجتسي.

بيد أنه في عصور أخرى حدث أن اتحد بلدان أو حتى ثلاثة بلدان من البلدان العريقة في الحضارة في الشرق الاوسط تحت حكم امبراطورية واحدة كالامبراطورية العثمانية مثلا التي اخضعت كلا من مصر والعراق لحكمها.. وكانت هناك عصور اتحدت فيها مصر والعراق وحوض نهر السند تحت حكم واحد.

وأعتقد أن اتحاد أحواض هذه الأنهار الثلاثة هو الذي خلق أول امبراطورية عالمية حقيقية هي الامبراطورية الفارسية التي أسسها سيروس في القرن السادس قبل الميلاد والتي ضمت مصر في الغرب وحوض نهر السند في الشرق وشملت كل ما يقع بينهما.

وإذا استعرضنا صفحات التاريخ، فإننا سنرى أن الخلافة العربية احتلت أساساً نفس المنطقة.. فهذه المساحات الشاسعة التي احتلتها الامبراطورية الفارسية القديمة إحتلتها بدورها الخلافة العربية التي اشتملت أيضاً على مصر والعراق ووادي السند.



المنافسة تتحول الى حرب، من الحرب اليونانية - اليونانية العام ٤٣١ ق.م.

ولقد شهدت بنفسي في غرب باكستان بعض عمليات التنقيب في مكان ليس ببعيد عن وادي السند حيث كانوا يزيلون التراب عن واحدة من أقدم المدن التي أسسها الفاتحون العرب في حوض السند في القرن الثامن من التاريخ الميلادي (المسيحي) وفي القرن الثاني من التاريخ الهجري (الاسلامي). ولقد سيطرت بلادي (بريطانيا) على نحو ما ولفترة قصيرة على كل هذه الأحواض الثلاثة للأنهار، وقد حدث ذلك لفترة قصيرة للغاية بعد نهاية الحرب العالمية الأولى.

ولكن هذه السيطرة البريطانية كانت قصيرة نوعا، لأنه في الوقت الذي كانت بريطانيا تقيم حكمها الذي لم يدم غير قليل في العراق كانت الحركة الوطنية من أجل الاستقلال في مصر وفي الهند قد بدأت.

ولذلك فإننا إذا قارنا بين الوقت الذي اتحدت فيه هذه الأحواض الثلاثة للأنهار تحت حكم الخلافة العربية أو تحت حكم الامبراطورية الفارسية بالوقت الذي اتحدت فيه تحت الحكم البريطاني، فإننا سنجد أن فترة السيطرة البريطانية كانت قصيرة جداً.

التاريخ الديني

واذا انتقلت بعد ذلك إلى موضوع ربما يثير اهتماماً أكثر من موضوع التاريخ للشرق الاوسط هو النتائج الدينية للتصدع السياسي في كل من الدول السومرية التي انحصرت في نطاق المدن، والدولة المصرية العالمية للمملكة القديمة في الألف سنة الثالثة قبل الميلاد، نجد ان هذه الأحداث السياسية كان لها تأثير خطير على تجربة الانسان الدينية، وعلى تاريخه الديني.

وأعتقد أن أول ما عبده الانسان قديما كان يمثل قوى ذات طبيعة غير بشرية. مثل الرياح، والمياه، والجبال، والسحب والنباتات والحيوانات المتوحشة، فقد بدت جميع هذه القوى غير البشرية مقدسة في نظر الانسان الذي كان تحت رحمتها، فلما لم يستطع الانسان السيطرة على هذه القوى الطبيعية غير البشرية.. فقد بدت له غامضة وقوية، فاعتمد على جوانبها الطيبة من أجل بقائه، ومن ثم اتجه إلى عبادتها كاله أو كمجموعة لآلهة مختلفين، ذلك لأن معيشته وحياته اعتمدتا على قوى الطبيعة هذه التي لم يكن يستطيع أن يسيطر عليها.

ولكن هذه الأشياء التي عبدها الانسان والتي كانت ذات طبيعة غير بشرية لم تستطع أن تصمد في مجال التغير المطرد للعلاقات بين الانسان والطبيعة.

ففي نهاية العصر الحجري القديم استطاع الانسان أن يسيطر على جميع الحيوانات الأخرى باستثناء البكتيريا.. وفي العصر الحجري الحديث زاد الانسان من سيطرته على جميع الحيوانات الأخرى باستثناء بعضها ومن سيطرته على بعض النباتات بزراعتها.

وعندما استطاع الانسان السيطرة على أحواض الأنهار الكبرى وعلى الأحراش والمستنقعات ومياه الفيضانات وجعل نفسه سيدا للطبيعة غير البشرية،

ثم عندما استطاع تطويع أحواض الأنهار فالسيطرة على مياهها وتحويلها من براري غير منتجة إلى أكثر المناطق إنتاجا على سطح الأرض لصالح الانسان، كان هذا النصر الاجتماعي نصراً عظيما لقوة بشرية جماعية ومنظمة حتى لقد غير الانسان معبوداته فبدلا من أن يتخذ آلهته الرئيسية من الطبيعة غير البشرية اتخذ له آلهة من قوته وقدرته هو.

ويمكن أن نرى ذلك بوضوح في تاريخ مصر القديمة وذلك لأن فرعون مصر كان ينظر إليه علانية وبوعي كامل على أنه إله تتجسد فيه كل القوى الخيرة في الدولة أي القوى التي وحدت مصر وأخضعت لسيطرة الانسان الواحد جميع أعمال الري في وادي النيل وفي الدلتا.

وفي العراق – أي في سومريا القديمة، وبابل – فإن الانسان كان يعبد الدولة فعلا منذ سخر بعض آلهة الطبيعة القديمة لتكون رمزا للدويلات المحلية.

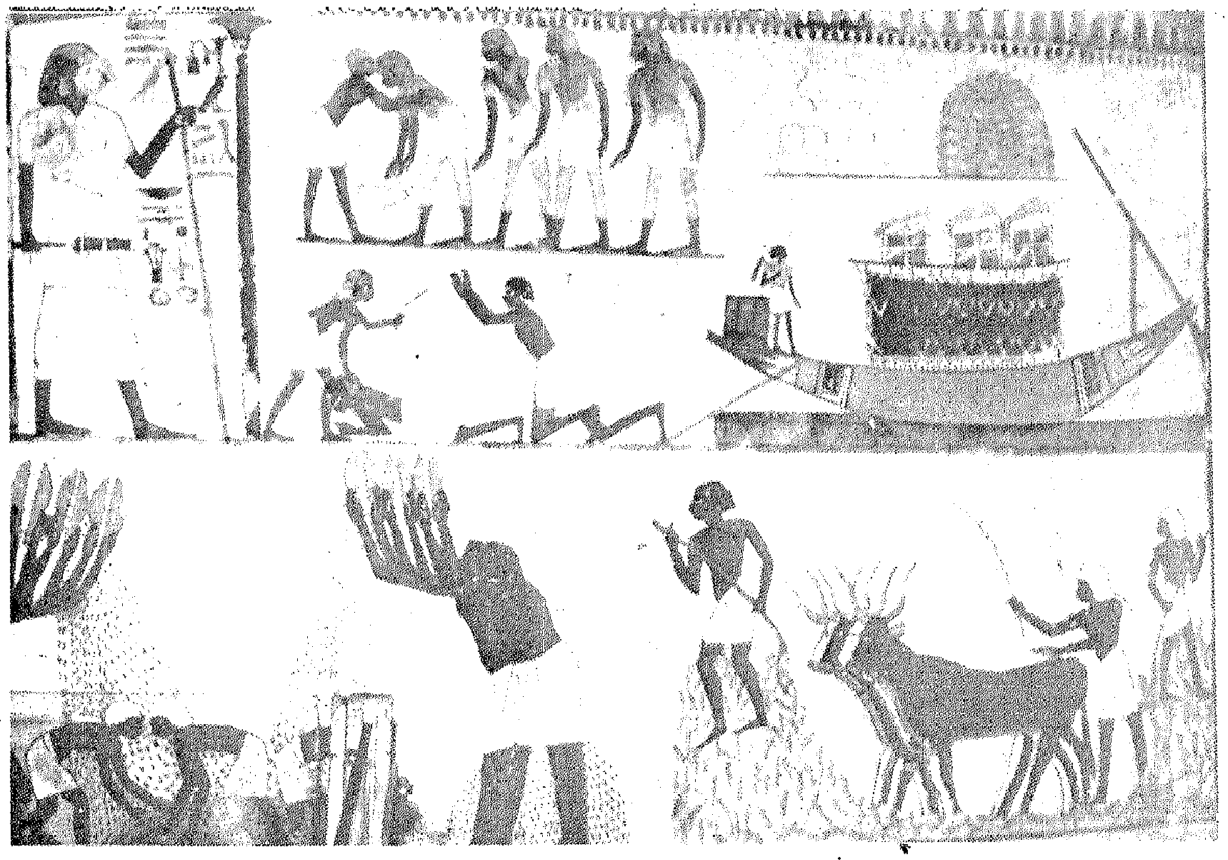
وقد فعل اليونانيون القدماء ذلك في ما بعد، فمثلا كان للاغريق إلهة لشجرة الزيتون وهي "أثينا" وأختار أهالي مدينة أثينا الالهة أثينا لتصبح الهتهم المحلية التي يتمثل فيها قوة ومجد أثينا.

وكان أيضاً عند الاغريق اله البحر "بسيدون"، وقد اختار أهالي مدينة كورينث، وكانت لها قوة بحرية عظيمة، هذا الاله لكي يكون اله مدينتهم.

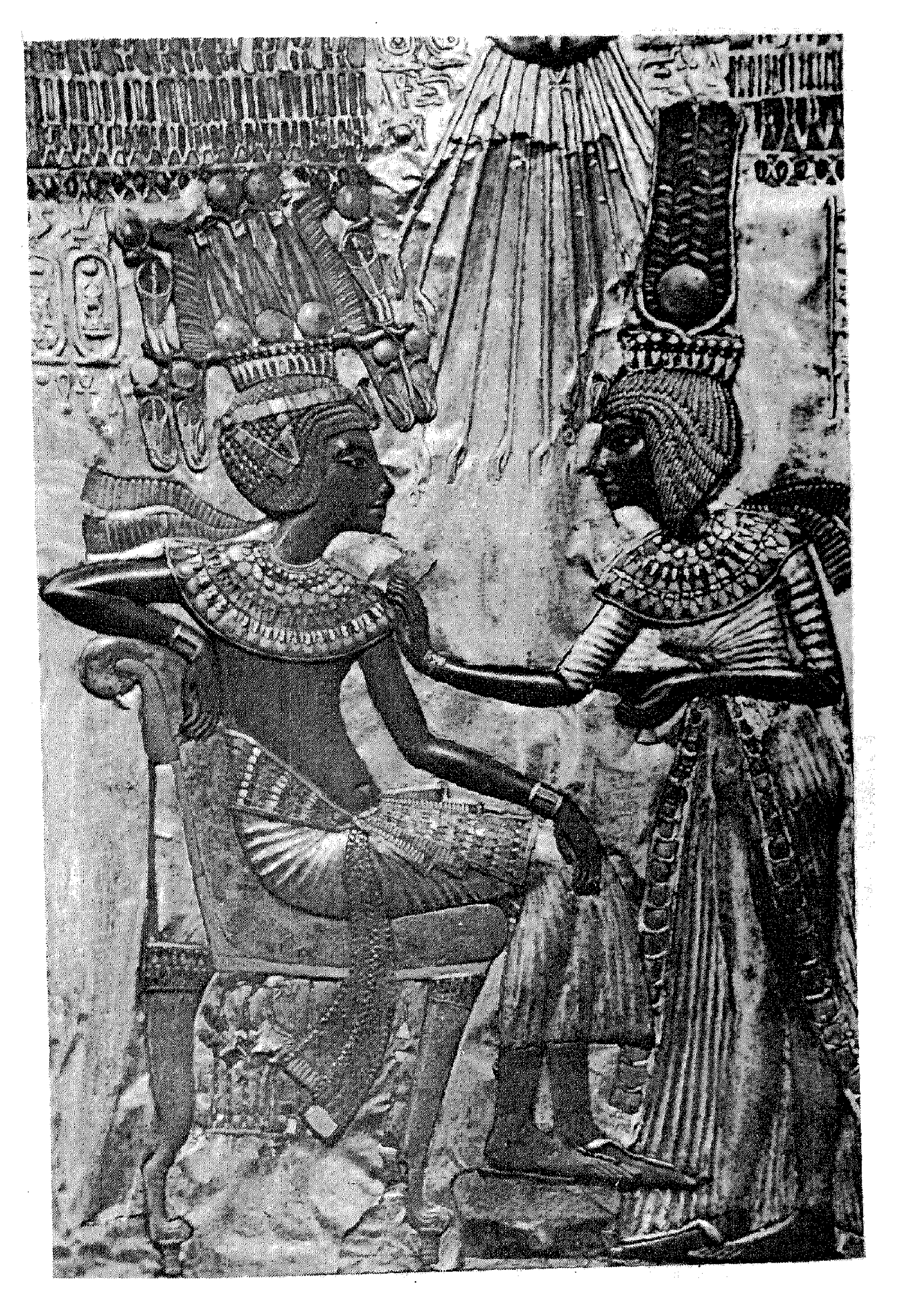
وهكذا نجد أن الانتقال من عبادة الطبيعة إلى عبادة القوى البشرية – في كل من بابل وبلاد الاغريق – مقنعا، بينهما كان ذلك ظاهراً تماما في مصر. لأن فرعون الاله الحي، الذي تتمثل فيه الدولة كان مميزا تماما عن آلهة الطبيعة القدماء.

وكان هذا التحول من عبادة قوى الطبيعة غير البشرية، إلى عبادة القوى الانسانية الجماعية، كان ثورة دينية، ولكن أحداً لم يدرك أنها ثورة.

لقد كان هناك اعتقاد بأن القوى غير البشرية المقدسة هي جزءان أو مظهران لنظام كوني موحد.. واعتقد أنه كان من الممكن في نظر الانسان، كما كان من المرغوب فيه المحافظة على قوى الطبيعة وقوى المجتمع البشري في حالة انسجام مع بعضهما البعض، فلم يكن فرعون مصر أو امبراطور الصين مجرد ممثلين أو مالكين للمجتمع البشري الذي كانا يرأسانه ولكن كان كل منهما أيضاً المحافظ على القوى الطبيعية التي تعتمد عليها حياة ووجود ذلك المجتمع البشري.. وإذا كنت على صواب فإن أحد الاحتفالات السنوية الهامة التي كان يقيمها فرعون – والتي كان يقيمها، بعد انتهاء التاريخ المصري القديم، حكام مصر اللاحقون حتى الحكام الأجانب منهم فترة طويلة بعد ذلك – هو الاحتفال بالفيضان أو وفاء النيل، وهو على أن سيد المجتمع الانساني مسؤول أيضاً عن التحكم في قوى الطبيعة.



☐ الأقطاعي مينا يرقب أعمال فلاحية. من السلالة الثامنة عشرة.



في الصورة نظام العبيد في مصر الفرعونية .

وفي مرحلة التحول الدينية هذه كانت هناك قوة دينية سياسية وحيدة تحافظ على الانسجام بين عبادة الطبيعة وعبادة الانسان.

وقد تزعزع تصور الانسان لطبيعة الكون وما ينبغي أن تكون عليه أهداف الدين من جراء الفشل السياسي الذي بدأت به الحضارة مستقبلها في احواض الأنهار، فقد أصبحت الدول ـ نتيجة لذلك ـ موضوع العبادة الأول.

خيبة الأمل

ولذلك لم يكن الفشل السياسي مجرد فشل سياسي. لقد كان أكثر من ذلك، كان فشلا دينيا، وكان الإنسان يشعر بأنه فشل ديني.

وهكذا نجد أن فشل الدويلات السومرية، وفشل الدولة المصرية العالمية أدى الى خيبة أمل دينية، كما ادى الى خيبة أمل سياسية، ان لم نقل خيبة أمل سياسية بالاسترداد المؤقت للنظام السياسي السابق.

وقد كان من السهل نسبيا بعد فترة قصيرة نوعا ما من الاستبداد اعادة بناء الكيان السياسى القديم ولكن لم يكن من السهل اعادة ثقة بني البشر بكفاية هذه الأنظمة السياسية في مجال الدين أو في مجال السياسة فلم يعد بنو البشر يشعرون بالرضى الكامل لعبادة القوة الجماعية وكذلك لعبادة القوى ذات الطبيعة غير الإنسانية، وعندما بلغت متاعب الإنسان الخاصة وهي المتاعب التي يلقاها كل منا في حياته القصيرة فوق هذه الأرض حد الأزمة، أقول عندما بلغت هذه المتاعب هذا الحد وزادت من جرائها المتاعب العامة المؤقتة شعر الإنسان بحاجته إلى المعونة الإلهية أكثر من ذي قبل.

ومن هنا، لم تكن خيبة أمل البشر بشأن موضوع عبادتهم السابقة هي خيبة أمل بالنسبة للدين نفسه، وأنني أعتقد أن نتيجة ذلك كانت دفع البشر للبحث عن الله ليس خلال القوة البشرية الجماعية كما كان الحال قديما ولا في محاولة التوفيق بين المجتمع البشري والقوى الطبيعية غير البشرية ولكن عن طريق تصور لله" ليس خلال القوة البشرية الجماعية كما كان الحال قديما ولا في محاولة التوفيق بين المجتمع البشري والقوى الطبيعية غير البشرية ولكن عن طريق تصور لله" نفسه، والآن ظهر الزعماء الروحيون والأنبياء، ونفذت بصيرتهم من خلال هذا القناع ووصلت إلى رؤية مباشرة لله" نفسه، الله الذي لا يراه الإنسان من خلال الاقتصاديات أو من خلال السياسة بل بطريقة مباشرة، وفتح هؤلاء الزعماء الجدد أفقا للأرواح البشرية لكي تستطيع الاتصال بالله بطريقة مباشرة، والأتصال به على انفراد كأفراد بسطاء من عامة الناس وليس بطريقة مباشرة من خلال المجتمع الإنساني الذي ينتمون إليه.

أرنولد توينبي: ولد البروفسور أرنولد جوزيف توينبي في اليوم الرابع عشر من ابريل عام ١٨٨٩، وتعلم في ونشستر، ثم التحق بكلية باليول بجامعة أكسفورد حتى عام ١٩١٥، ثم عمل بالوظائف الحكومية في أعمال خاصة بالحرب من ١٩١٥ ـ ١٩١٩ وشارك في مؤتمر السلام الذي انعقد في باريس عام ١٩١٩. ثم عمل في القسم البريطاني الخاص بالشرق الأوسط ومدرسا للغة البيزنطية والأغريقية الحديثة في جامعة لندن (١٩١٩ ـ ١٩٢٤) ثم مديرا لقسم البحث الأجنبي والصحافة.

ثم مديرا للمعهد الملكي للشؤون الخارجية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٣) فمديرا للمكتب الأجنبي من (٤٣ ـ ٤٦) ثم عضوا في بعثة المفاوضات في مؤتمر السلام بباريس عام ١٩٤٦، وعمل أستاذا للبحث في التاريخ العالمي في جامعة لندن واستقال في ١٩٥٥.



التوأمان السياميان
هكذا
عاشا...
وتزوجا...
وأنجبا...
ثم ماتا معاً!..

يطلق، طبياً وشعبياً، على كل توأمين اسم "التوأمان السياميـان" والاطبـاء، بشكـل عـام ينجحون بعملية الفصـل عندمـا يكـون التوأمـان طفلين. ولكن ماذا نعرف عن السياميين الاصليين اللذين أعطيا اسمهما لهذه الظاهرة؟ لقد أوجدا تعبيراً لغوياً جديداً. ولكن قصتهما نادراً ما عرفت.

لم يكن "التوأمان السياميان"، كما قد يظن، اول مخلوقين انسانيين يولدان ويعيشان ملتصقين. لقد عرفت حالات كثيرة كهذه في القرون الماضية، فكانت أشهرها حالـة اليـز ومـاري شولكهرسـت الخادمتين اللتين ولدتا عام ١١٠٠ في قرية "بيدندن" في مقاطعة "كنت" وكانتا ملتصقتين من الاكتاف وعاشتا حتى الرابعة والثلاثين من العمر وهما تقومان باعمال جيدة وحصلتا على عطف المؤسسات الخيرية. لكن التوأمين السياميين كانا أول "توأم ملتصق" يشتهر كثيراً خارج وطنه...

لم يكونا "سياميين" أصليين فعلاً... لقد ولدا في قرية "كدينك" الصغيرة على ضفة نهر "سيام" قرب "بانكوك" وأمضيا فترة طفولتهما في "سيام" كان والدهما صينياً يمتهن صيد السمك ووالدتهما قروية سيامية فقيرة أنجبت أطفالا آخرين طبيعين. قد أطلقت على "توأمها الملتصق" اسم "شانغ" و"انغ"

عند ولادتهما، وجدا ملتصقين من جانب الصدر والخصر على امتداد حوالي أربع بوصات. وفيما غير ذلك كانا انسانين طبيعيين كلياً...

في البدايـة كـان مكـان الالتصـاق يجعلهمـا متواجهين ولكن مع نموهما بدأ الطفلان يتمددان جانبياً الى ان أصبحا يتمكنان من التحرك جانبياً والجلوس بصورة شبه عادية. كان الظن في البداية ان الجزء الملتصق الذي جعلهما مختلفين عن باقي البشر في العالم هو جزء مطاطي يسمح لهما بحرية محدودة أحياناً ويحدد هذه الحرية في أغلب الاوقات. ولكن اكتشف انه اذا قام أحد الاشخاص بلمس هذا الجزء كان الولدان يشعران بذلك معاً. واذا فقد أحدهما توازنه أو تأرجح كان الاخير يحميه من السقوط لكونه يمسك به جيداً...

وكالاطفال السياميين الفقراء واجه التوأمان صعوبة الحياة ملتصقيـن. وبعـد عـدة محـاولات استطاعا المشي والركض شيئاً فشيئاً...

لقد تعلما أيضاً السباحة منذ صغرهما وكان ذلك سبباً في تغيير مجرى حياتهما كلياً. وكانا ضيفي الشرف في القصر الملكي في "بانكوك"، وعاشا حياة طبيعية حتى عام ١٨٣٠ عندما بلغا التاسعة عشرة.

وفي تلك السنة شاهدهما وهما يسبحان القبطان الاميركي "الكابتن كوفين" الذي أطلع تاجراً يدعى "روبرت صنتر" على ما رأته عيناه. وقرر الاثنان محاولة شراء التوأم لعرضه في أوروبا وهما يظنان بأن ذلك سيجلب لهما الثروة.

ولم يكن ذلك ممكناً لولا حادث معين وقع يومها.

فقد توفي والد التوأمين وفضلت والدتهما النقود على صحبتهما. وقد تم الاتفاق وقام "كوفين وصنتـر" بنقـل "شانـغ" و"انـغ" الـى انكلترا، حيث عرضا على الناس لسنوات، وكانا يثيران بينهم العجب والانبهار وعدم التصديق. وجمع الشاريان من وراء ذلك ثروة في مدة قصيرة. الى ان قام احد المواطنين بتوجيه رسائل الى الصحف يدعي فيها ان ذلك قد يجعل الاطفال ينحرفون فكرياً. وقد رفضت فرنسا دخولهما بعد أن قررت سلطاتها ان أي امرأة حامل قد تضع شبهاً لهما بعد رؤيتهما.

طبياً يعتبر التوأمـان السياميـان نتـاج عـدم الانفصال الكامل للبويضات. وهما دائماً توأمان طبيعيان بالتالي من جنس واحد.

مات الكثير من هذه الحالات في المهد ولكن في حالة "شانغ" و"انغ" فان نقطة الاتصال في الجسم كانت وحيدة وهي تفسر السبب لحياتهما الطويلة

وفي كل حال فقد لعب القدر دوراً كبيراً فيهما، فرغم اتصالهما الجسدي كانا منفصلين في كل شيء آخر. كان "شانـغ" "التـوأم "الشمالـي" شـرس الاطباع متعجرفاً ويميل كثيراً الى الخمر والنساء. وكان اقصر من شقيقه التوأم "الايمن" الهادئ والمفكر والذي يميل الى الثقافة ولم يكن يحب شيئاً أكثر من سهرة هادئة يقضيها في لعب الشطرنج.

وكما كتبت "المجلـة الطبيـة" الصـادرة فـي فيلادلفيا عام ١٨٧٤:

كان "انغ" يكره ما يحب "شانغ" تناوله من الطعام. وكان شرساً وعزقاً. كان مرض احدهما لا يؤثر على الآخر فعندما ترتفع حرارة واحد منهما قد يكون الآخر بحالة عادية. كان "شانغ" يشرب بكثرة وأحياناً يسكر ولم يكن ذلك ليؤثر بتاتاً على "انغ" وكثيراً ما كانا متفاهمين وفي بعض الاحيان يكون خصامهما وحشياً وفي احدى المرات وصل الامر بهما الى المحاكمة.

لقد كره أحدهمـا الآخـر طيلـة الحيـاة وكـان الانفصام في الشخصية يتملكهما رغم اتحادهما. وعندما يكونان وحدهما كانا يندبان حظهما بصمت. أحياناً كانا يقبلان أن يفعلا أولا ما يطلبه أحدهما ثم يعمدان معاً الى تنفيذ طلبات الآخر! لكن الخلافـات تستمر، والعمل المشترك الوحيد الذي أحباه في مراهقتهما كان قطـع الأخشـاب والصيـد البـري والبحري، ورغم كل ذلك كانا رجلين ذكيين.

بعد احدى المنازعـات العنيفـة قـررا وجـوب انفصالهما، والا فانهما سيصابان بالجنون. كانا قد استشارا عدة أطباء مهرة وفي ذهنهما أن الانفصال ضرورة ملحة. لكن الجواب كان واحداً دائماً، لا يمكن ضمان حياتهما بعد عملية جراحية تفصلهما. هذه المرة ذهبا الى طبيبهما الخاص، الدكتور "هولينغ ورث" وطلبا ان يفصلهما. إدعى "انغ" أن "شانغ" سيء الى درجة لـم يعدمعهـا يستطيـع العيش معه. أما "سانغ" فقد طلب ان يحصل على

قرية ميكلونغ في سيام حيث ولدا

نفس حظ اخيه وأن يجري الفصل في الوسط تماماً. ولكنهما في النهاية اقتنعا بانه يجب عليهما التروي وأخذ الامور ببساطة خاصة وأن كل المراجعات الطبية في أوروبا وأميركا اثبتت أن هذا الانفصال غير ممكن.

وقرر "كوفين" و"صنتر" أن يعيدا في أميركا عملية العرض التي نجحت في أوروبا فعرضا التوأمين في "بوسطن" أولا حيث اشتهرا بأنهما "عجيبة" ثم في نيويورك ومدن أخرى حيث ظهرت الاعلانات عنهما قائلة "الولدان السياميان المزدوجان"

وفي أميركا سرت شائعة بأنهما توأمان لكنهما غير ملتصقين. وقد أثار ذلك اهتمام "فيناس.ت. بارنوم" فقابل التوأمين كليهما على انفراد واستجوبهما واتخذ ترتيباته لفحصهما طبياً. وعندما تأكد من أنهما فعلا ملتصقان؛ قرر ان يتولى هو زمام أمورهما بدلا من مكتشفهما. وتعاقد معهما محتفظاً لنفسه بحق الادارة الوحيدة وقام بعرضهما في متحفه الكبير "المتحف الاميركي للأنواع النادرة" مع كل من "ابهام الجنرال توم" وغيره. ورغم نجاحهما قبل أن يسمع "بارنوم" بهما فان الفضل في شهرتهما العالمية يعود اليه.

وفي هذه المرحلة وصلا الى الاتفاق الوحيد في حياتهما: لقد احتقر كل من "شانغ" و"انغ" صاحب العرض لأنه كان يشكل مذلة كبيرة لهما، وحاولا تجنبه كلما استطاعا الى ذلك سبيلا.. رغم ذلك فقد جمعا عن طريقه ثروة مهمة. وأخيراً قررا الانسحاب من هذه الحياة الهامشية التي تجعلهما يواجهان يومياً وجوهاً ترتسم عليها الدهشة. أنذرا "بارنوم" بذلك وخططا للانسحاب من كل عمل دعائي. الا انهما منذ وصولهما الى أميركا التي سمحت لهما بالحصول على الثروة وهما ما زالا في الثلاثينات قررا ان يصبحا "مواطنين اميركيين" وقد حصلا على اسم لعائلاتهما من احد الذين قدموا طلبات يومها الى مكتب التجنيس. وهكذا اصبحا شانغ وانغ بانكر، المواطنين الاميركيين.

وقام التوأمان ببناء منزل فخم لهما بالقرب من "مونت ايري" في كارولينا الشمالية واستقرا بين مجموعة من المهاجرين الاوائل. كان العبيد يقومون بالاعمال؛ وكان ذلك مكاناً جيداً لحياة غريبة لا يتمناها أحد. الا انه كان ينقصها شيء واحد... فالتوأمان كانا ما زالا عازبين.

في الثانية والثلاثين تعرفا ووقفا في حب شقيقتين كان والدهما مهاجرا ايرلندياً فقيراً يسكن بالقرب منهما. وفي أحد الايام ركب التوأمان عربة الى الشارع الرئيسي "لمونت ايري" وترجلا وكل منهما يحيط بذراعه احدى الفتاتين، سارة وادلايد يانس. وكانت تلك أول مرة يعلم فيها الجيران بهذه القصة الغرامية. وانطلقت الألسن في الحديث.

كان الكثيرون يعتقدون حتى ذلك الوقت بأن شانغ وانغ لا يمكن تسميتهما بأنهما بشريان. ولكن بمجرد سكنهما بالقرب منهم غير هؤلاء

فكرتهم، أما ان يتزوجا بفتاتين طبيعيتين فكان ذلك أكثر مما يهضمه الناس الذين حطموا نوافذ مزرعة "ياتس" وهددوا والد الفتاتين بالحرق ان هو سمح باتمام الزواج، وهكذا فشل غرام الزوجين وسجن كل منهما نفسه في مزرعته.

لكن الحب الحقيقي لا يعرف الفشل، فبعد الضجة بقليل كان الأربعة يلتقون سراً في احدى التلال خلف المدينة بعد اجتيازهم جسراً صغيراً، واستمرت هذه العلاقة الغرامية السرية عدة اشهر قرروا بعدها الزواج رغم معارضة الجميع، أصبح انغ حبيب "سالي" وشانغ حبيب "أدي".

وقبل ان يفترقوا اتفق الجميع على انه يجب ان ينفصل الشقيقان لكي يستطيعا ان يعيشا حياة طبيعية، ذهب "شانغ" و"انغ" الى المعهد الجراحي في فيلادلفيا حيث علما ان هناك أطباء مهرة على استعداد لاجراء العملية لوجه التقدم العلمي، اذا وافق الشقيقان على تحمل الخطر، ووافق التوأمان مع علمهما التام بأن يوم العملية قد يكون آخر أيامهما.

وفي اليوم الموعود جاءا الى المعهد وفيما كانت تجري الترتيبات لاجراء العملية وصلت الفتاتان، وجرى نزاع كبير اختلطت فيه الدموع بالمناقشات والمعارضة، وانتهى بان يبقى التوأمان "شانغ" و"انغ" كما هما وخرجا مع خطيبتيهما السعيدتين.

بعد شهرين، في ربيع ١٨٤٣ شهدت كنيسة "مونت ايري" اغرب زواج مزدوج عرف في التاريخ، ورغم معارضة العائلة واستهجان الناس،كان الاربعة آخر من اهتم بالتعقيدات الجسدية والنفسية التي أثارها الضجيج حول زواجهم، ورغم ذلك استمر التناقض والخلاف بين الشقيقين عاماً كما استمرت أيضاً المصالحات.

لقد أنشأ التوأمان منزلا آخر مشابهاً تماماً للمنزل الاول وعلى بعد ميل واحد منه، لقد استعجلا خطتهما ببناء عشين للزوجية، كان "انغ" مع "سالي" وبوجود "شانغ" يقضيان ثلاثة أيام بلياليها في منزل "انغ" ثم يقوم "شانغ" و"ادي" لقضاء ثلاثة أيام بلياليها في منزل "شانغ" وبحضور "انغ" طبعاً، ويبدو أن هذا الترتيب الفريد في نوعه نجح نجاحاً تاماً، وكان الزوجان ناجحين، وانجبت الزوجتان عائلتين كبيرتين، "سالي" و"انغ" أنجبا أحد عشر طفلا و"شانغ" و"ادي" عشرة، كان جميع الاطفال طبيعيين وبحالة جيدة ما عدا اثنين كانا أخرسين وأصمين، وعلى مدى ثلاثين عاما عاشت عائلتا التوأمين باتفاق تام.

عندما اندلعت الحرب الاهلية خسر التوأمان عبيدهما وبالتالي تزعزعت ثروتهما وحياتهما الهانئة، واجبرا أخيراً على العودة الى حياة العرض لكي يتمكنا من العيش.

ورغم خلافهما السابق مع "بارنوم" وشكهما به في هذا المجال فقد طلبا منه العودة الى ادارتهما، وكانت عودتهما الى نيويورك فاشلة، لان مصائب الحرب اجهضت كل شعور تجاه العجائب.

وبدون رادع، كما هو حاله دائماً، قام "بارتوم" بارسالهما الى انكلترا حيث لقيا نجاحاً منقطع النظير لمدة سنة، وكان "بارنوم" قد اعلن ان الهدف الرئيسي لزيارتهما هو جمع المال للانفصال، وطريقته الخاصة في الاعلان وجدت صدى حسناً لدى الجمهور، أما في الواقع فلم يكن هناك شيء من الصدق في اعلانه اذ لم تعد عملية الانفصال واردة وانتهى البحث فيها بعد أن أصبح التوأمان متزوجين ومسؤولين عن عائلتيهما.

SIAMESE TWINS.



For Day only.

CHANG-ENG

Very respectfully acquaint the Ladies and Gentlemen of

That they will be in that place, on

And will receive Visitors at the

The HOURS OF ADMISSION, will be from

أحد الاعلانات عن تقديمهما للجمهور في أميركا

عندما تجاوز التوأمان الستين من العمر كانا ثريين بما فيه الكفاية لتأمين تقاعد الى الأبد وانتهى عقدهما مع "بارتوم" بصورة نهائية وعادا مرة ثانية الى الهدوء والسلام في "مونت ايري" ليعيشا مع ابنائهما في منزليهما المتشابهين "واربي" و"جون".

بقي "شانغ" مريضاً لفترة من الزمن وكان ذلك بسبب افراطه في تناول الكحول، وكان أمامهما مستقبل يبشرهما بسعادة اكثر مما نالا في الماضي، ولكن كانت سعادة قصيرة الاجل.

وقد حلت النهاية بصورة مفاجئة وغريبة معاً، في أحد الايام القارحة البرد من كانون الثاني ١٨٧٤، والسجل السنوي لذلك الوقت يفصل ما حدث كما يأتي:

كانا في منزل "شانغ" وكانت تلك الامسية الوقت المحدد للانتقال الى منزل "انغ" كان النهار بارداً و"شانغ" يشتكي منذ أشهر من أنه مريض جداً، مساء الجمعة دخلا الى غرفة صغيرة فاستراحا ثم ذهبا الى السرير فلم يستطع "شانغ" أن ينام. وفي وقت ما بين منتصف الليل وبزوغ الفجر كانا يقومان ويجلسان أمام المدفأة، وكان "انغ" يعترض قائلا انه يريد الاستلقاء لأن النعاس يغلبه،يرفض "شانغ" ويجيبه بأن الاستلقاء يؤلم صدره.

بعد قليل عادا الى السرير ونام "انغ" نوماً عميقاً.

حوالي الرابعة صباحاً دخل أحد الاولاد الى الغرفة، وفيما كان متوجهاً الى أحد اطراف السرير وجد عمه ميتاً، واستيقظ "انغ" على الضجة فالتفت مذعوراً الى الميت على شماله، وعندها اصيب بنوبة عصبية مميتة.

لم يكن هنالك أي طبيب، وكان يجب قطع ثلاثة أميال للوصول الى مدينة "مونت ايري" كان يموت المرء أحياناً قبل قطعها، ذهب أحدهم الى القرية لاحضار الدكتور "هولينفورت" الذي ارسل شقيقه، وهو الاخر طبيب، ولكن اللحظة الحاسمة حلت قبل وصوله ومات "التوأمان السياميان".

أحد التقارير يروي ما حصل كما يأتي:

بعد تأكده من موت أخيه انفجر "انغ" باكياً وأصيب بالاغماء مع نوبات عصبية أودت بحياته.

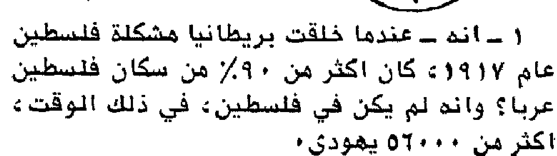
لقد شعر "انغ" قبل وفاته بان شقيقه الشرير القاسي الذي تخاصم معه طيلة ثلاثة وستين عاماً كان جزءاً من نفسه. وهذا الاكتشاف الرهيب والاعتراف القاسي بالواقع سبب له خوفاً رهيباً أودى بحياته.

"سالى" و"ادى" رفضتا عروضاً كثيرة من المبالغ المالية الطائلة لشراء جسدي زوجيهما ومقابل ذلك قاما بتقديم الجثتين الى "المعهد الجراحي في فيلادلفيا"

وأخيراً استطاع الاطباء الاطلاع والتعمق في السبب الذي اثارهم لسنين طويلة. اثبت التشريح ان "شانغ" و"انغ" كانا يملكان جهازاً عصبياً منفصلا، لكنهما كانا يشتركان في الكبد والدورة الدموية، وان أية عملية كانت ستجري لهما كانت ستسبب وفاتهما. وسبب عدم تأثر "انغ" ابداً بكميات الكحول التي كان يتناولها شقيقه هو أن جهازه العصبي كان اكثر حساسية من جهاز أخيه لذلك لم يكن ليحتاج الى الكحول. كانا شخصيتين في جسد واحد.

كان "شانغ" و"انغ" محكومين اما بالعيش سوياً أو بالموت. واذا نظرنا بامعان الى حياتهما نجد الكثير من الاعمال التي قاما بها لينجحا في حياتهما.

ولم يسع العالم الا تقديرهما والاعجاب بهما لكونهما عاشا في ظروف لم تحصل لكائن بشري آخر أهمها... أن لا يكون وحده أبداً.



د. فايز صايغ

١ ـ انه ـ عندما خلقت بريطانيا مشكلة فلسطين عام ١٩١٧، كان اكثر من ٩٠٪ من سكان فلسطين عرباً؟ وانه لم يكن في فلسطين، في ذلك الوقت، اكثر من ٥٦٠٠٠ يهودي.

٢ ـ وان اكثر من نصف أولئك اليهود الذين كانوا يعيشون في فلسطين في ذلك الوقت، كانوا من المهاجرين الجدد، الذين قدموا اليها في السنوات الخمس والثلاثين السابقة هرباً من الاضطهاد في أوروبا؟ وان أقل من ٥٪ من سكان فلسطين عام ١٩١٧ كانوا من اليهود الفلسطينيين المواطنين؟

٣ ـ وإن عرب فلسطين كانوا يمتلكون في ذلك الوقت ٩٧١/٢٪ من الآراضي، بينما لم يكن في حوزة اليهود (المواطن الفلسطيني منهم والمهاجر الجديد) الا ٢١/٢٪ من الأراضي؟

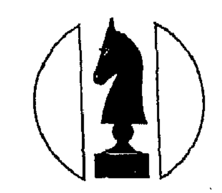
٤ ـ وإنه، خلال ثلاثين عاما من الاحتلال والحكم البريطاني، لم يستطع الصهيونيون ان يتملكوا سوى ٣١/٢٪ من أرض فلسطين ـ وذلك على الرغم من تشجيع الحكومة البريطانية؟ وان الحكومة البريطانية هي التي نقلت ملكية معظم هذه الاراضي الى الهيئات الصهيونية ولم يبعها ملاكها العرب؟

ـ وأنه، لذلك، لم يكن في حوزة الصهيونيين أكثر من ٦٪ من مجموع مساحة اراضي فلسطين عندما نقلت بريطانيا قضية فلسطين الى الامم المتحدة عام ١٩٤٧؟

٦ ـ وانه، على الرغم من هذه الحقائق، فقد أوصت الجمعية العامة للامم المتحدة بانشاء "دولة يهودية" في فلسطين؟ وان توصية الجمعية العامة منحت هذه "الدولة" المقترحة حوالي ٥٤٪ من مجموع أراضي البلاد؟

٧ ـ وان اسرائيل استولت أثر ذلك (ولا تزال تستولي) على ٨٠،٤٨٪ من مجموع مساحة أراضي فلسطين؟

٨ ـ وإن معظم هذا التوسع حدث قبل ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨ أي قبل انتهاء الانتداب البريطاني رسمياً وانسحاب القوات البريطانية من فلسطين، وقبل دخول الجيوش العربية الى فلسطين وقيام الحرب بين الدول العربية واسرائيل؟



تاريخ الشطرنج بالقصص

تاريخ

اعداد: محمد مراد سكر

رئيس اتحاد الشطرنج اللبناني .

من وضع الشطرنج ؟ من اخترعه ؟ هل في الامكان تحديد تاريخ اختراعه؟ اسئلة كثيرة حيرى، واساطير كثيرة حوله . ويظهر. ان اصله تائه في ليالي الزمن وان تكن اغلب الكتب ارجعته الى الهند ومن هناك امتد الى بلاد فارس والى مصر والى الجزيرة العربية . ومن الهند انتقل ايضا الى الصين فاليابان، ومن احد هذه البلدان امتد الى اليونان والى روسيا وسوى ذلك من انحاء العالم . ويكاد يكون من المؤكد كما يذكر كثير من المؤرخين العرب ان الشطرنج امتد الينا من الهند وفارس وانتقل الينا بعد الفتوحات الاسلامية لبلاد الفرس ومن ثم نشره العرب في فتوحاتهم الاخرى . وتقول بعض المصادر ان الشطرنج كان معروفا قبل الاسلام . وحتى لا نخوض كثيرا في التفاصيل التي نجدها في كتب كثيرة سننهج في مقالاتنا الشهرية منهجا جديدا فنذكر ما يقع تحت ايدينا من قصص شطرنجية في مختلف الكتب القديمة ونترك للقارىء الكريم ان يكوّن لنفسه فكرة عامة عن تاريخه ونوادره، آملين ان نكون بهذه الطريقة قد قدمنا مسلسلا قصصيا لا يمله القارىء يختلف عن البحث الجاف التي تقدمه عادة كتب التاريخ . ولن يكون لهذه القصص تسلسل تاريخي اي الاقدم فالاحدث انما سنحاول وفقا للترتيب الابجدي لدول العالم او وفقا لما يقع تحت ايدينا ان نذكر في كل مرة قصصا رويت في تلك الدول عبر التاريخ، بادئين بحرف الالف آملين من القراء الكرام ان يوافونا برأيهم وبما عندهم من القصص

من المانيا

يقول هايد: ان التجار الذين كانوا يشتركون في معارض المانيا في التاريخ القديم، كانوا يقضون اوقات فراغهم اثناء المعارض في لعب الشطرنج، فاذا دهمهم الوقت ولم يبق لهم ما يسمح لهم بانهاء الجولة، كانوا يؤجلونها الى المعرض القادم، وعند ذاك يستدعون كاتب العدل الذي يأخذ علماً بوضع الجولة وبمركز كل قطعة على الرقعة ليكملوها في عامهم المقبل .

اعطى دوق برونسويك احدى مدنه التي يملكها اسم "شاخ ستاد" اي مدينة الشطرنج واعطى اهلها ميزات خاصة شرط ان تكون لدى كل عائلة رقعة من الشطرنج لتحدي اي غريب قد يزور هذه المدينة . ويذكر "ماليه" في كتابه لعبة الداما في الصفحة ٢٧٢ الى ٢٧٤ القصة التالية التي جرت في مدينة دعاها فولفيرغان .

في اوائل القرن الحادي عشر أُرسل الكونت دي كونجيلان سجيناً بأمر من الملك هنري الثاني (الالماني) الى اسقف مدينة ستروبيك مع امر بالتشدد في حراسته . فوضع الكونت في قلعة قديمة محكمة الابواب . وكان الكونت شغوفا بالشطرنج، فقام ليخفف من عناء سجنه ووحدته، بصنع رقعة من الشطرنج مع كافة القطع الضرورية، في البدء اخذ يلعب لوحده ثم رأى ان يبدأ بتعليم الشطرنج الى القرويين الذين كانوا يتناوبون على حراسته، فاحب القرويون اللعبة ونقلوها الى منازلهم يعلمونها الى اهلهم واولادهم، وزاد تعلق القرويين باللعبة حتى اصبحت شيئا مهما في ستراوبورغ، وامست بعد نيف من الزمن قسما من عاداتهم فاخذوا يعلمونها في المدارس ثم تناقلوها جيلا بعد جيل، واخذوا ينظمون في كل عام مباراة في الشطرنج يشترك فيها كل مرّة ٤٨ طالبا من

احسن لاعبي القرية، يعطى الرابح فيها رقعة شطرنج يشترك فيها احسن صناع القرية. وفي مهرجان خاص يحملون الرابح وسط الاهازيج الى منزله حيث يعلقها في صدر المنزل وتصبح بالتالي موضع فخر واعتزاز للعائلة.

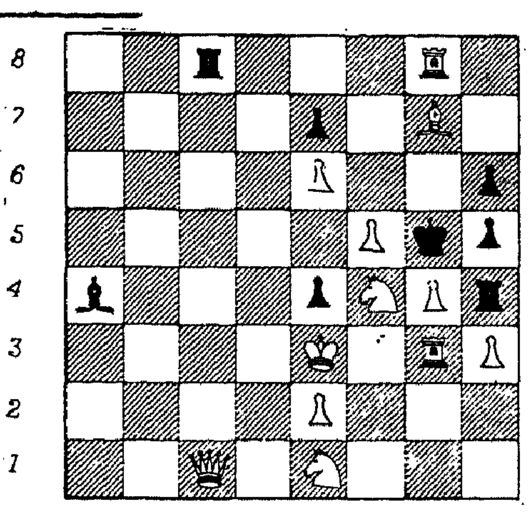
واذا زفت احدى بنات هذه القرية الى غريب، كان على العروس قبل مغادرة القرية ان تلاعب القاضي الاول للطائفة جولة واحدة لتبرهن للملأ انها لا تزال تحافظ على تقاليد القرية، ويجري هذا الاحتفال عادة في احدى صالات نزل معروف باسم "الي الشطرنج".

تقع ستراوبورغ هذه، على بعد الف ميل من مدينة هاليرستاد في مقاطعة ماغد يبورغ. (نشرت هذه القصة في البالاميد سنة ١٨٢٦).

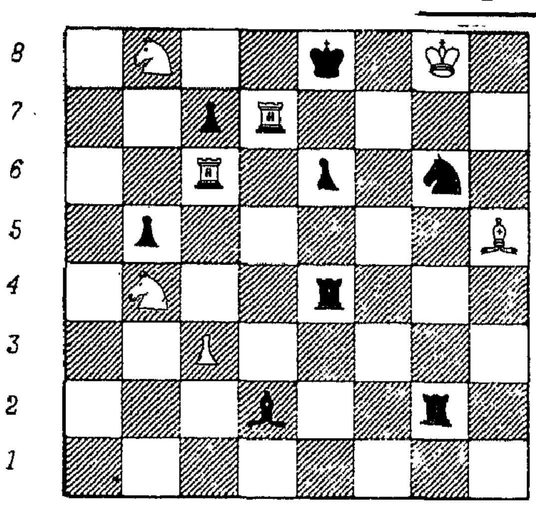
وفي كتاب نشر سنة ١٦٤٧ م هذه الاسطورة: كان لاوكاريوس ولد في قصر بيبان يلاعب الامير الصغير الشطرنج وكان الولد امهر من الامير وكان يتغلب عليه كثيراً، ويظهر ان ذلك صعُب على الامير فقام بضرب الغلام حتى مات.

وفي كتاب اخر نشر سنة ١٦٧٤، يقول مؤلفه غوتفريد ان الامبراطور فالاتينيان كان يلعب الشطرنج دائما مع القنصل مكسيم في روما سنة ٤٥٥ م وكانت زوجة القنصل تروق في عيني الامبراطور فاخذ يحاول عبثا الاجتماع بها. وفي احد الايام بعد عدة جولات شطرنجية كانت الغلبة فيها للامبراطور واستطاع فيها ان يربح ما كان يحمله القنصل من المال مضافا اليه خاتمه الخاص، أرسل الامبراطور الخاتم مع رسول خاص الى زوجة القنصل يطلب منها الحضور الى القصر لتلحق بزوجها الموجود هناك والخاتم دليل علم الزوج بذلك. ولم تكد تصل حتى استقبلها الامبراطور بالترحاب وابقاها حتى قضى وطره منها مما اغضب القنصل الذى استطاع القيام بحملة قضى فيها على الامبراطور.

مسابقة الشطرنج



فاز بنقلتين



فاز بثلاث نقلات

سننشر في كل شهر مسألتين في الشطرنج وستخصص جوائز شهرية للفائزين الثلاثة الاول في حل المسألتين معا. اننا سنحتفظ باسماء كل الذين استطاعوا حل هذه المسائل على ان تجري القرعة في ما بينهم آخر العام لاختيار فائز واحد يكون صاحب الحظ ببطاقة سفر من بيروت الى اي بلد عربي يختاره.

الجوائز هي:

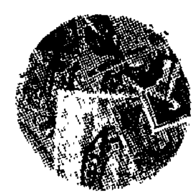
١= مائة ليرة لبنانية او ما يعادلها للفائز الأول

وسننشر في كل عدد مع الحل الصحيح للمسائل المنشورة اسماء الذين توصلوا الى الحل الصحيح في المدة المحددة والذين سيكون لهم الحق بالاشتراك في الجائزة السنوية.

ترسل الحلول الى ادارة المجلة ص.ب. ٥٩٠٥ ويكتب على الظرف مسابقة الشطرنج. يجب ان يصل الحل قبل نهاية كل شهر ويعتبر خاتم البريد على الظرف بمثابة التاريخ الصحيح للارسال.

٢= اشتراك لمدة سنة في "تاريخ العرب والعالم" للفائز الثاني

٣= اشتراك لمدة نصف سنة للفائز الثالث



ماذا تعرف عن الطوابع ؟

تاريخ

اعداد: ميشال اسطفان
الاخصائي في الطوابع

لئن كانت الطوابع البريدية قد وجدت أساساً للتخليص البريدي، فانها ما لبثت ان لفتت انتباه الناس، فاقبلوا على جمعها، واذا هي متعة وتسلية، وحقل خصب لاختبار الذوق والفن، واقتباس المعرفة التاريخية والجغرافية ...

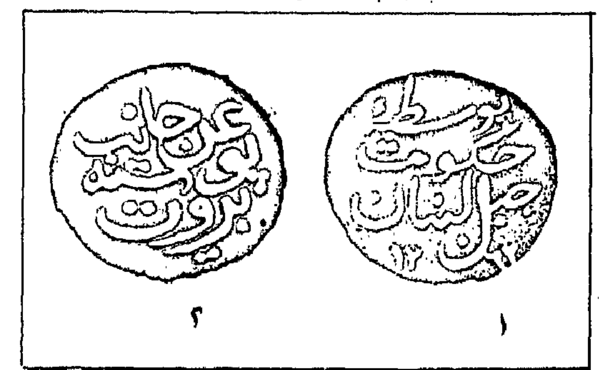
وهذه الطوابع الزهيدة القيمة في الاصل ترتفع اثمانها باضطراد، واذا جُمعت بحسب الاصول، ولو بمبالغ زهيدة فانها تؤمن لصاحبها استثماراً ناجحاً ومستمراً.

وها نحن في خدمتك ايها القارىء لتكوّن من هواة جمع الطوابع الناجحين.

لبنان

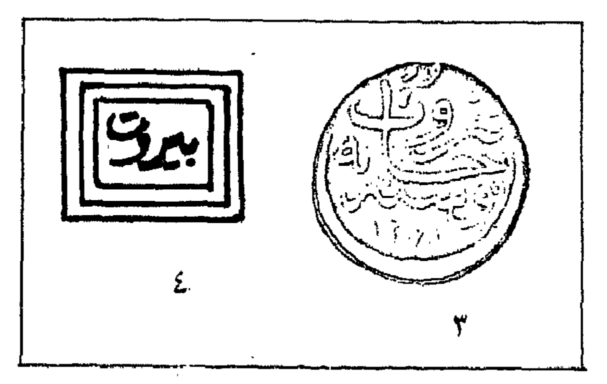
بدأ تخليص البريد في لبنان في عهد السلطنة العثمانية، باختام نحاسية صغيرة تمسك بالاصبعين: (الصورة ۱،۲،۳) وذلك حتى عام ۱۸٦۳ عندما صدرت الطوابع البريدية التركية بفرمان مؤرخ في اول كانون الثاني من العام نفسه. وكانت تُعطّل هذه الطوابع باختام مختلفة بدأت بختم مربع: (الصورة ٤) يحمل اسم مدينة بيروت فقط، ثم بعدة أختام مستديرة مختلفة: (الصورة ٥،٦،٧) تحمل اسم المصدر والتاريخ.

وانتشرت هذه الطوابع التركية في لبنان وجميع الاراضي المشمولة بحماية الدولة العثمانية حتى نهاية الحرب العالمية الاولى ۱۹۱۸.



ومع دخول جيوش الحلفاء الى لبنان، دخل معها الطابع الفرنسي الذي جرى توشيحه في مطبعة جدعون في بيروت T.E.O أي (اراضي الاعداء المحتلة) ووضع في الاستعمال البريدي في لبنان ابتداء من ۲۱ تشرين الثاني ۱۹۱۹.

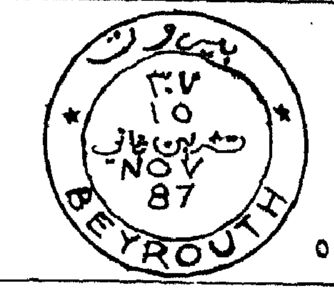
أما المجموعة الاولى المؤلفة من عشرة طوابع فهي التالية: ۱و۲ و۳ و٤ و٥ مليم - ۱و۲ و٥ و۹ و۱۰ قروش موشحة بالترتيب على طوابع فرنسية فئة ۱ و۲ و۳و٤ و۱٥ و٥ و۱۰ و۲٥ و٤۰ و٥۰ سنتيم و فرنك (الصورة ۸ - ۹)



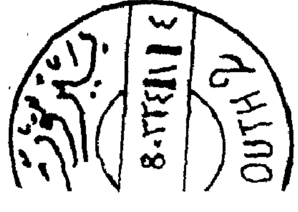
وهناك خمس مجموعات لاحقة تؤلف ۷۱ طابعاً صدرت على التوالي ما بين ۱۹۱۹ - ۱۹۲۳، اولاها تحمل توشيح : T.E.O وثلاث تحمل توشيح O.M.F آي (احتلال فرنسي عسكري) والأخيرة تحمل توشيح Syrie — Grand Liban وكانت تستعمل في سوريا ولبنان على السواء، وقد صنفت كلها مع مجموعة الطوابع السورية.

ويلاحظ أن العملة المستعملة على المجموعات الثلاث الاولى هي المليم والقرش المصريان لان نظام العملة المحلي كان مرتبطاً بالاسترليني على اساس الذهب، ومن ثم - اي عام ۱۹۲۰ - استعمل السنتيم والقرش السوريان.

هذه المجموعات وضعت حداً للطوابع الاجنبية التي كانت تستعمل الى جانب الطوابع العثمانية، بواسطة مكاتب لها في لبنان، وكان ذلك بسبب تدخل النفوذ الاجنبي الذي والت الدولة العثمانية الاعتراض عليه حتى احرزت الموافقة على الغاء هذه المكاتب البريدية في جميع الاراضي التابعة للامبراطورية العثمانية بموجب معاهدة "لوزان" فاقفلت تباعاً حتى عام ۱۹۲۳.

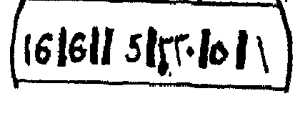


٥



٦





٧

وكانت المكاتب البريدية الاجنبية في لبنان هي التالية:

البريد الفرنسي – ١٨٤٠ الى ١٩١٤.
البريد الروسي – ١٨٥٧ الى ١٩١٤.
البريد النمساوي – ١٨٢٧ الى ١٩١٤.
البريد البريطاني – ١٨٧٣ الى ١٩١٤.
البريد الالماني – ١٩٠٠ الى ١٩١٤.

قد لا يجد المبتدىء من الهواة لذة في جمع هذه الطوابع لعدم جاذبيتها بالنسبة للاصدارات الحديثة؟ الا أننا ننصح المتقدمين منهم بأن يبادروا الى جمعها لانها جزء أساسي من التراث الطابعي في البلاد، وأثمانها في الاسواق العالمية تسير باضطراد نحو الارتفاع.

اما طريقة الجمع التي ننصح بها فهي اعتماد المختوم منها الذي يظهر فيها اسم المصدر اللبناني، ذلك لان هذه المكاتب الاجنبية كانت لها مكاتب بريد مماثلة في معظم بلدان الامبراطورية العثمانية وحتى في اسطنبول واوروبا.



٨

حركة الاصدارات الأخيرة

المملكة الاردنية الهاشمية – حزيران ١٩٧٨ – الحرف – اربعة طوابع بقيمة ٣٦٥ فلساً.

البحرين – ١٧ أيار ١٩٧٨ – اليوم العالمي العاشر للمواصلات السلكية واللاسلكية، طابعان: ٤٠ و٨٠ فلساً العدد ١٢٥٠٠٠٠ مجموعة.

الجمهورية التونسية – ٨ أيار ١٩٧٨ – الهلال الاحمر، طابع واحد: ٥٠+ ١٠ مليم.

الجمهورية الجزائرية – ٢٩ نيسان ١٩٧٨ – سلامة الطرق، طابع واحد: ٦٠ر٠ درهم.

المملكة العربية السعودية – ١٩٧٨ – استثمار البترول في البحر، طابع واحد: ٥٠ هللة.

الجمهورية السودانية – ٨ / تموز ١٩٧٨ – مؤتمر القمة الافريقي الخامس عشر في الخرطوم.

ثلاثة طوابع: ٣ و٢٤٥ و١/١٠ قروش العدد ٢٠٠٠٠٠ مجموعة.

دولة الكويت – ٧ أيار ١٩٧٨ – اليوم العالمي العاشر للمواصلات السلكية واللاسلكية.

طابعان: ٣٠ و٨٠ فلس العدد ٥٠٠٠٠٠٠ مجموعة.

الجماهيرية الليبية – ١٩٧٨ – التربية: طابعان: ٣٠ و ١١٥ مليم.

مصر – ٧ نيسان ١٩٧٨ – السنة العالمية لاستئصال الجدري: طابعان ٢٠ و ٤٠ مليم.

المملكة المغربية – ١٤ نيسان ١٩٧٨ – المؤتمر العاشر لجمعيتي الهلال الاحمر والصليب الاحمر العربيتين، طابع واحد: ١ درهم.

الجمهورية العراقية – ١٩٧٨ – ١٧ تموز – اعياد تموز طابعان: ٢٥ و ٣٥ فلس وبطاقة ١٠٠ فلس.



٩

هل تعلم ؟

انه بالرغم من الاحوال الاقتصادية المتردية هذه الايام فقد جرت في الشهر الماضي في بيروت صفقة بيع خمسة طوابع فرنسية بمبلغ احد عشر الف ليرة لبنانية الى احد كبار الهواة بغية الاستثمار!

وان الطابع اللبناني الاخير "للازياء" من فئة ٥ قروش الذي وشح في السنة الماضية قد فقد من الاسواق واصبح سعره اليوم يزيد على الليرة اللبنانية الواحدة.

وان البيع والشراء بالمقايضة، كما كان في الايام الغابرة، ما زال قائماً حتى الان بالطوابع البريدية! اذ تمت عمليات مقايضة، سجاد عجمي ثمين وقطع أثاث للبيت بطوابع بريدية، وآخر مقايضة جرت كانت في الشهر الماضي لقاء سيارة موريس مستعملة!



١٠ ١١ ١٢ ١٣ ١٤

مسابقة الشهر

٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١	
	■								١
		■							٢
				■		■			٣
	■					■	■		٤
					■				٥
■			■						٦
				■					٧
	■		■						٨
						■		■	٩

عمودياً

١ – امير لبناني تراه على طابع لبناني ٠

٢ – حيوان يشبه الجمل في الشرق الاوسط، بلد شارك لبنان في الطوابع الاولى (معكوس) ٠

٣ – سرق – اسم جنرال فرنسي يطلق على اول مجموعة استعملت في سوريا ولبنان بعد الاحتلال الفرنسي (معكوس) ٠

٤ – ضد اصيل ٠ الاسم الاول لرئيس جمهورية لبناني تراه على طابع لبناني ٠

٥ – سقي – نصمم مجزومة (معكوس) ٠ نعم بالاجنبية ٠

٦ – نميمة (مبعثرة) ٠

٧ – عالم وفيلسوف عربي تراه على طابع لبناني ٠

٨ – سحب ٠ عوج في الرجل ٠

٩ – مدينة لبنانية تراها على طابع لبناني (معكوس) ٠ الهي ٠

افقياً

١ – اسم رسام لطوابع قلعة جبيل وطرابلس وغيرها (معكوس) ٠

٢ – زوجة امير لبنان تجدها على طابع لبناني ٠ بئر ٠

٣ – عبودية ٠ الاسم الاول لرئيس جمهورية لبناني ٠

٤ – الاسم الاخير لمؤسس الكشفية تراه على طابع لبناني (معكوس) ٠

٥ – حاكم (معكوس) ٠ اسم قرية لبنانية (معكوس) ٠

٦ – رسام كاريكاتور لبناني ٠ اقترع ٠

٧ – اسم كتلوج فرنسي للطوابع الفرنسية (معكوس) ٠ اسم كتلوج فرنسي للطوابع العالمية ٠

٨ – اول طيار بين مرسيليا وبيروت تراه على طابع لبناني ٠

٩ – نهر في لبنان تراه على طابع لبناني ٠

"مسابقة الطوابع" ٠

ترسل الحلول الى ادارة المجلة، ويكتب على الظرف "مسابقة الطوابع" ٠ يجب ان يصل الحل قبل نهاية كل شهر ويعتبر خاتم البريد على الظرف بمثابة التاريخ الصحيح للارسال ٠

الجوائز هي:

الجائزة الاولى: خمسون ليرة لبنانية او ما يعادلها ٠

الجائزة الثانية: مجموعة طوابع بريدية قيمتها لا تقل ثمنها عن خمسون ليرة لبنانية او ما يعادلها ٠

الجائزة الثالثة: اشتراك نصف سنة في المجلة ٠

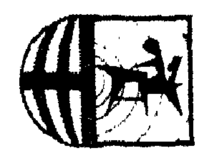
حركة البيع والشراء

هذا المكان مخصص لهواة جمع الطوابع والراغبين في المبادلة او البيع او الشراء ٠ وقد درسنا احسن الاسس العالمية الحديثة لهذه الغاية وسنضع خبرتنا مجاناً في خدمة القراء ٠

قسم الطوابع

نرحب بجميع الاسئلة من لدى القراء وهواة جمع الطوابع وسننشر في هذا المكان ما يكون منها مهماً ومفيداً ٠

ارسل ملاحظاتك واقتراحاتك الى مجلة "تاريخ العرب والعالم" "قسم الطوابع" ص٠ب (٥٩٠٥) بيروت – لبنان –



للطلاب فقط ...

اعداد: سحر بعاصيري
الجامعة الاميركية

هدف هذه الزاوية هو تشجيع الطلاب في جامعات ومعاهد العالم العربي على البحث العلمي، خصوصاً البحث في تاريخ العرب والعالم.

ومن أجل هذه الغاية خصصت جوائز للطلاب الذين يرسلون الحلول الصحيحة في موعد اقصاه نهاية الشهر الذي يصدر فيه العدد.

والمطلوب الاجابة على الاسئلة جميعها وارفاقها بالقسيمة المنشورة الى جانب الزاوية، ولا يشترك في القرعة لاختيار الفائزين بالجوائز من اخطأ في أحد الحلول.

اذا رغبت، صديقي القارىء، بالاشتراك في المسابقة فما عليك الا ان ترسل الحلول مع القسيمة الى عنوان المجلة، مرفقة باسمك وعنوانك في الجامعة أو الكلية أو المعهد الذي تواصل تعليمك فيه. -وتغفل كل رسالة لا تحتوي هذه المعلومات لان المسابقة مخصصة للطلاب... وللطلاب فقط.

ما هي ؟

■ مجموعة جزر (مساحتها الكلية ٣٠٥ كيلومترا مربعاً ومجموع سكانها ٣٥٠،٠٠٠). خضعت للفينيقيين واليونان والقرطاجيين والرومان والعرب، وفي ١٥٣٠ اعطيت للفرسان الاسبتارية الذين حكموا حتى هزيمتهم امام نابليون في ١٧٩٨. ضمت لبريطانيا ١٨١٤، واصبحت عاصمتها القاعدة البحرية والعسكرية الرئيسية لبريطانيا في البحر المتوسط. وبمقتضى دستور ١٩٤٧ منحت حكما ذاتيا محدوداً. تعتبر احواض السفن التابعة للبحرية البريطانية اهم مصدر للعمل بالنسبة للسكان. وجدت فيها آثار هامة من العصر الحجري القديم، والعصر الحجري الحديث، والعصر البرونزي. نالت استقلالها في ٢١ ايلول ١٩٦٤.

■ مدينة فرنسية، تشتهر بكثرة قصورها وحدائقها. تقع شرق فرنسا وجنوب غرب باريس. وقعت فيها بعض المعاهدات الهامة. فيها قصر شهير بدأ بتشييده لويس الرابع عشر سنة ١٦٦١، ونقل اليه بلاطه سنة ١٦٨٢، لكن الثورة الفرنسية ارغمته على الانتقال الى قصر التويلري بباريس سنة ١٧٩٠.

حول لويس فيليب القصر الى متحف وطني. من المعاهدات التي تمت فيها معاهدة عرفت باسمها بعد الحرب الاهلية الاميركية ضد بريطانيا سنة ١٧٨٣، واتفاقية اخرى وقعت في نهاية الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٩.

اين .. ومتى؟

■ خلاف دبلوماسي، وقع بين بريطانيا وفرنسا، سببه دعوى فرنسا بحقها في السيطرة على اعالي النيل مما اوصل الطرفين الى حافة الحرب المباشرة، نشب الخلاف، عندما دخلت حملة فرنسية مشكلة من الجنود السنغاليين بقيادة ج،ب، مرشان الى مدينة (...) واستيلائها عليها مما حدا بكتشز سردار الجيش المصري الى محاولة رد الحملة الفرنسية بتجهيز حملة انكليزية - مصرية، لكن المشكلة سويت بالطرق الدبلوماسية، وانسحب مرشان بعد تخلي فرنسا عن دعواها بحق السيطرة على اعالي النيل.

من هي ؟

■ فيزيائية وكيميائية بولونية (١٨٦٧ ١٩٣٤) تعلمت في باريس على يدي بوانكاريه ولبمان. اشتهرت هي وزوجها لاكتشافها عنصر الراديوم. وتمكنت من عنصر "البولونيوم". وتسمى باسمها كمية الرادون الموجودة في توازن اشعاعي في غرام من الراديوم (يستعمل الان بمعنى كمية من الاشعاع تساوي ٣٧×١٠ للقوة ١٠ من دقائق الفا في الثانية).

كانت الشخص الوحيد الذي تلقى جائزة نوبل للعلوم مرتين: فكانت الاولى في الفيزياء سنة ١٩٠٣ بالاشتراك مع زوجها ومع بيكيرل والاخيرة سنة ١٩١١ للكيمياء.

من هو ؟

فلكي ورياضي عربي (٨٢٦ - ٩٠١)

■ ولد في حران على دين الصابئة. اشتهر بعلم الفلك. وقد استخرج حركة الشمس وحسب طول السنة النجمية، فكان ٣٦٥ يوما وست ساعات وتسع دقائق وعشر ثوان، اي لم يزد عن طول السنة الحقيقي الا بما هو اقل من نصف ثانية. وقد مهد الطريق لايجاد حساب التكامل والتفاضل، ويعد من اعظم من كتب بالعربية في علم الهندسة.

كان ناقلا بارعا ومصنفا قديراً. له كتب متنوعة، منها ما هو مترجم عن اليونانية كاختصار كتاب "ما بعد الطبيعة" لارسطو، و"جوامع كتاب الادوية المفردة" لجالينوس، ومنها ما الفه هو ككتاب "حساب الاهلة" ورسالة في الحصر المتولد في المثانة، وكتاب في تشريح بعض اعضاء الطيور.

يعتبر من أشهر ممثلي الثقافة الكلاسيكية في القرون الوسطى

والجوائز هي:

الجائزة الاولى: خمسون ليرة لبنانية
الجائزة الثانية: اشتراك سنة في المجلة
الجائزة الثالثة: اشتراك نصف سنة في المجلة



تـاريخ

في اولمبياد برلين ١٩٣٦
الزنوج حطموا نظرية هتلر وتفوقوا على الجنس الاوروبي الابيض!

اعداد: وفيق علم الدين
رئيس الدائرة الرياضية في "الانترناشونال كولدج"

كانت الالعاب الاولمبية التي اقيمت في برلين في ٥ آب من عام ١٩٣٦، اضخم مهرجان رياضي عرفه العالم. وكانت ايضاً اكبر عمل دعائي عالمي. لقد حضرها حوالي مئة الف متفرج جاؤوا من جميع انحاء العالم. كانت الترتيبات فخمة وجرى توسيع ستاد برلين الذي استضاف الالعاب الاولمبية لعام ١٩٣٦.

حفلة الافتتاح يوم السبت في الاول من آب كانت مهرجاناً حقيقياً. وأطل ادولف هتلر من فوق ١٥٠ درجة ابتداء من ساحة الملعب ذات الاحجار الضخمة، واتخذ مكانه في المنصة ليشاهد العرض الذي اشترك فيه اربعة الاف رياضي.

في البداية، وافقت اغلبية الفرق على طلب المانيا الرسمي اداء التحية الفاشية... الا انه بعد كل انتصار رياضي، كان هتلر يتلقى صفعة لكون هذه الانتصارات، كانت غالباً لصالح الرياضيين الزنوج واغلبهم من اميركا، بينما كان هتلر يؤمن بتفوق الجنس الاوروبي الابيض.



■ التحية الالمانية النازية في حفلة الافتتاح



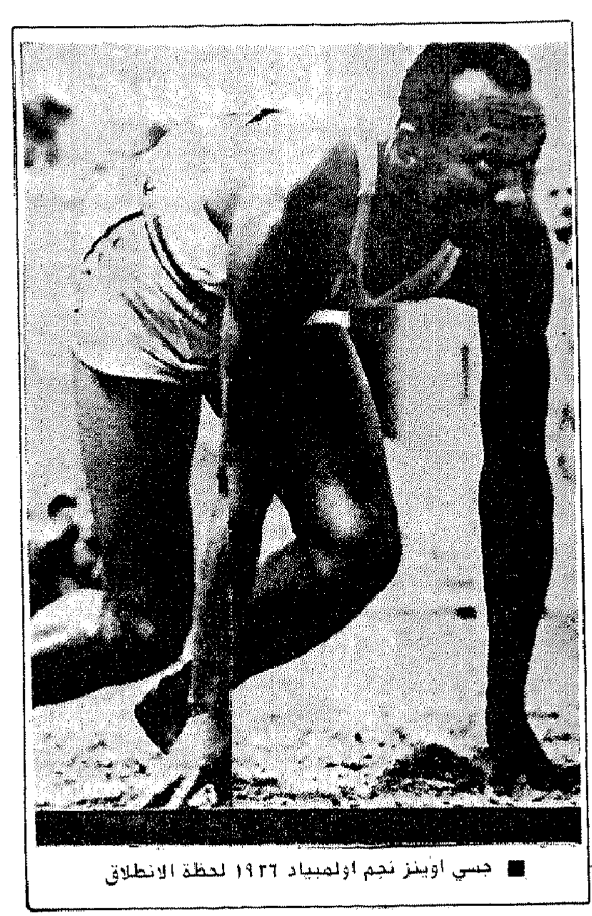
■ ادولف هتلر داخلا ستاد برلين يوم الافتتاح

اغلب هذه الانتصارات حققها احد اعظم "النجوم" الذين عرفتهم تلك الايام وهو جسي اوينز، ولقد اشتهر جسي اوينز في بداية الثلاثينات وخصوصاً في ايار ١٩٣٥ عندما حطم خمسة ارقام عالمية، ومعادلته رقماً آخر بعد سبعين دقيقة من تحقيقه. ومن انجازات جسي اوينز الرياضية معادلته الرقم العالمي في المائة يارد ٩،٤ ثانية

كما حقق ارقاماً جديدة عالمية في القفز العريض (٢٦ قدماً وثماني بوصات) والذي حطمه "رالف بوسطن" بعد ٢٥ سنة، كما حطم رقم الـ٢٢٠ يارد (٢٠،٣ ثانية) ورقم ٢٢٠ يارد حواجز (٢٢،٦ ثانية)، والرقمان الاخيران اعتبرا رقمين عالميين.

وفي الالعاب الاولمبية نال جسي اوينز شعبية كبيرة بين اهالي برلين، لم يحقق اي رقم جديد، ولكنه اظهر ارادة كبيرة ففي سبعة ايام اشترك في اثنتي عشرة مباراة واحرز اربع ميداليات ذهبية واثبت انه رياضي من الطراز النادر، فلقد عادل مرتين الرقم الاولمبي في المئة متر (١٠،٣) ثانية ثم بذل جهداً كبيراً لتحطيمه فيما بعد (١٠،٢) ثانية وحقق رقما اولمبيا جديداً في القفز العريض (٢٦ قدما وخمس بوصات وربع البوصة). كما حقق رقماً اولمبيا جديداً في المائتي متر في طقس ممطر (٢٠،٧) ثانية، وفي سباق البدل للاربعمائة متر أمن اوينز لفريقه النصر في المائة متر الاولى وكانت النتيجة النهائية (٣٩،٨) ثانية.

في القفز العريض كانت آمال الالمان معقودة على "لوز لونغ" وكانت جميع الانظار متجهة لهذه المباراة ولكن جسي اوينز استطاع التغلب على منافسة الالماني بفارق بضعة سنتميرات... فالالماني قفز ٢٥،٩ قدماً ولكن اونيز قفز ٢٦ قدماً بعد منافسة حامية الهبت عواطف الجماهير...



■ جسي اوينز نجم اولمبياد ١٩٣٦ لحظة الانطلاق

احرز الزنوج ميداليات ذهبية في سباق الاربعمائة والثمانمائة متر، وميداليات فضيّة في سباقي المئة متر والمئتي متر، وميداليات ذهبية وفضية في القفز العالي، وكان ذلك، بالطبع كثيراً على قدرة هتلر على الاحتمال، وفي اليوم الاول غادر الملعب عندما نال "كورناليوس جونسون" الميدالية الذهبية في القفز العالي ورفض رفضاً باتا "الاعتراف" بانتصارات اوينز ولم يصافحه لا هو ولا الزنوج الآخرين كما فعل مع باقي المنتصرين!.

الا ان الالمان نالوا بعض الترقية عندما حصلوا، في المجموع العام، على اكبر عدد من الميداليات الذهبية.

وذاعت انباء انتصارات الرياضيين الالمان والتنظيم الرسمي للالعاب بفضل ماكينة الدعاية الالمانية الجبارة، حتى ان الفيلم الرسمي كان باشراف المخرجة الشهيرة "لينى ريفنشتال".

كانت اولمبياد عام ١٩٣٦ محاولة مدروسة ومنظمة من النظام الالماني لاكتساب احترام العالم، وكان على طوكيو استضافة الدورة الاولمبية التالية، لكن سياسة هتلر اشعلت الحرب وتوقفت الالعاب الاولمبية اثنتي عشرة سنة حيث اقيمت مرة اخرى من جديد بعد انتهاء الحرب في لندن عام ١٩٤٨.



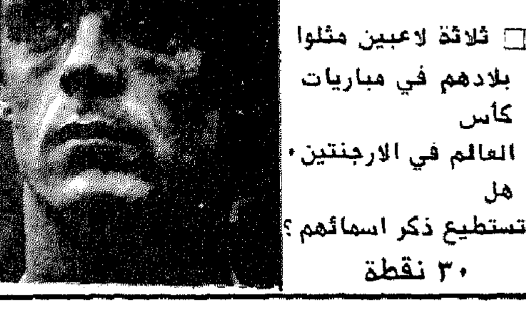
■ "الرياضي المثالي" للمخرجة الالمانية الشهيرة "ليني ريفشتال"

المسابقة

٣ لاعبين

☐ ثلاثة لاعبين مثلوا بلادهم في مباريات كأس العالم في الارجنتين. هل تستطيع ذكر اسمائهم؟

٣٠ نقطة







١٠ اسئلة

١ ـ في اي سنة تأسس الاتحاد الدولي لكرة القدم؟ ومن هو الرئيس الحالي؟ ومن كان الرئيس السابق لهذا الاتحاد؟

٢ ـ حارس مرمى عالمي طوله ١٨٤م، اعتبر اعظم وامهر حارس مرمى في العالم. مثل بلاده في بطولات كأس العالم: اعوام ١٩٥٨و١٩٦٢و١٩٦٦.

٣ ـ من هو الفريق الذي احرز كأس الابطال الاوروبية لعام ١٩٥٦ وعلى من فاز في المباراة النهائية؟ وماذا كانت النتيجة؟

٤ ـ من نظم بطولة كأس العالم عام ١٩٥٠ ومن فاز في هذه البطولة ومن حل ثانيا؟

٥ ـ من سجل اسرع هدف في تاريخ مباريات كأس العالم وفي اية مباراة واي عام؟

٦ ـ ما هي الفرق العربية التي وصلت الى الادوار النهائية لكأس العالم في كرة القدم وفي اية اعوام؟

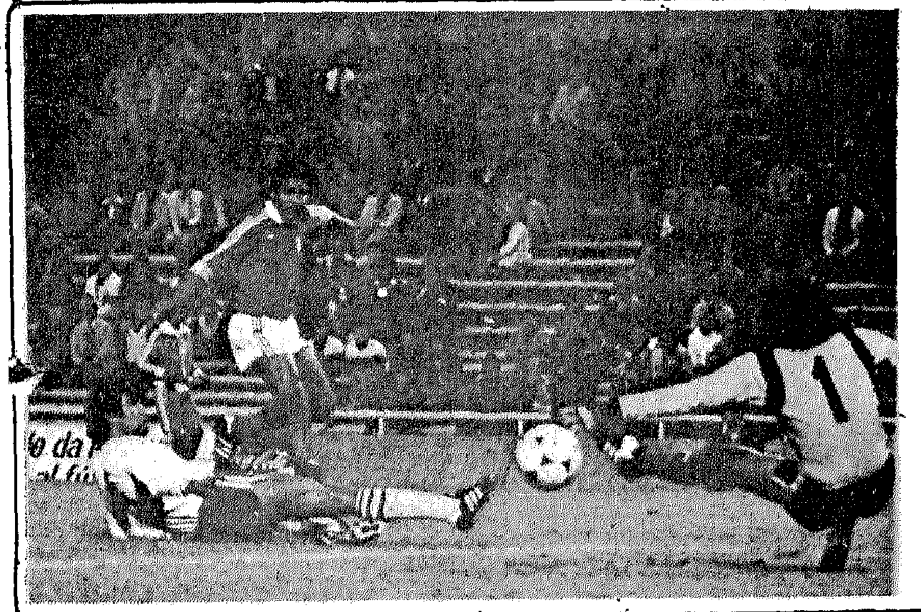
٧ ـ مصارع لبناني نال ميدالية فضية (المركز الثاني) في اولمبياد لندن عام ١٩٥٢.

٨ ـ من هو اللاعب الذي سجل ٣ اهداف في مباراة نهائية لكأس العالم وفي اي سنة واية مباراة؟

٩ ـ عام ١٩٢٤ فاز فريق عربي لكرة القدم على الفريق المجري في العاب باريس الاولمبية. من هو هذا المنتخب وما هي النتيجة؟

١٠ ـ أربع اشقاء احرز فريقهم بطولة كأس العالم عام ١٩٥٤و١٩٦٦. من هم وما هي فرقهم؟

١٠ نقاط على كل سؤال



☐ في اية مباراة التقطت هذه الصورة اثناء بطولة كأس العالم في الارجنتين. من هما الفريقان؟ في اي ملعب؟ وماذا كانت النتيجة؟

٤٠ نقطة

☐ ترسل الاجوبة الى ادارة مجلة "تاريخ العرب والعالم" ص.ب (٥٩٠٥)، شارع السادات، بناية ابو هليل ـ رقم ١١ ـ بيروت ـ لبنان ويكتب على الظرف "مسابقة الرياضة". يجب ان تصل الردود قبل نهاية كل شهر ويعتبر خاتم البريد على الظرف بمثابة التاريخ الصحيح للارسال.

■ الجوائز ■

☐ الفائز الاول: مائة ليرة لبنانية او ما يعادلها

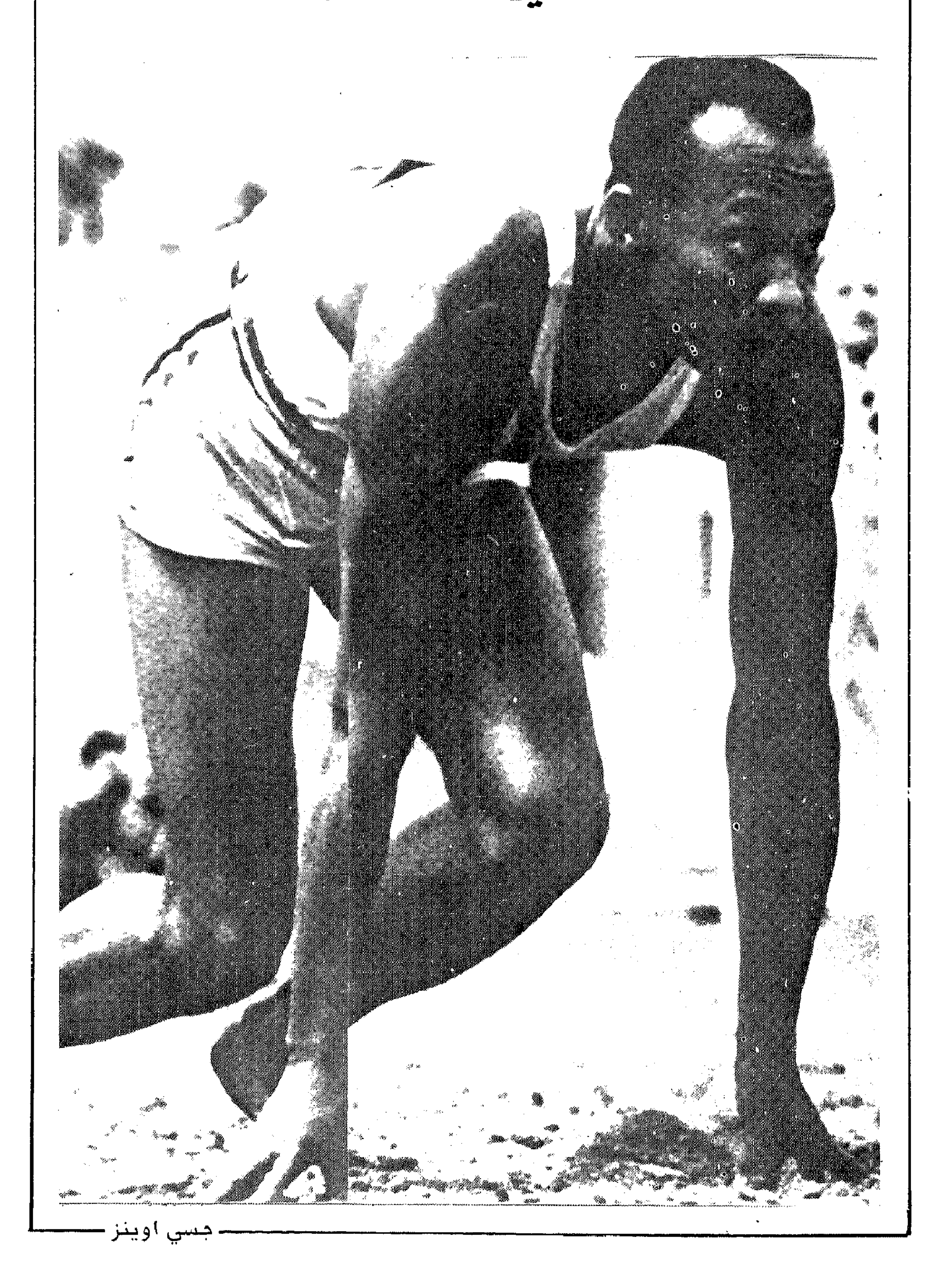
☐ الفائز الثاني: هدية من محلات "اطلس سبور" بقيمة خمسين ل.ل

☐ الفائز الثالث: اشتراك سنة في المجلة

☐ الفائز الرابع: اشتراك نصف سنة في المجلة

في العـــدد المقتبـــل

تاريخ الرياضة في الثلاثينات



جسي اوينز

